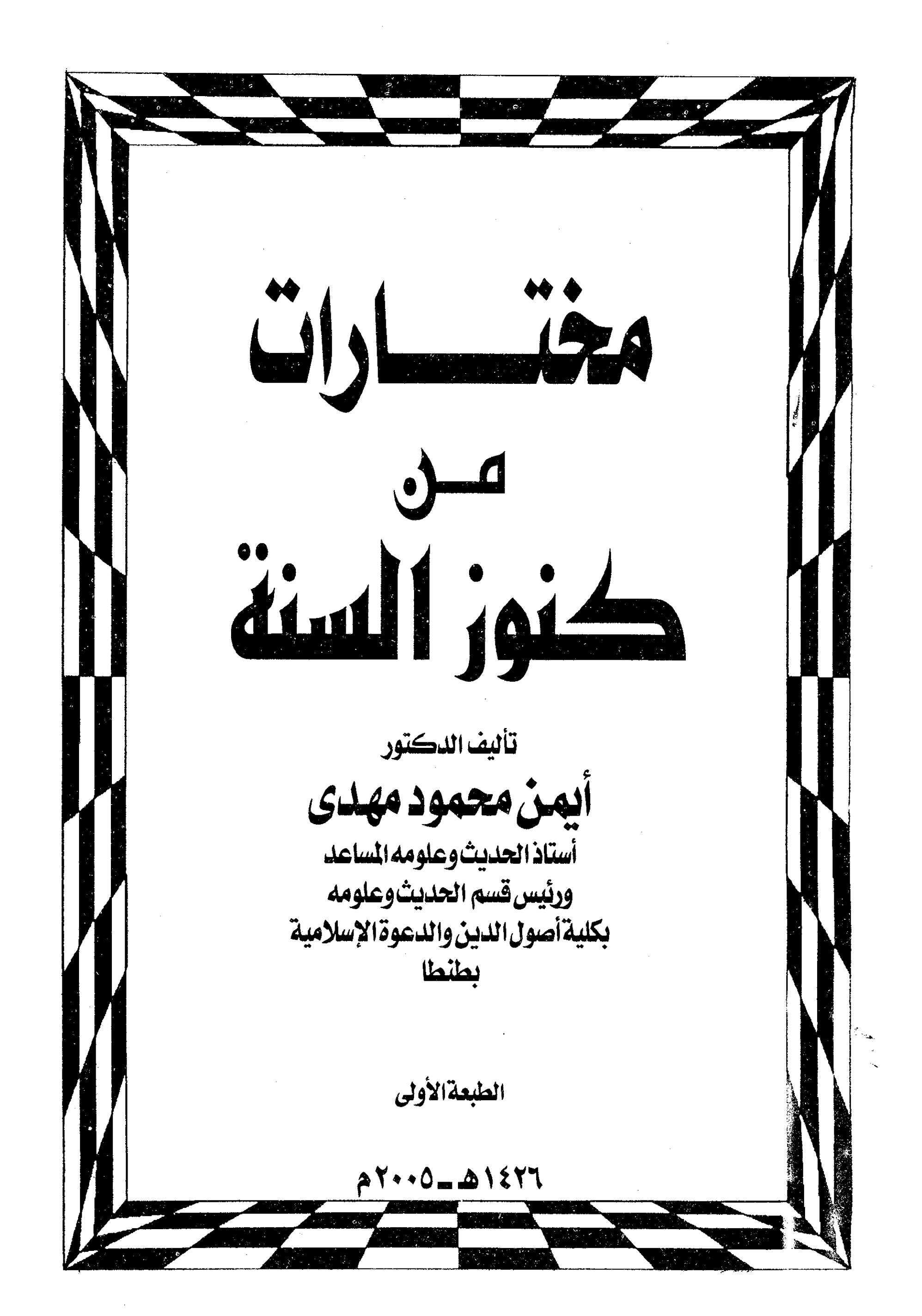


مختـــارات
مـــن
كنوز السنة

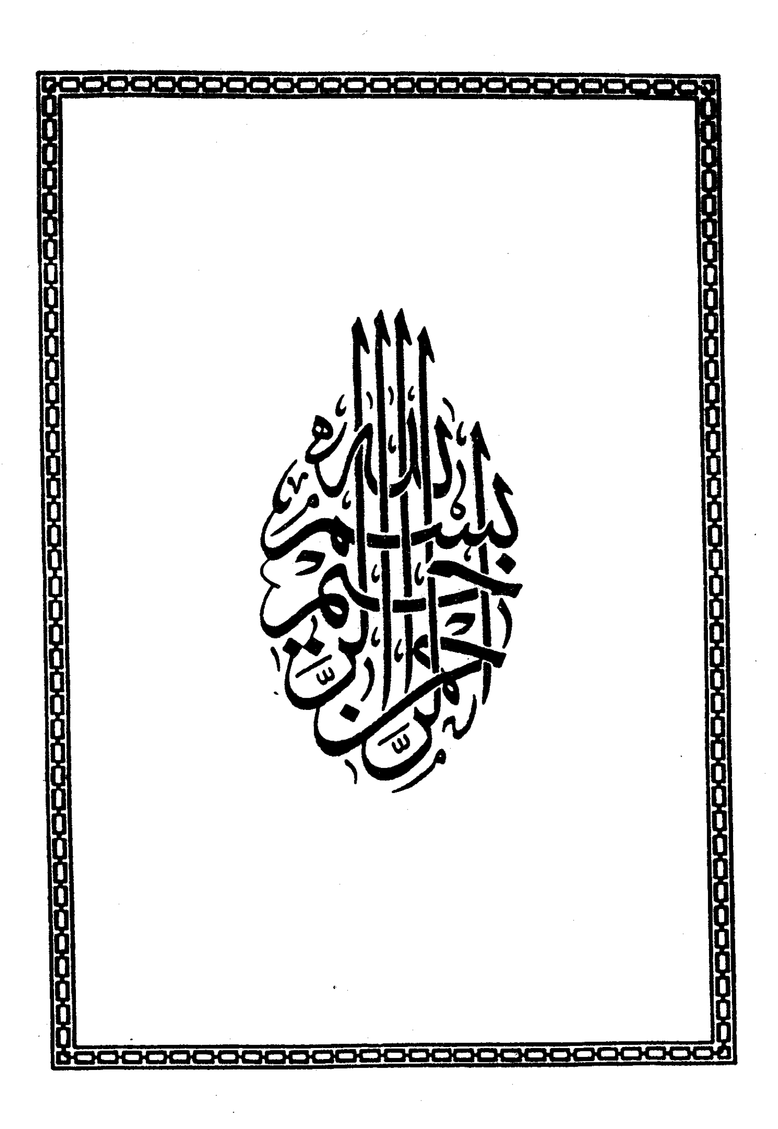
تأليف الدكتور

أيمن محمود مهدى

أستاذ الحديث وعلومه المساعد
ورئيس قسم الحديث وعلومه
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م


بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان

عن ابن عمر ﷺ قال : (كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان) .

تخريج الحديث

هذا الحديث في أعلى درجات الصحة حيث أخرجه :

أ- البخاري في صحيحه كتاب الاعكتاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر ٣١٨/٤ رقم ٢٠٢٥ .

ب- مسلم في صحيحه كتاب الاعتكاف باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ٨٣٠/٢ رقم ١١٧١ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الإمام القدوة شيخ الإسلام الصحابي الجليل : عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى أبو عبد الرحمن المكي المدني .

أسلم قديماً مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحُلم وهاجر معه إلى المدينة وتربَّى بين أكناف الصحابة وفى أحضان النبوة .

استُصغِر يوم أُحد وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول – تعني ما كان عليه رسول الله ﷺ – من ابن عمر .

وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ وشهد له بالصلاح .

ففي الحديث عن نافع عن ابن عمر ﷺ قال : رأيت في المنام كأن في يدي سرقةً – أي قطعةً – من حرير لا أهوي بها إلى مكانٍ في الجنة إلا طارت بي

إليه فقصصتها على حفصة فقصَّتها حفصة على النبي ﷺ فقال : " إن أخاكِ رجلٌ صالح " ، أو قال " إن عبد الله رجلٌ صالح " . [١]

وكان ابن عمر إذا سمع شيئاً من رسول الله ﷺ اجتهد في تنفيذه بلا تردُّدٍ فحينما سمع النبي ﷺ يقول عن أحد أبواب مسجده :" لو تركنا هذا الباب للنساء " قال نافع مولاه : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . [٢]

وكان معروفاً بشدة تتبُّعه لآثار الرسول ﷺ حتى إن مالكاً روى عمَّن حدَّثه أن ابن عمر كان يتتبَّع أمر الرسول ﷺ وآثاره وأحواله ويهتم به حتى كان قد خِيف على عقله من اهتمامه بذلك .

وقال نافع مولاه : لو نظرتَ إلى ابن عمر إذا اتَّبع رسول الله ﷺ لقلت : هذا مجنون . [٣]

وقد ظهر هذا جلياً في أموره كلها ففي رحلته للحج دار بدابته دورةً فلما سُئل عن سبب ذلك قال : رأيت دابة رسول الله ﷺ تدور به في هذا الموضع فدُرت بدابتي لعل الخُفَّ يطأ الخف .

وكان رضي الله عنه يقوم الليل كله ويسرد الصيام حتى أمره النبي ﷺ بالتخفيف من الصيام والقيام .

وكان سبب هذا الاجتهاد والتشديد في العبادة ما رواه ابنه سالم عنه قال : كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على رسول الله ﷺ وكنت غلاماً عَزَباً فكنت أنام في المسجد فرأيت كأن ملكين أتياني فذهبا بي إلى

---

[١] البخاري كتاب التعبير باب الاستبرق ودخول الجنة في المنام ٤٢١/١٢ رقم ٧٠١٥ .

[٢] أبو داود كتاب الصلاة باب اعتزال النساء في المساجد عن الرجال ١٢٣/١ رقم ٤٦٢ .

[٣] حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهاني ٣١٠/١ .

النار فإذا هي مطويةٌ كطي البئر ولها قرونٌ كقرون البئر فرأيت فيها ناساً قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار فلقيني مالك – أي خازن النار – فقال: لن تُراع فذكرتها لحفصة فقصَّتها على رسول الله ﷺ فقال : " نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل " قال سالم : فكان بعدها لا ينام من الليل إلا القليل . (١)

وقد عرف الصحابة الكرام فضل ابن عمر وقدره فأكثروا من الثناء عليه قال ابن مسعود : إن من أملك شباب قريشٍ لنفسه عن الدنيا عبد الله بن عمر .

وقال جابر بن عبد الله : ما منا أحدٌ أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها إلا عبد الله بن عمر .

ظلَّ ابن عمر مع النبي ﷺ مرافقاً له في حضره وسفره وليله ونهاره وروى عنه علماً كثيراً كما روى عن الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وغيرهم وطال عمره حتى اجتمع حوله طلبةُ العلم وروى عنه خلقٌ كثيرٌ من التابعين منهم : الحسن البصري وسعيد بن المسيب والزهري وطاووس وغيرهم ، وهو ثاني الصحابة المكثرين من رواية الحديث حيث تبلغ جملة الأحاديث التي رواها (٢٦٣٠) حديثاً اتفق البخاري ومسلم على مائة وسبعين (١٧٠) منها وانفرد البخاري بواحدٍ وثمانين (٨١) ومسلم بواحدٍ وثلاثين (٣١) والباقي في كتب الحديث الأخرى .

طال عُمره حتى قال الزهري " لا يُعدل برأي ابن عمر فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة فلم يَخْفَ عليه شيءٌ من أمره ولا من أمر أصحابه .

---

(١) البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب عبد الله بن عمر ١١٢/٧ ، ١١٣ رقم ٣٧٣٨ ، ٣٧٣٩ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عمر ١٩٢٧/٤ رقم ٢٤٧٩ .

وقال مالك : أقام ابن عمر بعد وفاة الرسول ﷺ ستين سنة تَقْدُم عليه وفود الناس .

وقد جنَّبه أبوه الخلافة – وإن كان جديراً بها – وجعل رأيه استشارياً فقط في أصحاب الشورى ، لم يلابس شيئاً من الفتن ولم يدخل في شيءٍ من الحروب التي وقعت بين الصحابة بل تفرَّغ للعلم والعبادة ، وقد ندم قُبيل وفاته على عدم مناصرته لعلي بن أبى طالب .

تُوفي ابن عمر سنة ثلاثٍ وسبعين من الهجرة وهو ابن سبعٍ وثمانين سنة . [1]

معاني المفردات

يعتكف : الاعتكاف هو الإقامة على الشيء وبالمكان ولزومهما يقال : اعتكف يعتكف اعتكافاً فهو مُعتكف ومنه قيل لمن لزم المسجد وأقام على العبادة فيه معتكف ، قال تعالى : ﴿ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [2] أي : مقيمون عليها عابدون لها .

المعنى الإجمالي للحديث

يُبيِّن هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يخرج من أشغاله إلى رحاب ربه فيترك بيته وزوجاته وينتقل إلى المسجد في العشر الأواخر من رمضان فيُقيم فيه بشكلٍ كامل يصوم نهاره ويُقيم ليله ويعبد ربه ويدع الدنيا خلف ظهره فيستمد من الخلوة بربه ولزوم بابه غِذاءً لروحه واطمئناناً لنفسه خاصةً في هذا

---

[1] للاستزادة من أخبار ابن عمر راجع : سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠٣/٣ ، الإصابة لابن حجر ١٥٥/٤ ، البداية والنهاية لابن كثير ٥/٩ ، أسد الغابة لابن الأثير ٢٢٧/٣ .

[2] الأنبياء : ٥٢ .

الشهر الكريم الذي تتضاعف فيه الأعمال ثم يخرج في آخر ليلةٍ من رمضان وقد أشرقت روحه وأضاء قلبه وأقبل على الدعوة لربه بهمةٍ ونشاط .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

أجمع العلماء على مشروعية الاعتكاف وأنه سنةٌ مؤكدة وقربةٌ إلى الله تعالى وقد ذكره الله في القرآن في قوله تعالى:﴿ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ [١] وكان معروفاً في الجاهلية ومعمولاً به من قبل الإسلام ، وفى الحديث أن عمر ابن الخطاب سأل النبي ﷺ فقال : كنتُ نذرتُ في الجاهلية أن أعتكف ليلةً في المسجد لحرام فقال له النبي ﷺ : " أوفِ بنذرك " [٢] .

والاعتكاف شرعاً : هو لزوم المسجد والإقامة فيه بِنيَّة التقرُّب إلى الله تعالى ، قال النووي : هو المكث في المسجد من شخصٍ مخصوص وبصفةٍ مخصوصة . [٣]

ويُسمَّى الاعتكاف جواراً ويُقال للمعتكف مجاور وفى حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُجاور في العشر الأواخر من رمضان [٤] ، وفى حديث أبى سعيدٍ الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يُجاور في رمضان . [٥]

---

[١] البقرة : ١٨٧ .

[٢] البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف ليلاً ٣٢/٤ رقم ٢٠٣٢١ ، مسلم كتاب الأيمان باب نذر الكافر وما يفعل فيه إذا اسلم ١٢٧٧/٣ رقم ١٦٥٦ .

[٣] شرح صحيح مسلم للنووي ٦٦/٨ .

[٤] البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحرى ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ٣٠٦/٤ رقم ٢٠٥ .

[٥] البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحرى ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ٣٠٥/٤ رقم ٢٠١٨ ، مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ٨٢٤/٢ رقم ١١٦٧ .

والاعتكاف سنةٌ مؤكَّدة فقد كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشـرة أيام فلما كان العام الذي قُبض فيه اعتكف عشرين يوماً . [١]

وقد جاءت أحاديث كثيرة تُفيد اعتكاف النبي ﷺ في العشر الأواخر مـن رمضان وهى تؤكِّد بجملتها استحباب الاعتكاف وتأكُّد اسـتحبابه فـي العشـر الأواخر من رمضان وقد أجمع المسلمون على استحبابه وأنه ليس بواجب وعلى أنه مُتأكَّد في العشر الأواخر من رمضان .

وقد اعتكف النبي ﷺ وأصحابه وأزواجه معه ومن بعده ، وفى الحـديث عن أبي سعيدٍ الخدري قال : اعتكف رسول الله ﷺ عشر الأوَل مـن رمضـان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك فاعتكف العشر الوسـط فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك فقام النبـي ﷺ خطيبـاً صبيحة عشرين من رمضان فقال : " من اعتكف مع النبي ﷺ فليرجـع فـإني رأيت ليلة القدر وأني نسيتها وإنها في العشر الأواخر في وتر وإني رأيت كأني أسجد في طينٍ وماء " وكان سقف المسجد جريد النخل وما نرى في السماء شيئاً فجاءت قزعة فأُمطرنا فصلَّى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والمـاء علـى جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته تصديق رؤياه . [٢]

واعتكف أزواج النبي ﷺ معه ثم اعتكفن من بعده ، وفى الصـحيح عـن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان فـإذا صلَّى الغداة دخل مكانه الذي اعتكف فيه فاستأذنته أن أعتكف فأذن لي فضربت فيه قبةً أخرى فلما انصرف رسول الله ﷺ من الغداة أبصر أربع قباب فقـال :

---

[١] البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان ٣٣٤/٤ رقم ٢٠٤٤ .

[٢] البخاري كتاب الأذان باب السجود على الأنف والسجود على الطين ٣٤٧/٢ رقـم ٨١٣ ، ومسـلم كتـاب الصيام باب فضل ليله القدر ٨٢٤/٢ رقم ١١٦٧ .

" ما هذا ؟ " فأُخبر خبرهن فقال " ما حملهن على هذا ؟ آلبر ؟ إنزعوها فلا أراها " فنُزعن فلم يعتكف في رمضان حتى اعتكف في آخر العشر من شوال . [١]

ومع اتفاق العلماء على أن الاعتكاف سنة وقربة إلى الله تبارك وتعالى إلا أنه لم يرد في فضله حديثٌ صحيح وكل ما ورد فيه أن رسول الله ﷺ اعتكف وهى سنةٌ عملية واعتكف أصحابه وأزواجه معه وبعده وهى سنة تقريرية .

قال أبو داود : قلت لأحمد رحمه الله : تعرف في فضل الاعتكاف شيئاً ؟ قال : لا إلا شيئاً ضعيفاً .

والاعتكاف سنةٌ مؤكدة أحياها المسلمون وطبَّقوها على اختلاف أعصارهم فعن مالكٍ رحمه الله أنه رأى بعض أهل العلم إذا اعتكفوا العشر الأواخر من رمضان لا يرجعون إلى أهاليهم حتى يشهدوا الفطر مع الناس ، وقال مالك : بلغني ذلك عن أهل الفضل الذين مضوا . [٢]

الفائدة الثانية:

يُشترط في المعتكف شروط وهى : أن يكون مسلماً مميِّزاً طاهراً من الحدث الأكبر ويُشترط لصحة الاعتكاف أن يكون في المسجد وهو قول مالك والشافعي وأحمد وقد استدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ﴾ [٣] لأنه لو صحَّ الاعتكاف في غير المسجد لم يكن لذكر المسجد

---

(١) البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في شوال ٣٣٢/٤ رقم ٢٠٤١ ، مسلم كتاب الاعتكاف باب متى يدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه ٨٣١/٢ رقم ١١٧٣ .

(٢) موطأ مالك كتاب الاعتكاف باب خروج المعتكف للعيد ص ٢٥٩ .

(٣) البقرة : ١٨٧ .

فائدة ولم يخص تحريم المباشرة بالاعتكاف في المسجد لأنها منافية للاعتكاف فعُلِم أن المُراد بيان أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد ومما يؤكِّد ذلك أن النبي ﷺ وأزواجه وأصحابه إنما اعتكفوا في المسجد مع المشقة في ملازمته فلو كان جائزاً في البيت لفعلوه ولو مرةً واحدة خاصةً النساء لأن حاجتهن إليه في البيوت أكثر وهو أسترُ لهن ، وأجاز أبو حنيفة للمرأة أن تعتكف في مسجد بيتها ثم اختلف جمهور العلماء المشترطون للمسجد في المسجد الذي يصح فيه الاعتكاف :

فقال مالك والشافعي : يصح الاعتكاف في كل المساجد .

وقال أبو حنيفة وأحمد : لا يصح الاعتكاف إلا في المسجد الذي تُصلَّى فيه الصلوات الخمس وتُقام فيه الجماعة .

واتفق العلماء على أنه لا حدّ لأكثر الاعتكاف ولكنهم اختلفوا في أقله فمن شَرَط الصوم لصحته قال : أقلُّه يوم ومن لم يشترط الصوم قال لا حدَّ لأقله فيصح اعتكاف ساعةٍ واحدة بل لحظةٍ واحدة وهو يتحقَّق بالمكث في المسجد مع نية الاعتكاف طال الوقت أم قصُر .بل قيل : يكفي المرور مع النية كوقوف عرفة ، وروى عبد الرزاق عن يعلى بن أمية الصحابي قال : إني لأمكث في المسجد الساعة وما أمكث إلا لأعتكف [1].

وصحَّح النووي هذا الرأي وقال : ينبغي لكل جالسٍ في المسجد لانتظار صلاةٍ أو لشغلٍ آخر من آخرةٍ أو دنيا أن ينوي الاعتكاف فيُحتسب له ويُثاب عليه ما لم يخرج من المسجد فإذا خرج ثم دخل جدّد نيةً أخرى للاعتكاف [2] .

---

[1] مصنف عبد الرزاق ٣٤٦/٢ رقم ٨٠٠٦ .

[2] شرح صحيح مسلم ٦٧/٨ .

وليس الصوم شرطاً لصحة الاعتكاف بل المُعتكف إن شاء صام وإن شاء أفطر لأن النبي ﷺ اعتكف في العشر الأول من شوال ولحديث عمر السابق : أنه سأل النبي ﷺ فقال : كنت نذرت في الجاهلية أن اعتكف ليلةً في المسجد الحرام فقال له : " أوفِ بنذرك " لأن الليل ليس ظرفاً للصوم فلو كان شرطاً له لأمره النبي ﷺ به ولأرشده إلى أن يعتكف النهار ليصوم فيه وهذا قول الشافعي وأصحابه واختلف النقل عن أحمد في ذلك .

وذهب أبو حنيفة ومالك وابن تيمية وابن القيم من الحنابلة إلى اشتراط الصوم لصحة الاعتكاف وقالوا : لا اعتكاف إلا بصوم ولا يصح الاعتكاف من مفطر لأن النبي ﷺ كان يعتكف في رمضان .

الفائدة الثالثة :

الأصل في صحة الاعتكاف هو : المكث في المسجد مع النية وليس له ذكرٌ مخصوص ولا يُشترط له فعلٌ مخصوص فلو تكلَّم بكلام دنيا أو عمل صنعة أو مذاكرة علمٍ لم يبطل اعتكافه ولكن الفائدة المترتبة على الاعتكاف تكون ناقصة أو مفقودة بالقدر الذي ينشغل فيه بأمور الدنيا لأن المراد من الاعتكاف هو : الهروب بالقلب إلى الرب والاستيحاش من الخلق والأنس بالله وحده ولذلك قيل : متى رأيتَ نفسك تهرب من الأنس بالله إلى الأنس بالخلق ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار فاعلم أنك لا تصلح له وأنك محجوبٌ عن القرب منه .

والمحب الحقيقي لربه يهرب إلى العزلة عن الخلق والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء ، والطفل إلى أمه ولذلك كان الصالحون يتزوَّدون بالخلوات ويفِرُّون عن المخلوقات ويختلون بربهم فيتزوَّدون من الأنس به والإقبال عليه ما يُعينهم على تحمُّل مشقَّات الحياة فصلاح القلب وسلامته

وغذاؤه أن يكون مقبلاً على ربه محباً له ففي القلب شعثٌ لا يلمه إلا الإقبال على الله والخلوة به والأنس به وحده وفيه وحشة لا يُزيلها إلا الأنس به في خلوته وفيه حزنٌ لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته وفيه قلقٌ لا يُسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه وفيه نيران حسرات لا يُطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه وفيه طلبٌ شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه وفيه فاقةٌ لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه وداوم ذكره وصدق الإخلاص له ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبداً ، ومخالطة الخلق والانشغال بالدنيا وفضول الكلام والانشغال بما لا يُفيد تزيد شعث القلب وتشتُّته في كل وادٍ ولذلك اقتضت رحمة الله تعالى أن شرع الاعتكاف لعباده الذي مقصوده وروحه هو : عكوف القلب على الله تعالى والخلوة به والانقطاع عن الانشغال بالخلق والانشغال به وحده سبحانه فيقرأ المعتكف كتاب الله ويذكره بقلبه ولسانه ويتفكَّر في عجيب خلقه وعظيم ملكوته ويفكِّر في رضاه وما يقرِّب منه ويأنس به بدلاً من أُنسه بالخلق فيُعدُّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حيث لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه فهذا هو مقصود الاعتكاف الأعظم الذي يجب أن يحرص المعتكف على تحصيله ونيله أما الانشغال بالدنيا وفضول الكلام في الاعتكاف فهو لا يُفسد اعتكاف الجسد ولكنه يُفسد اعتكاف القلب ويقطع عنه وارد الأنس بالله ويشدُّه بأوتادٍ من حديد إلى الدنيا وزخرفها والانشغال بها .

الفائدة الرابعة :

شهر رمضان هو شهر العبادات والطاعات وموسم الخيرات والرحمة والمغفرة والعتق من النار وفيه تُفتح أبواب الجنة وتُغلق أبواب النار وتُصفَّد الشياطين ويرسل الله ملكاً ينادي : يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ويباهي الله بخلقه ملائكته وينظر إلى تنافسهم فيه في فعل الخير وجعل الله فضله

وبركته مرتبطة باجتهاد المرء في العبادة فكلما اجتهد الإنسان في طاعة ربه كلما فُتحت له خزائن الرحمة وأبواب الخير وبحار المعرفة ولأن الإنسان بأصل خلقته ملول ضعيف النفس يحب الانشغال بالدنيا فإنه يبدأ رمضان بالاجتهاد والتشمير والهمة والنشاط ثم تضعف همَّته ويتراخى عزمه ويتكاسل عن بعض أنواع الطاعة في نهاية هذا الشهر غافلاً عن ارتباط الأعمال بخواتيمها وعن فضل آخر هذا الشهر باشتماله على ليلة القدر ولذلك شرع لنا رسول الله ﷺ شدة الاجتهاد في العبادة ومحاولة الخروج من دوَّامة الدنيا واعتزال النساء في العشر الأواخر من رمضان ترقُّباً لإحياء ليلة القدر ولختام هذا الشهر الكريم بالجد والاجتهاد والنشاط في العبادة فكان النبي ﷺ إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر [١] ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيرها . [٢]

فشرع لنا رسول الله ﷺ إحياء الليل بالعبادة مع اعتزال النساء وأمر الأهل بالاستكثار من الطاعة فعن أم سلمه رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لم يكن إذا بقي من رمضان عشرة أيام يدع أحداً من أهله يُطيق القيام إلا أقامه ، لتعُمَّ بركة الطاعة ولذة القرب من الله بيت المسلم ولأن الإنسان مسئولٌ ومحاسبٌ عن أهله حافظوا أم ضيَّعوا وفي الذكر الحكيم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝ ﴾ . [٣]

---

[١] البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب العمل في العشر الأواخر من رمضان ٣١٦/٤ رقم ٢٠٢٤ ، مسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان ٨٣٢/٢ رقم ١١٧٤ .

[٢] مسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان ٨٣٢/٢ رقم ١١٧٥ .

[٣] التحريم : ٦ .

وللعشر الأواخر فضيلةٌ عظيمة ومنقبةٌ كبيرة وهى : اشتمالها على ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر ، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " تحرُّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان " [١] ولذلك كان النبي ﷺ يعتكف في هذه العشر ويحيى الليل ويعتزل النساء حتى يكون فارغ القلب للعبادة ودوام الذكر لينال لذة القرب من الله والأنس به وليحظ بفضيلة هذه الليلة المباركة ، وفى الحديث : " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه " [٢] فأراد رسول الله ﷺ أن يجمع مع شرف الوقت بركة المحل وهو المكث في المسجد وشرف الشاغل وهى أنواع العبادة من صلاة وصيامٍ وقيام وذكر ودعاء تقرُّباً إلى ربه وتعليماً لأمته .

الفائدة الخامسة :

في اعتكاف النبي ﷺ في مسجده حتى توفَّاه الله واعتكاف أصحابه وأزواجه معه وبعده دليلٌ على ثبوت حكم الاعتكاف وأنه لم يُنسخ ودليلٌ على جواز اعتكاف النساء في المساجد ؛ لأنه لو جاز لهن أن يعتكفن في مساجد بيوتهن لأمرهن النبي ﷺ بذلك تيسيراً عليهن ولفعلنه ولو مرةً واحدة وهذا دليلٌ على جواز اعتكاف النساء وأنهن كالرجال في ذلك .

وفى حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلَّى الفجر ثم دخل معتكفه وأنه أمر بخبائه فضُرب أراد الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان فأمرت زينب بخبائها فضُرب وأمر غيرها من أزواج

---

[١] البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ٣٠٥/٤ رقم ٢٠١٧ ، مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ٨٢٨/٢ رقم ١١٦٩ .

[٢] البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية ١٣٨/٤ رقم ١٩٠١ ، مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في قيام رمضان ٥٢٣/١ رقم ٧٦٠ .

النبي ﷺ بخبائه فضرب فلما صلَّى رسول الله ﷺ الفجر نظر فإذا الأخبية فقال : " آلبرتردن ؟ " فأمر بخبائه فقُوِّض وترك الاعتكاف في شهر رمضـــان حتـــى اعتكف في العشر الأول من شوال . [١]

وسبب إنكار النبي ﷺ على أزواجه الاعتكاف في المســـجد أنـــه خـــاف عليهن أن يكُنَّ غير مخلصاتٍ في الاعتكاف بل أردن القرب منه لغيرتهن عليه أو أنه كره ذلك لغيرته عليهن فكره ملازمتهن للمسجد مع أنـــه يجمـــع النـــاس ويحضُره الأعراب والمنافقون وهُنَّ محتاجاتٌ إلى الخروج والدخول لما يَعرض لهن فيتبذَّلن بذلك وليس لهن مكانٌ خاص في المسجد أو لأن النبـــي ﷺ رآهـــن عنده في المسجد وهو معهن فصار كأنه في منزله بحضوره مع أزواجه فخشي ذهاب المهم من مقصود الاعتكاف وهو التخلِّي عن الأزواج ومتعلقـــات الـــدنيا وشبه ذلك أو لأنهن ضيَّقن المسجد بأبنيتهن . [٢]

قال الإمام أبو العباس القرطبي : إن أزواجه ﷺ لما رأين عزمـــه علـــى الاعتكاف وأخذه فيه شرعن فيه رغبةً منهن في الاقتداء به في تحصيل الأجـــر غير أنهن لم يستأذنه فلذلك أنكر عليهن أو يكون كره أن يـــؤدِّي مكـــثهن فـــي المسجد إلى أن يطَّلع عليهن المنافقون لكثرة خروجهن لحاجتهن أو يؤدِّي ذلـــك إلى أن تنكشف منهن عورة أو يؤدِّي ذلك إلى تضييع حقوق النبي ﷺ وحوائجه في بيوتهن ثم قال : وكل هذه الاحتمالات مناسبة وبعضها أقرب من بعض ولا يبعد أن يكون مجموعها هو المراعى عنده ﷺ . [٣]

---

[١] البخاري كتاب الاعتكاف باب اعتكاف النساء ٣٢٣/٤ رقم ٢٠٣٣ ، مسلم كتاب الاعتكاف باب متى يـــدخل من أراد الاعتكاف في معتكفه ؟ ٨٣١/٤ رقم ١١٧٣ .

[٢] إكمال المعلم للقاضي عياض ١٥٥/٤.

[٣] المفهم للقرطبي ٢٤٥/٣ .

الدروس المُستفادة من الحديث

١- استحباب الاعتكاف وتأكُّد فضله .

٢- رحمة الله بالأمة وتشريعه لهم ما يصلح أحوالهم ويُقَوِّم سلوكهم .

٣- الاعتكاف سنة للمؤمنين ولم يُنسخ وليس من خصائص النبوة .

٤- جواز اعتكاف النساء وأنهن كالرجال في أحكامه .

٥- فضيلة العشر الأواخر من رمضان واستحباب الإكثار فيها من العبادة .

٦- أهمية الخلوة في حياة الدعاة لترتيب الأفكار وغذاء الأرواح .

فضل الحج المبرور

عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حجَّ فلم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمه) .

تخريج الحديث

أ- البخاري كتاب الحج باب فضل الحج المبرور ٤٤٦/٣ رقم ١٥٢١ .

ب- مسلم كتاب الحج باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفه ٩٨٣/٢ رقم ١٣٥٠ .

الراوي الأعلى للحديث

الصحابي راوي الحديث هو : الصحابي الجليل أبو هريرة الدوسي اليماني حافظ الصحابة وأكثرهم روايةً للحديث . اختُلف في اسمه واسم أبيه اختلافاً كبيراً فقيل اسمه : عبد الرحمن بن صخر وقيل : عبد الرحمن بن غنم وقيل : عبد الله بن عائذ وقيل غير ذلك وأرجح هذه الأقوال أولها ويقال : كان اسمه في الجاهلية عبد شمس وكنيته أبو الأسود فسمَّاه رسول الله ﷺ عبد الله وكناه أبا هريرة .

ويحكي هو سبب هذه الكنية فيقول : إنما كُنيت بأبي هريرة أني وجدت أولاد هرة وحشية فحملتها في كمي فقيل : ما هذه ؟ فقلت هرة قيل : فأنت أبو هريرة .

قدم المدينة عام خيبر سنة سبعٍ من الهجرة وصاحب النبي ﷺ بعد ذلك في حله وترحاله وفي ليله ونهاره وروى عنه أحاديث كثيرة حتى صار أكثر الصحابة روايةً للحديث رغم أنه لم يرافق النبي ﷺ فترة طويلة ولهذا شكَّك البعض في كثرة أحاديثه ولكن الدارس لحياة أبي هريرة يجد أن هذه الكثرة طبيعية وأن لها أسباباً ظاهرة من أهمها :-

١) ملازمته التامة لرسول الله ﷺ منذ قدم المدينة وحتى توفّاه الله عز وجل مع رغبته وحرصه على سماع كلامه وحفظه وقد أشار هو إلى هذا السبب فقال : إنكم تزعمون أن أبا هريرة يُكثر الحديث على رسول الله ﷺ والله الموعد إني كنت امراءً مسكيناً أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم فحضرت من النبي ﷺ مجلساً فقال : "من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه منى" فبسطت بردةً عليّ حتى قضى حديثه ثم قبضتها إليّ فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئاً بعد سمعته منه . [١]

وقال طلحة بن عبيد الله : لاشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع .

٢) حرصه الشديد على جمع الحديث وحفظه والعناية به والسؤال عنه وقد شهد له النبي ﷺ بذلك حينما سأله أبو هريرة فقال له : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ فقال له رسول الله ﷺ : " لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه " . [٢]

٣) دعاء النبي ﷺ له بقوة الحفظ وعدم النسيان فعن أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه قال : " ابسط رداءك " فبسطت قال : فغرف بيده ثم قال : " ضُمَّه " فضممته فما نسيتُ شيئاً بعد . [٣]

---

[١] البخاري كتاب المزارعة باب ما جاء في الغرس ٣٤/٥ رقم ٢٣٥٠ ، مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي هريرة ١٩٣٨/٤ رقم ٢٤٩٢ .

[٢] البخاري كتاب العلم باب الحرص على الحديث ٢٣٣/١ رقم ٩٩ .

[٣] البخاري كتاب العلم باب حفظ العلم ٢٨٥/١ رقم ١١٨.

وروى النسائي في سننه أن رجلاً جاء إلى زيد بن ثابت فسأله عن شيء فقال له زيد : عليك أبا هريرة فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى ونذكره إذ خرج علينا النبي ﷺ حتى جلس إلينا فسكتنا فقال : عودوا للذي كنتم فيه ، قال زيد : فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة وجعل رسول الله ﷺ يُؤمِّن على دعائنا ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم إني أسألك ما سألاك صاحبيَّ وأسألك علماً لا يُنسى فقال رسول الله ﷺ " آمين " فقلنا : يا رسول الله ﷺ ونحن نسأل الله تعالى علماً لا ينسي فقال : " سبقكم بها الغلام الدوسي " .

٤) طول عمره واحتياج الناس إلى علمه حتى صار قبلة طلاب العلم ومحط رحالهم يُفتيهم ويُعلِّمهم ويُحدِّثهم حتى أخذ عنه العلم خلق كثير قال البخاري : روى عنه نحواً من ثمانمائة رجل وأكثر من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين وغيرهم .

ولا شك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وغيرهم من كبار الصحابة ممن تقدم إسلامهم وطالت صحبتهم لرسول الله ﷺ كانوا أعلم من أبي هريرة وأفقه ولكن أعمارهم لم تطُل ولم يحتج كثير من معاصريهم إلي علمهم لأنهم عاشوا بين الصحابة الذين شهدوا نزول الوحي وسمعوا كلام رسول الله ﷺ فلم يكن بهم كثير حاجة إلي السؤال ولكن أبا هريرة وابن عباس وابن عمر وأضرا بهم على قلة المدة التي صاحبوا فيها رسول الله ﷺ وعلى صِغر سنهم ولكنهم طالت أعمارهم ومات أكثر الصحابة في حياتهم واحتاج الناس إلي علمهم وتصدُّوا هم للتحديث والإفتاء فحدَّثوا وعلَّموا وأفتوا ورُزقوا القبول فنقل التابعون أحاديثهم وتناقلتها الأجيال حتى وصل إلينا عددٌ كبير من أحاديثهم .

٥) لم يكتف أبو هريرة برواية ما سمعه من النبي ﷺ بل روى عن كثيرٍ من الصحابة وحدَّث عنهم فجمع ما عندهم من علمٍ وحديث إلى ما عنده فصار

عنده شيء كثير حتى قال الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره ، وقال الذهبي : كان حافظاً متثبتاً ذكياً مفتياً صاحب صيام وقيام .

روى أبو هريرة علماً كثيراً عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر وأبيّ بن كعب وعائشة وغيرهم وقد بلغت جملة مروياته خمسة آلاف وثلاثمائة وأربع وسبعون حديثا (٥٣٧٤) اتفق الشيخان منها على ثلاثمائة وخمسة وعشرين (٣٢٥) وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين (٩٣) ومسلم بمائة وتسعة وثمانين (١٨٩) وروى عنه خلقٌ كثير من الصحابة والتابعين فمن الصحابة : أنس وجابر وابن عباس وابن عمرو وغيرهم ، ومن التابعين : الحسن البصري وسعيد بن المسيب والشعبي وابن سيرين وسالم بن عبد الله وغيرهم .

تُوفي أبو هريرة سنة سبعٍ وخمسين (٥٧) من الهجرة عن ثمانيةٍ وسبعين عاماً وكان ابن عمر يترحَّم عليه في جنازته ويقول : كان يحفظ على المسلمين حديث النبي ﷺ رضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

حجّ : الحجُ في اللغة : القصد إلي كل شيء وخصَّه الشرع بقصدٍ معين ذي شروط معلومة وهو : قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعي والوقوف بعرفة وسائر المناسك استجابةً لأمر الله وابتغاء مرضاته وفيه لغتان : فتح الحاء وكسرها وقيل بالفتح هو المصدر وبالكسر الإسم تقول : حججت البيت أحجُّه حجاً والحجة بالفتح المرة الواحدة .

يرفث : الرفث هو : الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته من التقبيل والمغازلة ونحوهما مما يكون في حالة الجماع وأصل الرفث : قول الفحش وهو كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة .

يفسق : أصل الفسق في كلام العرب الخروج عن الشيء يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها ومنه يقال للفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها ، والفسق : الخروج عن الاستقامة والجور وبه سمي العاصي فاسقاً ، والفسق هو : الترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق وفي القرآن عن إبليس ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (١)

والمراد بالفسق هنا : ارتكاب الكبيرة أو الإصرار علي الصغيرة .

المعنى الإجمالي للحديث

يُبيِّن هذا الحديث فضل الحج وعظم مكانته وأنه أحد أعمدة الإسلام الخمسة وأنه أحد الطرق المُكفِّرة للذنوب الماحية للخطايا بشرط ترك الرفث والفسوق والجدال في الحج فمتى أتى به العبد مستوفياً لشروطه راغباً في ثواب ربه متجنِّباً للشوائب والخطايا كان مغفرة لذنوبه ورجع منه كأنه قد ولد من جديد ليس عليه إثم ولا ذنب إنما له عظيم الأجر ورفيع الدرجات .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولي :

الحجُ أحد أركان الإسلام الخمسة وأحد فرائضه العظام وأحد الواجبات المعلومة من الدين بالضرورة بحيث لو أنكر أحدٌ وجوبه صار كافراً مرتداً عن الإسلام وقد أمر الله عز وجل به في كتابه وحضَّ عليه فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ ﴾ (٢) وقد أمر به رسولنا الكريم وحثنا

---

(١) الكهف : ٥٠ .

(٢) آل عمران : ٩٧ .

عليه في العمر مرةً واحدة على من استطاع إليه سبيلا ثم بيَّن أن تكراره بعد ذلك نافلة .

فعن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال " يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا " فقال رجلٌ أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ثم قال ﷺ : " لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم " ثم قال : " ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " . [١]

وعن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : "يا أيها الناس كُتب عليكم الحج " فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فقال : " لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع " . [٢]

وقد بيَّن رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة فضل الحج وثوابه ومنزلته من الأعمال فقد ورد في الحديث أنه من أفضل الأعمال فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سُئل أي العمل أفضل ؟ فقال : " إيمان بالله ورسوله " قيل ثم ماذا ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " قيل ثم ماذا ؟ قال : " حج مبرور " . [٣]

وجاء في الحديث الذي معنا أنه يكفر الخطايا ويمحق الذنوب ويمحو

---

[١] البخاري كتاب الاعتصام بالسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٣/٢٦٤ رقم ٧٢٨٨ ، ومسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر ٢/٩٧٥ رقم ١٣٣٧ .

[٢] أبو داوود في سننه كتاب المناسك باب فرض الحج ٢/١٤٣ رقم ١٧٢١ ، النسائي في سننه كتاب مناسك الحج باب وجوب الحج ٥/١١١ .

[٣] البخاري كتاب الحج باب فضل الحج المبرور ٤/٤٤٦ رقم ١٥١٩ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١/٨٨ رقم ٨٣ .

السيئات ويهدم ما قبله ويعود الحاج إلي أهله كيوم ولدته أمه ، وفـي الحـديث أيضاً عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : " تابعوا بين الحج والعمرة فإنهمـا ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجـة المبرورة ثواب إلا الجنة " [١] ، وعن أبـي هريـرة أن رسـول الله ﷺ قـال : " العمرة إلي العمرة كفارةٌ لما بينهما والحـج المبـرور لـيس لـه جـزاء إلا الجنة " [٢] وعن عمرو بن العاص قال : لمَّا جعل الله الإسلام في قلبـي أتيـت رسول الله ﷺ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك قال : فبسط فقبضت يدي فقال " مالـك يا عمرو ؟ " قلت: أشترط قال : " تشترط ماذا ؟ " قلت : أن يُغفر لي قال : " أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم مـا قبلهـا وأن الحـج يهـدم ما قبله " . [٣]

وجاء في الحديث أن الحُجَّاج والعُمَّار وفد الله وزوَّاره وحقٌ على المـزور أن يُكرم زائره فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال " الحُجَّاج والعُمَّار وفـد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم " [٤] وفي رواية : " وفـد الله ثلاثـة : الحاج والمعتمر والغازي " . [٥]

---

[١] الترمذي كتاب الحج باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة ٢/ ٨١٩ ، النسائي كتاب مناسك الحج باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة ١١٥/٥ .

[٢] البخاري كتاب العمرة باب وجوب العمرة وفضلها ٦٩٨/٣ رقم ١٧٧٣ ، مسلم كتاب الحج باب في فضـل الحج والعمرة ٩٨٣/٢ رقم ١٣٤٩ .

[٣] مسلم كتاب الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١١٢/١ رقم ١٢١ .

[٤] ابن ماجة كتاب المناسك باب فضل دعاء الحاج ٩٦٦/٢ رقم ٢٨٩٢ وفي إسناده صالح بن عبد الله قـال فيه البخاري : منكر الحديث وذكره المنذري في الترغيب والترهيب من رواية جابر وقـال : رواه البـزار ورواته ثقات ١٠٨/٢ .

[٥] النسائي كتاب مناسك الحج باب فضل الحج ١١٣/٥ ، ابن ماجة كتاب المناسك باب فضل دعـاء الحـاج ٩٦٦/٢ رقم ٢٨٩٣ وفي الزوائد : إسناده حسن .

وجاء في الحديث أن الحج جهاد فعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله : ألا نغزو ونجاهد معكم فقال : " لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج حج مبرور" قالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ (١) ، وعنها أنها قالت : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : " لكن أفضل الجهاد حج مبرور" . (٢)

وعن الحسن بن علي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني جبانٌ وإني ضعيف فقال : " هلُم إلى جهادٍ لا شوكة فيه : الحج " (٣) ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج " . (٤)

وقد أجمع العلماء على وجوب الحج ثم اختلفوا في وقت وجوبه على مذهبين :

الأول : ذهب سفيان الثوري والشافعي وبعض العلماء إلى وجوب الحج على التراخي واستدلوا بأن رسول الله ﷺ أخَّر الحج إلى سنة عشر وحجَّ معه أصحابه وأزواجه مع أن إيجاب الحج كان قبل ذلك جزما .

الثاني : ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد إلى أن الحج واجبٌ على الفور واستدلوا بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " من أراد الحج فليعجِّل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتكون الحاجة " . (٥)

---

(١) البخاري كتاب جزاء الصيد باب حج النساء ٨٦/٤ رقم ١٨٦١ .

(٢) البخاري كتاب الجهاد والسير باب فضل الجهاد ٦/٦ رقم ٢٧٨٤ .

(٣) الطبراني في المعجم الكبير ١٣٥/٣ رقم ٢٩١٠ ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمع الزوائد ٢٠٦/٣.

(٤) النسائي كتاب مناسك الحج باب فضل الحج ١١٣/٥ ، أحمد في المسند ٩/ ٢١٢ رقم ٩٤١٣ وإسناده صحيح .

(٥) ابن ماجة كتاب الحج باب الخروج إلي الحج ٩٦٢/٢ رقم ٢٨٨٣ ، أحمد في المسند ٤١٧/٢ رقم ١٨٣٤ وإسناده ضعيف .

وفي رواية عنه أن رسول الله ﷺ قال : " تعجّلوا الحج – أي الفريضة – فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له " [١] فالأحوط والأفضل التعجيل به لمن ملك القدرة عليه .

الفائدة الثانية :

فطر الله النفس البشرية على الملل من تكرار الأشياء مهما كانت محبوبة لديها وعلى الرغبة في التغيير والتنويع ولذلك نوّع الله العبادات ولم يجعلها صورة واحدة فهناك عبادات بدنية فقط كالصلاة والصوم وهناك عبادات مالية فقط كالزكاة وهناك عبادات بدنية ومالية معاً كالحج وقد أمر الله بتكرار العبادة حسب احتياج الإنسان إليها فهناك عبادات تتكرر أكثر من مرة في اليوم الواحد كالصلاة وهناك عبادات تتكرر كل سنة مرة واحدة كالزكاة وهناك عبادة لا تكون في العمر إلا مرة واحدة على سبيل الفرض والإلزام كالحج فالعبادة التي تتكرر كثيراً تُصلح الفساد الحاصل في القلب والغفلة الناشئة في الفكر وتعيد العبد إلى ربه وترده إلى حظيرة فضله فيندم على ذنبه ويتوب منه ويصلح حاله وعبادة العام زادها يكون أكبر فتُعتق صاحبها من النار وتُطهِّر النفس وتُصلح القلب وعبادة العمر يكون الزاد فيها مضاعفاً والعطاء فيها مركَّباً فيعود صاحبها منها كيوم ولدته أمه صحيفته بيضاء ناصعة وقلبه محشو إيماناً وتقوى ولذلك قال بعض العلماء : إن الحج هو أفضل العبادات لاشتماله على عبادة البدن والمال [٢] ولذلك سمَّاه الإمام الغزالي : تمام الأمر [٣] لأن الخير فيه كثير والزاد فيه كبير والدروس فيه وفيرة ومتنوعة .

---

[١] أحمد في المسند ٢٦٨/٣ رقم ٢٨٦٩ وإسناده ضعيف .

[٢] دليل الفالحين لابن علان ٧٤/٤ .

[٣] إحياء علوم الدين للغزالي ٢١٢/١ .

الفائدة الثالثة :

قول النبي ﷺ في الحديث " رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه " هل يعني هذا أن الحج يكفر جميع الذنوب والخطايا الصغائر والكبائر أم أن الحج لا يكفر إلا الصغائر فقط ؟ ونُجيب على هذا فنقول :

إننا لا نستطيع أن نفهم كثيراً من النصوص إلا إذا جمعنا بعضها إلى بعض والمشهور عند العلماء أخذاً من جملة النصوص ومجموعها أن الكبائر لا تكفرها إلا التوبة أو رحمة الله تعالى وفضله والأحاديث التي ورد فيها أن شيئاً من العبادات يُكفِّر الذنوب فالمراد تكفير الصغائر دون الكبائر وقد ورد في فضائل بعض العبادات أنها تكفر الذنوب وتمحو الخطايا ، ففي الحديث " ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها " [1] ، وفى الحديث " الصلوات الخمس كفارة ما بينها ما اجتنبت الكبائر " [2] ، وفى الحديث " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر " [3] .

قال بعض العلماء : إن الحج يكفر صغائر الذنوب دون كبائرها ، وقال البعض : ظاهر الحديث أن الحج المقبول يكون سبباً في مغفرة الصغائر والكبائر والتبعات اختاره القرطبي في المفهم [4] واستروح إليه ابن حجر في الفتح وقال : هو من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس المصرِّح بذلك [5] ، وقد أراد

---

(١) مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء والصلاة عقبه ٢٠٦/١ رقم ٢٢٨ .

(٢) أبو نعيم في حلية الأولياء ٢٥٠/٩ وصححه الألباني .

(٣) مسلم كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ... الخ ٢٠٩/١رقم ٢٣٣ .

(٤) المفهم ٤٦٤/٣ .

(٥) فتح الباري ٤٤٧/٣ .

ابن حجر بحديث العباس بن مرداس ما ذكره كنانة بن عباس عن أبيه قال : إن النبي ﷺ دعا لامته عشية عرفه بالمغفرة فأجيب : إني قد غفرت لهم ما خلا الظالم فإني آخذ للمظلوم منه قال : " أي ربِّ إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة وغفرت للظالم " فلم يُجَبْ عشيته فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأُجيب إلى ما سأل قال : فضحك رسول الله ﷺ أو قال : تبسم ، فقال له أبو بكر أو عمر : بأبي أنت وأمي إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها فما الذي أضحكك ؟ أضحك الله سنك قال : " إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ويدعو بالويل والثبور فأضحكني ما رأيت من جزعه " [1] والذي أظنه والله أعلم : أن مغفرة الذنوب ترتبط بشكل أداء العبادة واشتمالها على الواجبات والمستحبات فإذا أدَّى العبد الحج بلا رفثٍ ولا فسوق ولا جدال وألان الكلام وطيّب الطعام وقابل الخلق بالابتسام وعاد راغباً في أعمال الآخرة زاهداً في أعمال الدنيا تائباً إلى ربه فلا يبعد حينئذ أن يغفر الله له الصغائر والكبائر ويحمل عنه التبعات ويرضي عنه الخصوم فإذا كان في ماله شبهة وفى قصده رياء وفى أداء مناسكه جهالة وفى وجهه تجهُّم وفي أخلاقه خشونة فلا يبعد أن تسقط عنه الفريضة فقط ويعود بلا ثواب ولا تكفير أصلاً وبين المنزلتين منازل وبين الدرجتين درجات والله تعالى أعلم .

وفي ضوء هذه الأحاديث مجتمعة ترد عدة إشكالات فيقال : إذا كفَّر الوضوء الذنوب فماذا تُكفِّر الصلاة ؟ وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعات ؟ وإذا كفرت الجُمُعات فماذا يكفر رمضان ؟ فإذا كفر رمضان فماذا يكفر الحج

---

[1] أبو داود بكتاب الأدب باب في الرجل يقول للرجل أضحك الله سنك ٣٦١/٤ رقم ٥٢٣٤ ، ابن ماجة كتاب المناسك باب الدعاء بعرفه ١٠٠٢/٢ رقم ٣٠١٣ .

والوقوف بعرفة ؟ وإذا كان صيام يوم عرفة يكفر ذنوب سنتين [١] ويوم عاشوراء يكفر ذنوب سنة [٢] وإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه [٣] الخ فماذا يبقى للعبادات من ذنوب تكفرها والجواب على ذلك أن يُقال : إن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة كُتبت به حسنات ورُفعت به درجات وإن صادفت كبيرةً أو كبائر ولم تُصادف صغيرةً رجوناً أن يخفف الله بها من الكبائر [٤] أو يغفرها له جملة بحسب ما ذكرنا.

وإذا قلنا أن الخطايا التي تُغفر والذنوب التي تُكفَّر هي الصغائر دون الكبائر قال البعض : إن الصغائر مُكَفَّرة بنص القرآن إذا اجتُنبت الكبائر بقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [٥] وإن كان الأمر كذلك فما الذي تكفره الصلوات الخمس والجمعة والحج والعمرة وغيرها ؟!

قال الإمام البلقيني : السؤال غير وارد لأن مراد الله " إن تجتنبوا " أي في جميع العمر ومعناه : الموافاة على هذه الحالة من وقت الإيمان والتكليف إلى الموت والذي في الحديث :أن الصلوات الخمس تكفر ما بينهما– أي في يومها – إذا اجتنبت الكبائر في ذلك اليوم فعلى هذا لا تعارض بين الآية والحديث .

---

[١] مسلم كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ٨١٩/٢ رقم ١١٢٦ .

[٢] مسلم كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ٨١٩/٢ رقم ١١٢٦ .

[٣] البخاري كتاب الأذان باب جهر الإمام بالتأمين ٣٠٦/٢ رقم ٧٨٠ ، مسلم كتاب الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين ٣٠٦/١ رقم ٤٠٩ .

[٤] شرح صحيح مسلم للنووي ١١٣/٣ .

[٥] النساء : ٣١ .

وقال ابن حجر : وعلى تقدير ورود السؤال فالتخلُّص منه بحمد الله سهل وذلك أنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الصلوات الخمس فمن لم يفعلها لم يعُد مجتنباً للكبائر لأن تركها من الكبائر فوقف التكفير على فعلها . [١]

ويُمكن أن يقال : أن هذه العبادات إذا صادفت صغائر كفَّرتها وإذا لم تُصادف وصادفت كبائر إما أن تكفرها أو تخفف وزرها فإذا لم تصادف صغيرة ولا كبيرة كانت سبباً في رفع الدرجات وزيادة الحسنات ، وقد فصّل الإمام البلقيني أحوال الناس بالنسبة إلى ما يصدر عنهم من الصغائر والكبائر فحصرها في خمسة أحوال أحدها : أن لا يصدر منه شيئٌ البتة فهذا يُعاوَض برفع الدرجات .

ثانيها : أن يأتي بصغائر بلا إصرار فهذا تكفر عنه جزماً .

ثالثها : مثله لكن مع الإصرار فلا تكفر إذا قلنا إن الإصرار على الصغائر كبيرة .

رابعها : أن يأتي بكبيرة واحدة وصغائر .

خامسها : أن يأتي بكبائر وصغائر وهذا فيه نظر : يحتمل إذا لم يجتنب الكبائر ألا تكفر الكبائر بل تكفر الصغائر ويحتمل أن لا يكفر شيئاً أصلاً ، والثاني أرجح [٢] والعبادات كالماء الطاهر والذنوب أوساخ فمتى عظم الوسخ ولصق صعب على الماء أن يزيله ومتى كان قليلاً خفيفاً أزاله الماء بالكلية .

---

[١] فتح الباري ٢/١٦.

[٢] فتح الباري ٢/١٦.

الفائدة الرابعة :

قول النبي ﷺ في الحديث " من حجَّ فلم يرفُث ولم يفسُق " وفى الحديث الآخر " الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " يوضح حقيقة الحج الذي يقبله الله ويغفر به الذنوب ويمحو به الخطايا وهو : الحج الخالي من الرفث وهو : الفاحش من القول والفسوق وهى : المعاصي والآثام وفى الذكر الحكيم : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ [١] فزادت الآية النهى عن الجدال فمتى امتنع الحاج عن هذه الخصال الثلاث كان الحج مبروراً مقبولاً .

وقد اختلف العلماء في حقيقة الحج المبرور وشروطه :

فقيل : هو الحج الخالي عن الرفث والفسوق والجدال .

وقيل : هو الحج الذي لا يُخالطه إثم مأخوذٌ من البر وهو الطاعة .

وقيل : هو المقبول ، ومن علامة القبول أن يرجع خيراً مما كان ولا يعود للمعاصي ، قال الحسن البصري : الحج المبرور أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ، وقيل : هو الذي لا رياء فيه ولا سمعة ولا رفث ولا فسوق ولا جدال .

وقد جاء تفسير الحج المبرور عن الرسول ﷺ ففي الحديث أن الصحابة قالوا : يا رسول الله ﷺ ما برُّ الحج ؟ قال : " إطعام الطعام وإفشاء السلام " [٢] وفى إسناده ضعف ولو ثبت لكان هو المُتيقَّن دون غيره .

قال القرطبي : وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى وهو أنه الحج الذي وفِّيت أحكامه ووقع موافقاً لما طُلب من المكلف على الوجه الأكمل . [٣]

---

[١] البقرة : ١٩٧.

[٢] أحمد في المسند ٤٦١/١١ رقم ١٤٤١٩.

[٣] المفهم ٤٦٣/٣ .

الدروس المستفادة من الحديث

١- العبادات المقبولة تكفر السيئات وترفع الدرجات .

٢- رحمة الله بعباده وتشريعه لهم ما يُصلح أحوالهم ويُزكِّي أخلاقهم .

٣- اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وفعل الواجبات يجبر النقائص .

٤- فضل الحج فهو أحد أركان الإسلام وهو واجبٌ في العمر مرةً واحدة .

فضل من جهَّز غازياً أو خلفه بخير

عن زيد بن خالد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " من جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله بخيرٍ فقد غزا " .

تخريج الحديث

أ) البخاري كتاب الجهاد والسير باب فضل من جَهَّز غازياً أو خلفه بخيـر ٥٨/٦ رقم ٢٨٤٣ .

ب) مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي فـي سـبيل الله بمركـوبٍ وغيره وخلافته في أهله بخير ١٥٠٧/٣ رقم ١٨٩٥ .

الراوي الأعلى للحديث

الصحابي راوي الحديث هو: أبو عبد الرحمن زيد بن خالد الجهني .

شهد الحديبية وحمل لواء جهينة يوم الفتح روى عن النبي ﷺ وعن عثمان وأبي طلحة وعائشة وروى عنه ابناه خالد وأبو حرب وأبو سلمه وآخرون توفي بالمدينة سنة ثمانٍ وسبعين وعمره خمسٌ وثمانون سنة .

معاني المفردات

جهَّز غازياً : بتشديد الهاء : هيَّأ له أسباب سفره وما يحتاج إليه في غزوه مما لا بد منه من العدة والسلاح والنفقة وغير ذلك .

غازياً : الغزو هو : السير إلى قتال العدو وانتهابه والغزوة هـي : المـرة مـن الغزو والاسم : الغزاة والغازي هو : القائم بالغزو وهو اسم فاعـل وجمع الغازي : غُزَاة وغزًّى وغزِيٌّ وغُزَّاءٌ .

سبيل الله : السبيل هو : الطريق وسبيل الله هو : الطريق الـذي يُوصِّـل إلـى مرضاته اعتقاداً وعملاً وإذا أُطلق فهو في الغالب واقعٌ على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصورٌ عليه .

فقد غزا : أي حكماً وليس حقيقة وحصل له ثواب الغزاة .

خلف : بفتح الخاء واللام المخففة أي : قام مقامه بعده وصار خلفاً له برعاية أموره وإصلاح أحوال أهله والمحافظة على أمورهم يقال : خلف فلان فلاناً أي صار خليفة له .

المعنى الإجمالي للحديث

يُفيد هذا الحديث أن من جهّز غازياً في سبيل الله بأن أعدّ له كل ما يحتاج إليه في غزوه من سلاحٍ ونفقة شاركه في الأجر وكان له مثل نصيبه من الثواب ومن خلف غازياً في أهله بخير فقام بأمورهم ودبَّر شئونهم وكفاه مؤنة التفكير في أحوالهم كان له مثل أجر الغازي لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وذلك لأن الثواب على الأعمال إنما هو تفضُّلٌ من الله تعالى فيهبه لمن يشاء على أي شيء صدر منه ولأن النية هي أصل الأعمال فإذا نوى الإنسان فعل خير وعزم عليه ثم عجز عنه لمانعٍ منع من القيام به فإنه يُعطى أجر العامل وقد دلّ على هذه القاعدة أدلة كثيرة منها قول النبي ﷺ : " إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر " [1] ، وقول النبي ﷺ " من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله من الأجر مثل أجر من حضرها وصلاها " [2] وهو ظاهر قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [3] وأنصّ ما يدل على ذلك حديث أبي كبشة الأنصاري الذي قال فيه النبي ﷺ : " إنما الدنيا لأربعة نفر : رجلٌ آتاه الله تعالى مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل به رحمه

---

(١) مسلم كتاب الإمارة باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ١٥١٨/٣ رقم ١٩١١ .

(٢) أبو داود كتاب الصلاة باب فيمن خرج يريد الصلاة فسبق بها ١٥٢/١ رقم ٥٦٤ ، النسائي كتاب الإمامة باب حد إدراك الجماعة ١١١/٢ .

(٣) النساء : ١٠٠ .

ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علماً ولم يُؤته مالاً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ورجل آتاه الله مالاً ولم يُؤته علماً فهو لا يتَّقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ورجلٌ لم يُؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته ووزرهما سواء . [١]

وجاء في الإسرائيليات أن رجلاً مرّ بجبلٍ من رمل في مجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له : إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدَّقت به . [٢]

ومن حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : " من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يُصلِّي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كان له ما نوى وكان نومه صدقة عليه " .[٣]

فالنيات هي عماد الأعمال والعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً فإن تعذَّر العمل لعائق فالنية نفسها خير .

---

[١] الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ١٤٥/٤ رقم ٢٣٣٢ .

[٢] إحياء علوم الدين ٣٣٣/٤ .

[٣] النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار باب من أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام ٢٥٨/٣ ، ابن ماجة كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء فيمن نام عن حزبه من الليل ٤٢٦/١ رقم ١٣٤٤ .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الإسلام هو رسالة الله الأخيرة إلى أهل الأرض على لسان خاتم المرسلين ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [1] وقوله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [2] وقد ضمَّنه الله خير الناس وصلاحهم في الدنيا والآخرة فلا خير للبشرية إلا في ظلاله ولا سعادة لها إلا في رحاب شرعه ومن ثمّ أوجب الله على هذه الأمة أن تقوم بأمانة تبليغ هذا الدين إلى غيرها من الأمم – بعد فهمه والعمل به – لإرشادها وهدايتها من الضلال وكان من حق أيّ إنسان أن يدخل في هذا الدين لا يمنعه من ذلك سلطان ولا تصدُّه فتنة ولا تغويه شهوة ولا يحول بينه وبين الحق حائل كائناً ما كان .

فإذا وجد ما يحول بين الناس وبين الدخول في الإسلام أسماه الإسلام طاغوتاً وأوجب على الجماعة المسلمة أن تسعى في إزالته مهما كلَّفها ذلك من أنفس وأموال ضماناً لحرية العقيدة وحمايةً للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام حتى لا تكون فتنة في الأرض ويكون الدين كله لله .

وهذا لا يعني إكراه الناس على الدخول في الإسلام بل المراد : إزالة العقبات والحواجز التي تحول دون معرفتهم بالإسلام ودخولهم فيه من خوف أو فتنة ثم ترك الاختيار الكامل الحر لهم وهذا يعني : استعلاء دين الله في الأرض بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول وبحيث لا تبقى قوة في الأرض تحول بين الناس وبين معرفة الإسلام والاستجابة له والبقاء عليه وبحيث لا يبقى

---

[1] آل عمران : ٨٥ .

[2] آل عمران : ١٩ .

في الأرض وضعٌ أو نظام يحجب نور الله عن خلقه وهداه عن عباده ويضـــلهم عن سبيل الله ويصرفهم عن طريقه بأية وسيلة وبأية أداة .

في حدود هذه المبادئ العامة شُرع الجهاد في سبيل الله .

جهادٌ في سبيل حماية العقيدة والدفاع عنها وتيسير وصولها لكل لناس لينعموا بخير الإسلام ويعيشوا في ظلاله وهداه ومن عرف الحق ورأى النور ثم آثر الباطل ورغب في الظلام فإنا نقول لهم : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ [1] فهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام ويثيب عليه ويعتبر الذين يقاتلون في ميدانه شهداء والذين يحتملون أعباءه أولياء وهو ذِروة سنام الإسلام فله حالتين لا ثالث لهما :

الأولى : حالة الدفاع عن النفس والعِرض والمال والوطن عند الاعتداء .

الثانية : الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف في طريقها أحد ومنعهـــا أن تصل إلى الناس بمنع الداعي من تبليغها أو منع الناس من الدخول فيها بفتنـــتهم أو تعذيبهم وتخويفهم .

أما القتال لفرض الدين وإكراه الناس على الدخول فيه وجباية الأموال والاستيلاء على خيرات الشعوب فلا مكان له في الإسلام بل ينبغي أن يعرف الناس أن الإسلام كما أنزله الله ثم ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [2] ثم ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [3] ثم ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ

---

[1] الكافرون : ٦ .

[2] الكهف : ٢٩ .

[3] البقرة : ٢٥٦ .

﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [1] أما قبل وصول الإسلام إلى الناس فمحاربة الطواغيت واجبة وإزالتهم حتمية لازمة .

الفائدة الثانية :

الجهاد هو : التعب والمشقة وبذل الجهد واستفراغ الوسع في سبيل مقاتلة العدو ومدافعته ويعبر عنه حديثاً بـــ " الحرب " وإن كان مفهوم الجهاد في الإسلام أوسع دائرة من مفهوم الحرب في العرف الحديث فالإسلام يعتبر الجهاد المسلح – الحرب – صورة من صور الجهاد بل يجب أن تسبقه صور كثيرة من صور الجهاد تمهد له وقد تفضله أحياناً ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [2] فلا بد من جهاد النفس والشيطان والهوى وجهاد المنافقين والجهاد بالمال واللسان والقلم فكل دعوة إلى فضيلة أو تحذير من رذيلة صورة من صور الجهاد ولكل واحد منها وسائله ووقته المناسب .

وقد شرع الله الجهاد حمايةً للعقيدة ودفاعاً عن النفس وجعله فرض كفايـــة بحيث إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ولا يكون فرض عــين إلا فـــي أربعة صور :-

الأولى : إذا دهم العدو بلاد المسلمين وداس أرضهم .

الثانية : إذا قام به البعض فلم يقدروا على مواجهة الكافرين لكثرتهم أو لقـــوتهم فإنه يجب حينئذٍ على جميع المسلمين أو على العدد القادر علـــى دحـــر العدو وهزيمته .

---

[1] الغاشية : ٢١ ، ٢٢ .

[2] الفرقان : ٥٢ .

الثالثة : إذا عيّن الحاكم أحداً من المكلفين للقيام به .

الرابعة : إذا حضر المكلف للقتال فانه يصير حينئذٍ فرض عين يُثاب فاعله ويأثم تاركه .

وقد أوجبه الإسلام على المسلم البالغ العاقل القادر عليه ولم يحرم أحداً من نيل ثوابه فأجاز للمرأة أن تخرج لسقاية الماء ومداواة الجرحى وفعل كل ما يصلح لهن وتسمح به طبيعتهن .

كما شرع لغير القادر على الجهاد لضعفٍ أو مرض أن يُجهِّز الغزاة المجاهدين فيشاركهم في الأجر ويحصل على مثل نصيبهم من الثواب والأجر لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً .

ومن الثابت شرعاً وعقلاً أنه لا بد للحق من قوةٍ تحميه فإن الله قد يُغيِّر بقوة السلطان ما لا يُغيِّره بحجة القرآن ولذلك شرع الإسلام الجهاد وأعلى درجته ووعد عليه الجنة والنعيم وكتب ذلك في التوراة والإنجيل والقرآن ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [١] وقد بيَّن النبي ﷺ مكانة المجاهد وأنه خير الناس وفي الحديث : " ألا أخبركم بخير الناس ؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله " . [٢]

---

[١] التوبة : ١١١ .

[٢] أحمد في مسنده ٥٦٤/٩ رقم ١٠٧٢٥ وإسناده صحيح .

وسُئل النبي ﷺ أي الناس أفضل ؟ قال " مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله " [١] وأشار النبي ﷺ " أن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض " . [٢]

وذكر النبي ﷺ أن الجهاد أفضل من صيام النهار وقيام الليل وتلاوة القرآن فقال " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتُر من صلاةٍ ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله " [٣] والأحاديث الواردة في فضل الجهاد كثيرة معروفة .

الفائدة الثالثة :

قد يعرف المسلم مكانة الجهاد وثواب المجاهدين فتتوق نفسه إلى الجهاد ويشتاق إلى التضحية بنفسه وماله في سبيل الله فتحول بينه وبين ذلك حوائل كعدم وجود الراية التي يُقاتل تحتها بسبب اختلاف المسلمين وتفرقهم أو لضعف أو مرض فلا يحرمه الإسلام من أجر المجاهدين وثواب المحاربين بل قد يُعطى بسبب صدق نيَّته مثل ثواب المجاهدين ، وفى الحديث " أكثر شهداء أمتي أصحاب الفُرُش ورب قتيلٍ بين الصفين الله أعلم بنيته " [٤] ، وفى الحديث أيضاً " من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه". [٥]
فالإسلام يُرغِّب المسلم أن يكون له دور في الجهاد على قدر طاقته وفي حدود

---

[١] البخاري كتاب الجهاد والسير باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ٦/٨ رقم ٢٧٨٦، مسلم كتاب الإمارة باب فضل الجهاد والرباط ٣/١٥٠٣ رقم ١٨٨٨ .

[٢] البخاري كتاب الجهاد والسير باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٦/١٤ رقم ٢٧٩٠ .

[٣] مسلم كتاب الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ٣/١٤٩٨ رقم ١٨٧٨ .

[٤] أحمد في المسند ٤/٢٥ رقم ٣٧٧٢ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٣٠٢ وقال : رواه أحمد وفيه ابن لهيعه وحديثه حسن وفيه ضعف والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات .

[٥] مسلم كتاب الإمارة باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى ٣/١٥١٧ رقم ١٩٠٩ .

استطاعته فمتى استطاع أن يخرج بنفسه خرج للقتال أو لتكثير السواد أو لخدمة المقاتلين إلى غير ذلك مما تفرضه ظروف القتال فإذا عجز وكان غنياً لزمه أن يُجاهد بماله فيُجهِّز الغزاة أو يُنفق على أهليهم فيشترك معهم في الأجر وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " من جهَّز غازياً حتى يستقل كان له مثلُ أجره حتى يموت أو يرجع " (١) ، بل إن الله يظله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ففي الحديث عن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال : " من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غارماً في عسرته أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله " . (٢)

وقد توعَّد الرسول ﷺ من قَدَر على ذلك ثم لم يقُم به بمصيبةٍ تأتيه وقارعةٍ تُخزيه وفى الحديث عن أبى أمامه قال : " من لم يغزُ أو يُجهِّز غازياً أو يخلُف غازياً في أهله بخيرٍ أصابه الله بقارعةٍ قبل يوم القيامة " (٣) ، وفى الحديث : " من مات ولم يغزُ ولم يحدِّث به نفسه مات على شعبةٍ من نفاق " . (٤)

وقد أمر الله المسلمين بذلك كلٌ على قدر استطاعته وفى حدود إمكانياته حتى وإن تمثَّلت إعانته للغزاة بالدعاء أو بالكلمة الطيبة أو بالنصيحة أو بالشيء التافه الحقير من أمور الدنيا فقد ورد في الحديث : " ما من أهل بيتٍ لا يغزو منهم غازياً أو يُجهِّز غازياً بسلكٍ أو بإبرة أو ما يعدلهما من الورق أو يخلفه في أهله بخير إلا أصابهم الله بقارعة قبل يوم القيامة " . (٥)

---

(١) ابن ماجة كتاب الجهاد باب من جهز غازياً ٢/٩٢١ رقم ٢٧٥٨ ، وفى الزوائد إسناده صحيح .

(٢) أحمد في المسند ١٢/٤٠٤ رقم ١٥٩٢٩ وإسناده حسن .

(٣) أبو داوود كتاب الجهاد باب كراهية ترك الغزو ٣/١٠ رقم ٢٥٠٣ ، ابن ماجة كتاب الجهاد باب التغليظ في ترك الجهاد ٢ /٩٢٣ رقم ٢٧٦٢ .

(٤) مسلم كتاب الإمارة باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ٣/١٥١٧ رقم ١٩١٠ .

(٥) الطبراني في المعجم الأوسط ٨/١٨٠ رقم ٨٣٣٢ .

الفائدة الرابعة :

أمر الله المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى وحذَّرهم من التعاون على الإثم والعدوان وبيَّن الرسول الكريم ﷺ أن المسلم قد يُعطى أجر الشيء ولو لم يفعله ، وفي الحديث : " من دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله " [١] ، وهذا الحديث يُفيد أن من أعان مؤمناً على عمل برٍ فللمعين عليه مثل أجر العامل به ومن أعان على معصيةٍ فللمعين عليها من الوزر والإثم مثل ما على عاملها ولذلك نهى الإسلام عن بيع السيوف في الفتنة ولعن عاصر الخمر [٢] ولذلك كان من أعان غازياً شريكاً له في الأجر ومن خلفه في أهله بخير فله مثل أجره وكان من خلف غازياً في أهله بخيانة كانت خيانته من أعظم الخيانات وأقبح المعاصي حتى إن الله يُخيِّر الغازي يوم القيامة ويبيح له كل حسنات من خانه ، وكل خيانةٍ غيرها يُؤخذ بها قدراً معلوماً من حسنات الخائن ، وفي الحديث : " حرمة نساء المجاهدين كحرمة أمهاتهم وما من رجلٍ من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وُقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء فما ظنكم ؟ " . [٣]

الفائدة الخامسة :

ذهب بعض الأئمة إلى أن من جهَّز غازياً كان له مثل أجر المجاهد وإن لم يغز حقيقة واستدلوا بهذا الحديث وبحديث عمر السابق .

هذا إذا قام بجهازه كاملاً أما إذا لم يقُم بكل جهازه فله من الثواب بقدر ما جهزه به .

---

[١] مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافه في أهله بخير ١٥٠٦/٣ رقم ١٨٩٣ .

[٢] عمدة القارى للعيني ١٣٧/١٤ .

[٣] مسلم كتاب الإمارة باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهن فيهن ١٥٠٨/٣ رقم ١٩٨٧ .

وذهب بعض العلماء إلى أن من جهّز غازياً فله مثل أجره من غير مضاعفة العمل لأنه يجتمع للمجاهد أفعالٌ أُخَر وأعمالٌ من البر كثيرة لا يفعلها الدال على الخير الذي ليس عنده إلا مجرد النية الحسنة ولا يفعلها من جهز غازياً لأنه عمل واحد ولا يُقارن بمشقة الغزو واستدلوا بحديث النبي ﷺ : " ليخرج من كل رجلين رجلٌ والأجر بينهما " ثم قال " وأيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج " [١] وهذا فيه إشارة إلى أن الغازي إذا جهز نفسه وقام بكفاية من يخلفه بعده كان له الأجر مرتين . [٢]

قال القرطبي : ولا حجة في هذا الحديث لوجهين : أحدهما : أنا نقول بموجبه وذلك أنه لم يتناول محل النزاع فإن المطلوب إنما هو : أن الناوي للخير المعوّق عنه له مثل أجر الفاعل من غير تضعيف وهذا الحديث إنما اقتضى مشاركة ومشاطرة في المضاعف فانفصلا .

وثانيهما : أن القائم على مال الغازي وعلى أهله نائبٌ عن الغازي في عمل لا يتأتّى للغازي غزوه إلا بأن يُكفى ذلك العمل فصار كأنه يباشر معه الغزو فليس مقتصراً على النية فقط بل هو عاملٌ في الغزو ولمّا كان كذلك كان له مثل أجر الغازي كاملاً وافراً مضاعفاً بحيث إذا أُضيف ونُسب إلى أجر الغازي كان نصيفاً له وبهذا يجتمع معنى قوله ﷺ : " من خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا " وبين معنى قوله ﷺ في اللفظ الأول " فله مثل نصف أجره " والله تعالى أعلم .

وعلى هذا يُحمل قوله ﷺ " والأجر بينهما " لا أن النائب يأخذ نصف أجر الغازي ويبقى للغازي النصف فإن الغازي لم يطرأ عليه ما يُوجب تنقيصاً لثوابه

---

[١] مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله ١٥٠٧/٣ رقم ١٨٩٦ .

[٢] فتح الباري ٥٩/٦ .

وإنما هذا كما قال ﷺ : " من فطَّر صائماً كان له مثل أجر الصائم لا ينقصه من أجره شيء " [١] والله تعالى أعلم . [٢]

وقد أدرك الصحابة هذا الأمر وفهموا عظيم الأجر المترتِّب عليه فرغبوا في الثواب فدلوا على الخير وأعانوا الغزاة .

فعن أبي مسعود الأنصاري أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : إني أُبدع بي – أي هلكت راحلتي وانقطع بي – فاحملني فقال : " ما عندي " فقال رجل : يا رسول الله أنا أدُلُّه على من يحمله فقال رسول الله ﷺ : " من دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله " . [٣]

وعن أنس أن فتىً من أسلم قال " يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به قال : " ائتِ فلاناً فإنه قد كان تجهز فمرض " فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ يُقرئك السلام ويقول : أعطني الذي تجهزتَ به قال : يا فلانة أعطيه الذي تجهزتُ به ولا تحبسي منه شيئاً فوالله لا تحبِسنَّ منه شيئاً فيبارك الله لكِ فيه . [٤]

قال النووي : وهذا الأجر يحصل بكل جهاد وسواءً قليله وكثيره ولكل خالفٍ له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم في أمرهم ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته . [٥]

---

[١] الترمذي كتاب الصوم باب ما جاء في فضل من فطر صائماً ٢/٢١٥ رقم ٨٠٧ وقال حديث حسن صحيح ، ابن ماجة كتاب الصيام باب في ثواب من فطر صائماً ١/٥٥٥ رقم ١٧٤٦ .

[٢] المفهم ٣/٧٢٩ ، ٧٣٠ .

[٣] سبق تخريجه .

[٤] مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله ٣/١٥٠٦ رقم ١٨٩٤ .

[٥] المنهاج ١٣/٤٠ .

الدروس المستفادة من الحديث

١- تنوّع صور الجهاد والترغيب فيه حسب القدرة والطاقة .

٢- من دلَّ على خير فله مثل أجر الفاعل ومن أعان على فعل خيـــرٍ فله مثل أجر فاعله .

٣- النية أساس العمل وأعمال الخير تُضاعف .

٤- وجوب تبليغ الإسلام لكل الناس وإزالة العقبات التي تمنع ذلك .

آداب الطعام والشراب

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ٢٠٩٥/٤ رقم ٢٧٣٤ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الإمام المفتي المقرئ المحدث راوية الإسلام : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري أبو حمزة المدني خادم رسول الله ﷺ وتلميذه وتابعه ، ولد بعد البعثة بثلاث سنين وقدم رسول الله ﷺ المدينة وهو ابن عشر سنين وأمه أم سليم بن ملحان وزوج أمه أبو طلحة الأنصاري .

لما قدم النبي ﷺ المدينة أخذته أمه وانطلقت به إلى النبي ﷺ وقالت له :

يا رسول الله : هذا أُنيس ابني أتيتك به يخدمك فادع الله له فقال : " اللهم أكثر ماله وولده " [١] وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ يقول أنس : فوالله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي يتعادون – أي يبلغ عددهم – على نحوٍ من مائة اليوم . [٢] خدم النبي ﷺ عشر سنين ونشأ في بيت النبوة وتأدَّب بآداب رسول الله ﷺ وشاهد ما لم يشاهده غيره وكان النبي ﷺ يخُصُّه ببعض العلم [٣]

---

[١] البخاري كتاب الدعوات باب من خص أخاه بالدعاء دون نفسه ١٤٠/١١ رقم ٦٣٣٤ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أنس بن مالك ١٩٢٩/٤ رقم ٢٤٨١ .

[٢] نفس التخريج السابق .

[٣] سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٠٢/٣ .

لقربه منه كما اطلع على ما لم يطلع عليه غيره بحكـم خدمتــه لرســول الله ﷺ فروى أن النبي ﷺ طاف على تسع نسوه في ليلة بغسلٍ واحد . [١]

ووقف من أحوال النبي ﷺ وأفعاله على الشيء الكثيـر ولازمــه أكمـل الملازمة منذ هاجر وإلى أن مات وغزا معه غير مرة وبايع تحت الشجرة . [٢]

وقد شهد أنس بدراً صغيراً يخدم النبي ﷺ وشهد ما بعدها مــن المغــازي وكان مجتهداً في العبادة حتى قال ثمامة : كان أنس يصلي حتى تقطر قدماه دماً مما يطيل القيام . [٣]

وكان شديد التمسك بالسنة حريصاً على الإقتداء برسول الله ﷺ ، قال أبــو هريرة : ما رأيت صلاة أحدٍ أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم ســليم يعنــي أنساً . [٤]

وقال تلميذه أنس بن سيرين : كان أنس بن مالك أحسن الناس صلاةً فــي الحضر والسفر . [٥]

روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة حتى عُدَّ أحــد المكثــرين مــن روايــة الحديث حيث تبلغ جملة الأحاديث التي رواها (٢٢٨٦) حديثاً اتفق الشيخان منها على (٣١٨) حديثاً وانفرد البخاري بثمانين ومسلم بسبعين .

---

[١] البخاري كتاب النكاح باب من طاف على نسائه في غسل واحد ٢٢٧/٩ رقم ٥٢١٥ ، ومسلم كتاب الحيض باب جواز نوم الجنب واستحباب الوضوء له ٢٤٩/١ رقم ٣٠٩ .

[٢] سير أعلام النبلاء ٣٩٧/٣ .

[٣] سير الأعلام ٤٠٠/٣ .

[٤] سير الأعلام ٤٠٠/٣ .

[٥] سير الأعلام ٤٠٠/٣ .

وقد روى عن كثيرٍ من كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة وعائشة وغيرهم .

كما روى عنه خلقٌ كثير من أعلام التابعين من أشهرهم : الزهري وسعيد ابن جبير والأعمش والشعبي ومكحول وقتادة وخلق كثير سواهم .

امتدَّ عمر أنس وطالت حياته وشُدَّت الرحال إليه وقصده طلاب العلم من كل مكان وجلس للتحديث والإفتاء ولحقته بركة دعاء النبي ﷺ .

فعن أنس قال : " دخل النبي ﷺ على أم سليم – يعني أمه – فأتته بتمرٍ وسمن فقال " أعيدوا تمركم في وعائكم وسمنكم في سقائكم فإني صائم " ثم قام في ناحية البيت فصلى بنا صلاةً غير مكتوبة فدعا لأم سليم وأهل بيتها فقالت : يا رسول الله إن لي خُويصة قال : " وما هي ؟ " قالت : خادمك أنس فما ترك خير آخرةٍ ولا دنيا إلا دعا به ثم قال " اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له فيه " قال أنس : فإني لمن أكثر الأنصار مالاً وحدثتني أمينة ابنتي : أنه دُفن من صلبي إلى مقدم الحجاج البصرة تسعة وعشرون ومائة .[1]

وعن أنس قال : دعا لي رسول الله ﷺ ثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين في الدنيا وأرجو الثالثة [2] أما الدعوتان اللتان رآهما في الدنيا فكثرة المال والولد مع البركة فيهما وأما الدعوة الثالثة فهي مغفرة الذنوب ففي طبقات ابن سعد أن النبي ﷺ دعا له فقال : " اللهم أكثر ماله وولده وأطل عمره واغفر

---

[1] البخاري كتاب الصوم باب من زار قوماً فلم يُفطر عندهم ٤/٢٦٨ رقم ١٩٨٢ ، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز الجماعة في النافلة ١/٤٥٧ رقم ٦٦٠ .

[2] مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أنس بن مالك٤/١٩٢٩ رقم ٢٤٨١ .

ذنبه "[١] وقد كثُر أولاد أنس حتى دُفن في حياته من صلبه أكثــر مــن مائــةٍ وعشرين وخلف بعده قرابة المائة وكثر ماله وبارك الله له فيه .

قال أبو العالية : خدمه عشر سنين ودعا له وكان له بســتانٌ يحمــل فــي السنة الفاكهة مرتين وكان فيها ريحانٌ يجئ منه ريح المسك [٢] .

وعن ثابت البناني قال : جاء قيّم أرض أنس فقال : عطشت أرضنا قــال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب يلتــئم حتى أمطرت حتى خيّل إلينا أنها ملأت كل شيء وذلك في الصيف فلمــا ســكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال : انظر أين بلغت السماء ؟ فنظر فإذا هي لــم تعد أرضه إلا يسيراً [٣] .

قال الحافظ الذهبي : هذه كرامةٌ بيِّنة ثبتت بإسنادين ومناقب أنس وفضائله كثيرة جداً [٤] .

توفي أنس سنة ثلاثٍ وتسعين وعمره مائة وثــلاث ســنين وكــان آخــر الصحابة موتاً بالبصرة .

قال قتادة لما مات أنس قال مورق : ذهب اليوم نصف العلــم قيــل لــه : كيف ذلك ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا في الحديث قلنا : تعال إلى من سمعه من النبي ﷺ . [٥]

---

[١] طبقات ابن سعد ١٩/٧ .
[٢] الترمذي كتاب المناقب باب مناقب أنس ٤٥١/٥ رقم ٣٨٥٩ ، وقال : إسناده حسن .
[٣] طبقات ابن سعد ٢١/٧ ، البداية والنهاية ٩٧/٩ .
[٤] سير الأعلام ٤٠١/٣ .
[٥] المعجم الكبير للطبراني ٢٥٠/١ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٢٥/٩ وقال : رجاله رجال الصحيح

معاني المفردات

الرضا : ضد السَّخَط وهو من صفات القلوب .

الأكلة : بفتح الهمزة وسكون الكاف هي : المرة الواحدة من الأكل حتى يشبع ، وبضم الهمزة : اسم للقمة الواحدة وبكسر الهمزة هي : هيئة الأكل .

فيحمده : الحمد نقيض الذم وحمد الله هو : الثناء عليه وحمد الله للعبد معناه رضاه عنه وإثابته وإدخاله جنته .

الشربة : بفتح الشين وسكون الراء وهى المرة الواحدة من الشرب .

المعنى الإجمالي للحديث

خلق الله الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ووهب له السمع والأبصار والأفئدة وطلب منه القيام بعبادته وشكره ووعده الجنة إن إطاعه وتوعده بالنار إن عصاه وشرع له ما يصلح حاله ويحفظ عليه صحتة ويمكنه من أداء مهمته في الأرض وهو أعلم به من نفسه وحرَّم عليه كل ضار وخبيث وتعبّده بتناول الطيبات وترك الخبائث والمحرمات .

والمسلم يعلم أن الطعام والشراب وسيلة لا غاية من أجل الحفاظ على البدن الذي يعبد ربه بواسطته فهو يتناول منه ما يكفى لهذا القدر مقتدياً بالرسول ﷺ وصحابته الكرام وهو يعلم أن الله يرضى عن عبده حينما يعلم أن الطعام والشراب نعمة من الله وفضل يستوجب شكره بالقلب واللسان والجوارح والأركان فيجمع مع تلذذه بالطعام طاعة الرحمن ونيل رضاه .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الرضا من الله مغفرة ورحمة ونعيم وجنة لا تفنى ولا تبيد ومحبة وقربٌ منه وثوابٌ عظيم ورفعٌ للدرجات وهو أفضل المراتب وأعلاها وأسمى الرتب

وأنداها في الدنيا والآخرة وهى درجة السابقين الأولين ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [١]﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ " [٢] وهو ضد السخط .

وهو أشرف أحوال أهل الجنة وأعلى مقامـاتهم وأرفـع درجـاتهم ففـي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال " إن الله عزَّ وجـل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فـي يـديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضي ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعـط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً [٣] .

وقد رتَّب الله هذه الكرامة الشريفة والمنزلة العالية والدرجة الرفيعة علـى حمده وشكره عقب الأكل والشرب لأن ذلك يتضمن معرفة المنعِم وانفراده بخلق تلك النعمة وبإيصالها إلى المنعَم عليه تفضُلاً من المنعِم وكرماً ومنه وأن المنعَم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم ولا غني به عنه وقد تضمن ذلك معرفة حق الله وفضله وحق العبد وفاقته وفقره فجعل الله تعالى جزاء تلك المعرفة ذلك الإكرام العظيم [٤] .

---

(١) التوبة : ١٠٠ .

(٢) الفتح : ١٨ .

(٣) البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ١١/٢٣ رقم ٦٥٤٩ ، ومسلم كتاب الجنة وصفات نعيمها وأهلها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً ٤/٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩ .

(٤) المفهم للقرطبى ٧/٦١ .

الفائدة الثانية :

معنى حمد الله هو الاعتراف بفضله وشكره على نعمه التي لا يُحصيها العدّ ولا يُحيط بها العلم من تصحيح الأجسام لأداء فرائض الله وبسط الرزق لعباده من غير استحقاقٍ منهم لذلك مع إرساله الرسل إليهم وإنزاله الكتب عليهم ودلالتهم عليه مما يؤدي بهم إلى دوام الخلود في جنات النعيم ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [(١)] فلربنا الحمد كله أوله وآخره وظاهره وباطنه سره وعلانيته ، والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لربه ومعرفته بنعمه واستشعاره معيته فإن وجود الإنسان ابتداءً ليس إلا فيضاً من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء ولذلك كان الحمد لله ابتداءً وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر [(٢)] .

وقد بيَّن لنا ربنا مكانة الحمد وقيمته وكثرة الثواب المترتب عليه لأن ربنا يحبه وفي الحديث عن الأسود بن سريع قال : قلت يا رسول الله ألا أُنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى فقال : " أما إن ربك يحب الحمد " [(٣)] ولذلك فقد أكثر ربنا في القرآن من حمد نفسه إظهاراً لنعمه وتعليماً لخلقه حتى يحمدوه فافتتح كتابه بالحمد فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [(٤)] . وافتتح خلقه بالحمد فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ

---

(١) إبراهيم : ٣٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢٢/١ .
(٣) أحمد في المسند ٢٤٠/١٢ رقم ١٥٥٢٣ .
(٤) الفاتحة : ٢ .

ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [(١)] واختتم خلقه بالحمد فقال بعد ما ذكر مصير أهل لجنة ومصير أهل النار: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [(٢)] وأمتنّ على خلقه بإنزال القرآن فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [(٣)] كما امتنّ عليهم بتطهير الأرض من دنس الظالمين فقال : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [(٤)] فلله الحمد دائماً وأبداً وفى كل وقت وحين ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [(٥)] .

ولربنا الحمد في الأولى والآخرة وفي جميع ما خلق وفي جميع ما هو خالق وله الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء ربنا من شيء بعد .

ولهذا يُلهَم أهل الجنة التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس لما يرون من عظيم نعم الله عليهم وكمال قدرته وعظيم سلطانه وتوالي منته ودوام إحسانه إليهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ

---

(١) الأنعام : ١ .
(٢) الزمر : ٧٥ .
(٣) الكهف : ١ .
(٤) الأنعام : ٤٥ .
(٥) القصص : ٧٠ .

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [١] ولذلك كان ثواب الحمد كبيراً وفى الحديث : " الحمد لله تملأ الميزان " [٢] وكان الحمد الله أفضل الدعاء ، فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : " أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله " [٣] ، وكان حمد الله أعظم فضلاً وأحسن عاقبةً من كل نعم الدنيا ، وفى الحديث عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ : " ما أنعم الله على عبد من نعمة فقال : الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ " [٤] وذلك لأن ثواب الحمد يبقى ويتضاعف ونعيم الدنيا يفنى وينتهي .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم : " أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربنا إن عبداً قد قال مقالةً لا ندرى كيف نكتبها قال الله وهو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدي ؟ قالا يارب إنه قال : لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها " [٥] أي أن الملكين لم يدريا كيف يكتبان قدر ثوابها فأمرهم الله بكتابتها وترك تقدير الثواب له .

الفائدة الثالثة :

المؤمن يشكر الله دائماً على نعمه ويعلم أنها لا تُعدُّ ولا تُحصى وأن شكره إياها لا يكون مكافئاً لها ولكن الله يضاعف الأعمال ويثيب عليها .

---

(١) يونس : ٩ ، ١٠ .

(٢) مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء ١ / ٢٠٣ رقم ٢٢٣ .

(٣) الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ٢٤٨/٥ رقم ٣٣٩٤ وقال : حسن غريب ، ابن ماجة كتاب الأدب باب فضل الحامدين ١٢٤٩/٢ رقم ٣٨٠٠ .

(٤) ابن ماجة كتاب الدعوات باب فضل الحامدين ١٢٥٠/٢ رقم ٣٨٠٥ وفى الزوائد : إسناده صحيح .

(٥) ابن ماجة كتاب الأدب باب فضل الحامدين ١٢٤٩/٢ رقم ٣٨٠١ .

وشكر العبد لربه يكون بالقول بالاعتراف بنعم الله واعتقاد أنها تفضُّلٌ منه وأنه لا يستطيع شكرها مهما فعل وكيف يستطيع ؟ وشكره لربه إنما هو نعمة من ربه عليه .

وباللسان بالثناء على الله والإكثار من حمده والتحدث بنعمه .

وبالجوارح باتباع شرع الله والتمسك بطاعته والكف عن المعاصي والآثام وحسن استخدام جوارحه في مرضاة الله .

والنبي الكريم ﷺ يلفت أنظارنا في هذا الحديث إلى إحدى نعم الله والتي قلّما يلتفت الإنسان إلى قدرها وأهميتها إلا حينما يفقدها أو يُحْرم بسبب المرض من بعضها وهي نعمة الطعام والشراب التي هي من أجلّ النعم وأهمها لصيانة النفس البشرية التي خلقها الله لعمارة الكون وعبادته .

وقد سخَّر الله للإنسان جميع ما في الأرض قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [1] وأحل الله لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [2] ووسع الله دائرة الحلال وضيق دائرة الحرام فقال : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [3] ثم بين لنا رسول الله ﷺ أن الإنسان يستطيع أن يجعل من تناوله الطعام إضافةً إلى التلذذ به عبادة يثاب عليها وذلك باتباع الآداب النبوية التي

---

(1) الجاثية : ١٣ .

(2) الأعراف : ١٥٧ .

(3) الأنعام :١٤٥ .

شرعها لنا رسول الله ﷺ وحثّنا عليها وهي في جملتها لمصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة وقد طبقها النبي ﷺ أمام أصحابه وأمر بها شكراً لنعمة الله ومن هذه الآداب :

١) أن يحرص أن يكون طعامه وشرابه من حلالٍ خالص وليس فيه حرام أو شبهة حرام قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [١] والنبي ﷺ قال : " كل لحمٍ نبت من سحتٍ فالنار أولى به " [٢] .

٢) أن يغسل يديه قبل الطعام وبعده خاصةً إن كان بهما أذى أو عند عدم التأكد من نظافتهما فعن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ : " بركة الطعام الوضوء قبله وبعده " [٣] والمراد بالوضوء غسل اليدين كما قال العلماء .

٣) الأكل والشرب باليمين فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله " [٤] ، وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال له النبي ﷺ : " كل بيمينك " قال : لا أستطيع قال : " لا استطعت ما منعه إلا الكبر " فما رفعها إلى فيه [٥] وذلك لأن اليمين أقوى وأسبق للأعمال وأمكن في الأشغال وهي

---

[١] البقرة : ١٧٢ .

[٢] الطبراني في المعجم الكبير ١٣٦/١٩ .

[٣] أبوداود كتاب الأطعمة باب في غسل اليد قبل الطعام ٣٤٥/٣ رقم ٣٧٦١ ، والترمذي كتاب الأطعمة باب ما جاء في الوضوء قبل الطعام وبعده ٣٣٤/٣ رقم ١٨٥٣ وإسناده حسن .

[٤] مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠٢٠ .

[٥] مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ١٥٩٩/٣ رقم ٢٠٢١ .

مشتقة من اليمن والبركة وقد شرّف الله أهل الجنة بأن نسبهم إليها فقال : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ [١] . قال الإمام القرطبي : اليمين وما نسب إليها وما اشتق عنها محمود لساناً وشرعاً ودنيا وآخرة والشمال على النقيض من ذلك [٢] . ولذلك كان النبي ﷺ يخص اليمين بالأعمال الشريفة والأحوال النظيفة وإن احتاج في شيءٍ من ذلك إلى الاستعانة بالشمال فبحكم التبعية وكان يستخدم الشمال في إزالة الأقذار والأمور الخسيسة والأحاديث الواردة في هذا المعنى كثيرة فمنها ماجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله يعجبه التيمن في شأنه كله في طهوره وترحله وتنعله [٣] وقالت : كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه وكانت اليسرى لخلائه وما كان من أذى [٤] ﷺ ، وعن حفصة أن رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ويجعل يساره لما سوى ذلك [٥] .

٤) التسمية عند ابتدائه الطعام فإن نسي التسمية في أوله فليقل بسم الله أوله وأخره ، فعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : " إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل بســم الله

---

[١] الواقعة : ٩٠ ، ٩١ .

[٢] المفهم ٥/ ٢٩٦ .

[٣] البخاري كتاب الوضوء باب التيمن في الوضوء والغسل ٣٢٤/١ رقم ١٦٨ ، ومسلم كتاب الطهــارة بــاب التيمن في الطهور وغيره ٢٦٦/١ رقم ٢٦٨ .

[٤] أبو داود كتاب الطهارة باب كراهية مس الذكر باليمين في الاستبراء ٨/١ رقم ٣٣ .

[٥] أبو داود كتاب الطهارة باب كراهية مس الذكر باليمين في الاستبراء ٨/١ رقم ٣٢ .

أوله وآخره " [١] والتسمية بركة للطعام ومطردة للشيطان بحيث تحول بينه وبين الطعام فعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الشيطان ليستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه " [٢] ، وعن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء " [٣] ، وعن أمية بن مخشي قال : كان رسول الله ﷺ جالساً ورجل يأكل فلم يسم الله حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة فلما رفعها إلى فيه قال : بسم الله أوله وآخره فضحك النبي ﷺ ثم قال : " مازال الشيطان يأكل معه فلما ذكر اسم الله استقاء ما في بطنه " [٤].

وللتسمية تأثير عجيب في تكثير الطعام وإحلال البركة فيه بحيث يكفي الطعام القليل الكثير من الناس ، فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في ستةٍ من أصحابه فجاء أعرابي فأكله بلقمتين فقال رسول الله ﷺ : " أما إنه لو سمَّى لكفاكم " [٥]

---

[١] أبو داود كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام ٣٤٦/٣ رقم ٣٧٦٧ ، الترمذي كتاب الأطعمة باب ما جاء في التسمية على الطعام ٣٣٩/٣ رقم ١٨٦٥ وقال : حديث حسن صحيح .

[٢] مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ١٥٩٧/٣ رقم ٢٠١٧ .

[٣] مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠١٨ .

[٤] أحمد في المسند ٣٣٤/١٤ رقم ١٨٨٦٥ ، أبو داود كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام ٣٤٧/٣ رقم ٣٧٦٨ ، والحاكم في المستدرك ١٠٨/٤ ووافقه الذهبي ، وصححه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ١٢٤/٣ .

[٥] أحمد في المسند ١٣٢/١٨ رقم ١٥٩٦٧ ، والترمذي كتاب الأطعمة باب ما جاء في التسمية على الطعام ٣٤٠/٣ رقم ١٨٦٥ وقال : حديث حسن صحيح .

قال ابن القيم : وللتسمية في أول الطعام والشراب وحمد الله في آخره تأثير عجيب في نفعه واستمرائه ودفع مضرته ، قال الإمام أحمد : إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل : إذا ذُكر اسم الله في أوله وحُمد الله في آخره وكثرت عليه الأيادي وكان من حلّ . [١]

٥) الأكل مما يلي الآكل إذا كان الطعام نوعاً واحداً ، فعن عمر بن أبي سلمة قال : كنت في حِجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصّحْفة فقال لي : " يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك " [٢] وذلك لما فيه من إظهار الحرص على الطعام والشره به وقد يؤدِّي ذلك إلى تشويه شكل الطعام لكثرة تحريك الأيدي فيه ثم هو سوء أدبٍ من غير فائدة وأما إذا تنوَّعت أصناف الطعام جاز ذلك بلا حرج .

٦) استحباب مدح الطعام وعدم عيبه وترك الأكل منه عند عدم الرغبة فيه فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سأل أهله الأُدم فقالوا ما عندنا إلا خلّ فدعا به فجعل يأكل ويقول : " نعم الأُدم الخل نعم الأُدم الخل " [٣] وهذا ثناء عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر وليس تفضيلاً للخل على غيره والمقصود أن أكل الخبز مأدوماً من أسباب حفظ الصحة بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده وإنما سمي الأدم أدماً لإصلاحه الخبز وجعله ملائماً لحفظ الصحة . وعن أبي هريرة قال : ما عاب رسول

---

[١] زاد المعاد ٢١٣/٣ .

[٢] البخاري كتاب الأطعمة باب والأكل باليمين ٤٣١/٩ رقم ٥٣٧٦ ، مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما ١٥٩٩/٣ رقم ٢٠٢٢ .

[٣] مسلم كتاب الأشربة باب فضيلة الخل والتأدم ١٦٢٢/٣ رقم ٢٠٢٥ .

الله ﷺ طعاماً قط إن استشهاه أكلــه وإن كرهــه تركــه.[1] وذلــك لأن الأطعمة كلها نعم الله تعالى وعيب شيء من نعم الله مخــالف لشــكره فالواجب على من استطاب طعاماً أن يأكل منه ويشكر الله تعالى لأنــه مكّنه منه وأوصل منفعته إليه وإن كرهه فليتركه ويشكر الله تعالى لأنه أمكنه منه وأقدره عليه ثم قد يستطيبه أو يحتاج إليه في وقتٍ آخر فيأكله فتتم عليه النعمة ويسلم مما يُناقض الشكر .

٧) النهي عن القِران بين التمر وأنواع الفاكهة إذا كان يأكل مع غيره إلا إذا استئذنه فعن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن الإقران ثم قــال : " إلا أن يستأذن الرجل أخاه " .[2] فإذا كان وحده فلا بأس به .

٨) الاجتماع على الطعام وتكثير الأيدي عليه فعن وحشي بن حرب قــال : إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله إنا نأكــل ولا نشــبع ؟ قال : " فلعلكم تفترقون ؟ " قالوا : نعم قال : " فاجتمعوا على طعــامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه " [3] ، وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : " طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفــي الأربعــة وطعام الأربعة يكفي الثمانية " .[4]

---

[1] البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ ٦/٦٥٤ رقم ٣٥٦٣ ، ومسلم كتاب الأشربة باب لا يعيب الطعام ١٦٣٢/٣ رقم ٢٠٦٤ .

[2] البخاري كتاب الأطعمة باب القران في التمر ٤٨٢/٩ رقم ٥٤٤٦ ، ومسلم كتاب الأشربة باب نهى الآكــل مع جماعة عن قران تمرتين ونحوهما في لقمة إلا بإذن أصحابه ١٦١٧/٣ رقم ٢٠٤٥ .

[3] أحمد في المسند ٤٤٥/١٢ رقم ٦٠٢٣ ، أبو داود كتاب الأطعمة باب في الاجتماع علــى الطعــام ٣٤٦/٣ رقم ٣٧٦٤ .

[4] مسلم كتاب الأشربة باب فضيلة المواساة في الطعام القليل ١٦٣٠/٣ رقم ٢٠٥٩ .

٩) الأكل من جانب وعاء الطعام وعدم الأكل من وسطه فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " البركة تنزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه " [١] ، وعن عبد الله بن بسر أن النبي ﷺ علمهم فقالوا " كلوا من حواليها ودعوا ذروتها يبارك فيها " [٢].

١٠) الأكل ببساطة وتواضع وترك التكلف والاتكاء فعن أبي جحيفة أن رسول الله ﷺ قال : " لا آكل متكئاً " [٣] فكان يجثو على ركبتيه ويجلس على ظهر قدميه أو ينصب رجله اليمنى ويجلس على اليسرى وذلك أنفع للجسم وأصلح . وكان النبي ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث فإذا فرغ من الطعام لعقها قبل أن يمسحها أو يغسلها فعن كعب بن مالك قال : رأيت رسول الله ﷺ يأكل بثلاث أصابع فإذا فرغ لعقها " [٤] وكان لا يضع لنفسه من الطعام إلا ما يكفيه بحيث لا يبقى منه شيء فيفسد فعن جابر ابن عبد الله قال أمر رسول الله ﷺ بلعق الأصابع والصحفة وقال : " إنكم لا تدرون في أيِّ طعامكم البركة " [٥] وهذا تواضعٌ من رسول الله ﷺ ولذلك ما أكل على خوانٍ قط . [٦]

---

[١] أبو داود كتاب الأطعمة باب ما جاء في الأكل من أعلى الصحفة ٣٤٧/٣ رقم ٣٧٧٢ ، الترمذي كتاب الأطعمة باب ما جاء في كراهية الأكل من وسط الطعام ٣١٦/٣ رقم ١٨١٢ وقال : حديث حسن صحيح .

[٢] أبو داود كتاب الأطعمة باب ما جاء في الأكل من أعلى الصحفة ٣٤٨/٣ رقم ٣٧٧٣ ، ابن ماجة كتاب الأطعمة باب النهي عن الأكل من ذروة الثريد ١٠٩٠/٢ رقم ٣٢٧٥ .

[٣] أبو داود كتاب الأطعمة باب ما جاء في الأكل متكئاً ٣٤٧/٣ رقم ٣٧٦٩ ، والترمذي كتاب الأطعمة باب ما جاء في كراهية الأكل متكئاً ٣٢٧/٣ رقم ١٨٣٧ وقال : حديث حسن صحيح .

[٤] مسلم كتاب الأشربة باب استحباب لعق الأصابع والصحفة ١٦٠٥/٣ رقم ٢٠٣٢ .

[٥] مسلم كاب الأشربة باب استحباب لعق الأصابع والصحفة ١٦٠٦/٣رقم ٢٠٣٣ .

[٦] البخاري كتاب الأطعمة باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفرة ٤٤٠/٩ رقم ٥٣٨٦ .

١١) أخذ اللقمة التي تسقط ومسحها ثم أكلها وعدم تركها للشيطان فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : " إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمسح ما كان بها من أذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة " [١] وذلك لأن تركها تمكينٌ للشيطان منها وتكبُّرٌ عن أخذها ونسيانٌ لحق الله فيها وطاعةٌ للشيطان فصارت مناسبة للشيطان إذ قد تُكبِّر عنها وهو مُتكبِّر فصارت طعامه .

١٢) عدم أكل ما تعافه النفس ولا تشتهيه فكان رسول الله ﷺ إذا اشتهى طعاماً أكله وإذا عافه تركه .

قال ابن القيم : وهذا أصلٌ عظيمٌ في حفظ الصحة فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ولا تشتهيه كان تضرره به أكثر من انتفاعه .[٢]

ولذلك لما وُضع الضب على مائدة الرسول ﷺ لم يأكل منه وتأخر عنه فقيل له : أهو حرام ؟ قال : " لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه " [٣] فراعى النبي ﷺ عادته وشهوته فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه وكانت نفسه لا تشتهيه أمسك عنه ولم يمنع من أكله من يشتهيه ومن عادته أكله . [٤]

---

[١] البخاري كتاب الأطعمة باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفرة ٤٤٠/٩ رقم ٥٣٨٦ .

[٢] زاد المعاد ٦٠٢/٣ .

[٣] البخاري كتاب الذبائح والصيد باب الضب ٥٨٠/٩ رقم ٥٥٣٧ ، مسلم كتاب الصيد والذبائح باب إباحة الضب ١٥٤٣/٣ رقم ١٩٤٥ .

[٤] زاد المعاد ٦٠٢/٣ .

١٣) حمد الله بعد الفراغ من الطعام شكراً للنعمة واستجلاباً لدوامها وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يحمد الله بعد الطعام بصيغٍ متعددة وألفاظٍ مختلفة كلها تدلُّ على معرفته بنعمة ربه وشكره عليها وسؤال دوامها وزيادتها فعن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال : " الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا " [(١)] وعن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " من أكل طعاماً فقال : الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه " [(٢)] ، وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺكان إذا فرغ من طعامه قال : " الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين " [(٣)] وربما كان يقول إذا فرغ من طعامه : " اللهم أطعمت وأسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت فلك الحمد على ما أعطيت " . [(٤)]

ولو اقتصر المسلم على كلمة الحمد لله حصَّل أصل السنة .

ومن السنة أن لا يرفع صوته بالحمد عند الفراغ من الأكل إذا لم يفرغ جلساؤه ولئلا يكون ذلك مانعاً لهم من استكمال طعامهم وفائدة الحمد عقب الطعام أنه أداءٌ لشكر المُنعم وطلبٌ لزيادة النعمة لقوله تعالى : " لئن شكرتم لأزيدنكم " [(٥)].

---

(١) البخاري كتاب الأطعمة باب ما يقول إذا فرغ من طعامه ٤٩٣/٩ رقم ٥٤٥٨ .

(٢) أبو داود كتاب اللباس ٤١/٤ رقم ٤٠٢٣ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ٢٨٤/٥ رقم ٣٤٦٩ وقال : حديث حسن .

(٣) أبو داود كتاب الأطعمة باب ما يقول الرجل إذا أطعم ٣٦٥/٣ رقم ٣٨٥٠ .

(٤) أحمد في المسند ٨٢/١٣ رقم ١٦٥٤٨ وصحّح ابن حجر إسناده فتح الباري ٤٩٤/٩ .

(٥) إبراهيم : ٧ .

١٤) عدم الإسراف في تناول الطعام والشراب قال تعالى " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " [١]، وعن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال : ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه " [٢] ، وعن عبد الله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال " كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده " [٣] .

لأن الإنسان إذا تعوَّد ملأ بطنه بالطعام أورثه ذلك أمراضاً متنوعة فإن المعدة بيت الداء وإذا توسَّط وتناول من الطعام قدر حاجته وكان الطعام معتدلاً في كميته وكيفيته كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير لأن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس وعرَّضه للكرب والتعب وصار بحمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل إضافةً إلى ما يترتب على ذلك من فساد القلب وكسل الجوارح عن الطاعات وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع ونوم الفطنة فامتلاء البطن من الطعام ضارٌ بالقلب والبدن عند التعوُّد عليه فإذا كان في بعض الأحيان فلا بأس به [٤] فصلاة الله وسلامه على أكمل الخلق وأشرفهم نفساً وأفضلهم هدياً في كل شيء فقد دلَّ أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم في القلوب والأبدان في الدنيا والآخرة .

---

[١] آل عمران : ٣١ .

[٢] أحمد في المسند ٢٩٤/١٣ رقم ١٧١٢٠ ، والترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ١٦٨/٤ رقم ٢٣٨٧ وقال : حديث حسن صحيح .

[٣] راجع زاد المعاد ١٠٣/٣ .

[٤] راجع زاد المعاد ١٠٣/٣ .

١٥) أن يقول عند الفراغ من الطعام : اللهم بارك لنا فيه وزدنا خيراً منه فإن كان طعامه لبناً قال : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " من أطعمه الله طعاماً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإني لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن " .[1]

١٦) أن يدعوا لمن أكل عنده فعن أنس قال جاء النبي ﷺ إلى سعد بن عبادة فجاءه بخبز وزيت فأكل ثم قال النبي ﷺ " أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة " .[2]

الفائدة الرابعة :

يبين لنا النبي ﷺ آداباً في تناول الشراب فيها مصلحة الإنسان في دنياه بحفظ صحته وفي أخراه بطاعة ربه وقد جاء العلم الحديث ليثبت أن في هذه الآداب مصلحة البدن وصيانته من الأمراض والآفات ومن أهم هذه الآداب :-

١- التسمية عند ابتداء الشراب والحمد عند الفراغ منه فعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " سموا إذا أنتم شربتم واحمدوا إذا أنتم رفعتم " .[3]

٢- عدم التنفُّس داخل الإناء والتنفُّس خارجه ثلاث مرات فعن أنس أن رسول الله ﷺ كان يتنفَّس في الشراب ثلاثاً ويقول : " إنه أروى وأمرأ وأبرأ " [4] يعني أنه كان يتنفس خارج الإناء ثم يعود إلى الشراب ثلاث

---

[1] ابن ماجة كتاب الأطعمة باب اللبن ١١٠٣/٢ رقم ٣٣٢٢ ، وإسناده صحيح .

[2] أحمد في المسند ٣٧٨/١٠ رقم ١٢١١٦ ، أبو داود كتاب الأطعمة باب ما جاء في الدعاء لرب الطعام ٣٣٦/٣ رقم ٣٨٥٤ ، وإسناده صحيح .

[3] الترمذي كتاب الأشربة باب ما جاء في التنفس في الإناء ٣٥٢/٣ رقم ١٨٩٢ ، وإسناده ضعيف .

[4] مسلم كتاب الأشربة باب كراهية التنفس في الإناء ١٦٠٢/٣ رقم ٢٠٢٨ .

مرات . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تشربوا واحداً كشرب البعير ولكن اشربوا مثنى وثلاث " [1] وفائدة هذا الأمر أنه أروى أي : أشد رياً وأبلغه وأنفعه وأبرأ أي : يشفي من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه والثالثة ما عجزت الثانية عن تسكينه وهو أسلم لحرارة المعدة لئلاً يهجم عليها الماء البارد دفعة واحدة فيضرُّ بها وأمرأ أي : ألذ وأهنأ .

٣- عدم الشرب من فم الإناء مباشرة والشرب بواسطة كوب يُصب فيه من فم الإناء فعن أبي هريرة قال : نهى رسول الله ﷺ أن يُشرب من فيّ السقاء أو القربة [2] وذلك لأن تردُّد أنفاس الشاربين على مكانٍ واحد ربما يُكسبه رائحة كريهة وربما دخل جوف الشارب ماء كثير دون قصد فيتضرَّر من ذلك وربما يكون في الماء أذى فيدخل جوفه دون أن يراه .

٤- عدم النفخ في الشراب وإن كان ساخناً ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ نهى عن النفخ في الشراب فقال رجل : القذاة أراها في الإناء فقال : " أهرقها " قال : إني لا أروى من نفسٍ واحد قال : " فأبن القدح إذاً عن فيك " [3] وذلك لئلا تُخالطه أنفاس النافخ فإنه ربما يُكسبه رائحة كريهة فيترك لأجلها لاسيما إن كان متغير الفم .

---

[1] هو جزء من حديث ابن عباس السابق .

[2] البخاري كتاب الأشربة باب الشرب من فم السقاء ٩٣/١٠ رقم ٥٦٢٨ .

[3] مالك في الموطأ كتاب صفة النبي ﷺ باب النهي عن الشراب في آنية الفضة والنفخ في الشراب ص٧٠٥، الترمذي كتاب الأشربة باب ما جاء في كراهية النفخ في الشراب ٣٥٣/٣ رقم ١٨٩٤ وقال : حديث حسن صحيح .

٥- الشرب قاعداً فإنه أفضل وأكمل من الشرب قائماً فإنه وإن كان جــائزاً ولكنه خلاف الأولى وإنما فعله النبي ﷺ عند الحاجة ولبيان الجــواز ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يشربنَّ أحدٌ منكم قائمــاً فإن نسي فليستقئ " [(١)] ، وعن ابن عباس أنه قال : سقيت النبي ﷺ من زمزم فشرب وهو قائم [(٢)] ، وعن ابن عمر قال كنا : نأكل على عهــد رسول الله ﷺ ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام [(٣)] ولا تعارض بين هذه الأحاديث فالأصل هو الشرب قاعداً فإن احتاج أن يشرب قائماً فعل دون أن تكون عادةً له وذلك لأن للشرب قائماً آفات وأضــرار عديدة منهــا : أنه لا يحصل به الري التام ، ولا يستقر الماء في المعدة حتــى يقســمه الكبد على الأعضاء بل ينزل بسرعةٍ وحِدَّةٍ إلى المعدة فيخشى منـــه أن يبرد حرارتها ويشوشها ويسرع النفوذ إلى سافل البدن من غير تــدريج وكل هذا يضر بالشارب وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة لــم يضــره ولا يُعترض على ذلك بأن هناك من عادته الشرب قائماً ولا يُصاب بشئ من الأمراض فإن العوائد – كما قال ابن القيم – طبائع ثوان ولهــا أحكــامٌ أخرى وهي عند الأطباء بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء . [(٤)]

٦- استحباب شرب الماء البائت إذا كان مغطىً فعن جابر أن رسول الله ﷺ دخل على رجلٍ من الأنصار ومعه صاحب له فقــال رســول الله ﷺ :

---

(١) مسلم كتاب الأشربة باب كراهية الشرب قائماً ١٦٠١/٣ رقم ٢٠٢٦ .

(٢) البخاري كتاب الحج باب ما جاء في زمزم ٥٧٦/٣ رقم ١٦٣٧ ، مسلم كتاب الأشربة باب في الشرب مــن زمزم قائماً ١٦٠١/٣ رقم ٢٠٢٧ .

(٣) أحمد في المسند ٢٧٦/٥ رقم ٥٨٧٤ ، الترمذي كتاب الأشربة باب ما جاء في النهي عن الشــرب قائمــاً ٣٥٠/٣ رقم ١٨٨٧ وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) زاد المعاد ٢١١/٣ .

" إن كان عندك ماءٌ بات هـذه الليلـة فـي شـنة وإلا كرعنـا " [١] .
قال ابن لقمان : والماء البائت بمنزلة العجين الخمير والذي شرب لوقته بمنزلة الفطير فإن الأجزاء الترابية الأرضية تفارقه إذا بات . [٢]

٧- استحباب إدارة الإناء على الأيمن فالأيمن بعد المبتدأ بالشرب فعن أنس أن رسول الله أُتي بلبن قيد شيب بماء وعن يمينه أعرابي وعن يسـاره أبو بكر فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال : " الأيمن فالأيمن " [٣] وعـن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشزب منه وعن يمينه غلام – هو ابن عباس – وعن يساره أشياخ فقال للغلام : " أتـأذن لـي أن أعطي هؤلاء ؟ " فقال الغلام : لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحداً فتلّـه – أي وضعه – رسول الله ﷺ في يده [٤] .

٨- استحباب كون ساقي القوم آخرهم شرباً فعن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال : " ساقي القوم آخرهم شرباً " [٥] .

٩- تحريم الشرب في آنية الذهب والفضة فعن أم سلمة أن رسـول الله ﷺ قال : " إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم " .[٦]

---

[١] البخاري كتاب الأشربة باب شرب اللبن بالماء ٧٨/١٠ رقم ٥٦١٣ .
[٢] زاد المعاد ٣/ ٢١٠ .
[٣] البخاري كتاب الأشربة باب الأيمن فالأيمن في الشرب ٨٨/١٠ رقم ٥٦١٩ ، ومسلم كتاب الأشـربة بـاب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما عن يمين المبتدئ ١٦٠٣/٣ رقم ٢٠٢٩ .
[٤] البخاري كتاب الأشربة باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه في الشرب ليعطي الأكبر ٨٩/١٠ رقم ٥٦٢٠ مسلم كتاب الأشربة باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما عن يمين المبتدئ ١٦٠٤/٣ رقم ٢٠٣٠ .
[٥] مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب قضاء الصـلاة الفائتـة واسـتحباب تعجيـل قضـائها ٤٧١/١ رقم٦٨٠ .
[٦] البخاري كتاب الأشربة باب آنية الفضة ٩٨/١٠ رقم ٥٦٣٤ ، مسلم كتاب اللباس والزينـة بـاب تحـريم استعمال أواني الذهب والفضة وغيره ١٦٣٤/٣ رقم ٢٠٦٥ .

١٠- تغطية الإناء ولو بوضع عودٍ عليه وتسمية الله عند ذلك فعــن جــابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنَة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء عليه غطاء وسقاء ليس عليه وكاء إلا وقع فيه من ذلك الداء ".[١]

الدروس المستفادة من الحديث

١. استحباب تجديد حمد الله عند تجدد النعمة من حصول ما كان الإنسان يتمناه أو زوال ما كان الإنسان يخافه ويخشاه .

٢. شكر النعمة وإن قلَّت هو الطريق لنيل رضا الله تعالى .

٣. الالتزام بآداب الطعام والشــراب تقرُبــاً إلــى الله وابتغــاء مرضاته .

٤. الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً .

[١] مسلم كتاب الأشربة باب الأمر بتغطية الإناء ١٥٩٦/٣ رقم ٢٠١٤ .

فضل الصلاة على النبي ﷺ

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من صلّى عليَّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً) .

تخريج الحديث

أخرجه : الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة ٢٨٨/١ رقم ٣٨٤ .

الراوي الأعلى للحديث

راوي الحديث هو الإمام الحبر العابد عبد الله بن عمرو بن العاص أبو محمد القرشي السهمي كان اسمه العاص فأسماه النبي ﷺ عبد الله ، أسلم قبل أبيه وكان أبوه يكبُرُه باثنتي عشرة سنة فقط ، هاجر إلى المدينة ولازم النبي ﷺ يسمع منه ويكتب أحاديثه وقال له : يا رسول الله أكتب ما أسمع منك ؟ فقال له النبي ﷺ : " نعم " فقال له عبد الله فى الرضا والسُخط ؟ قال " نعم فإنه لا ينبغى لي أن أقول فى ذلك إلا حقاً " [1] .

فكان يكتب كل ما يسمعه من فم النبي ﷺ فى صحيفة خاصة به .

قال عبد الله : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله

[1] أحمد فى المسند ٤٠٠/٦ رقم ٦٩٣٠ ، وصححه الشيخ أحمد شاكر .

بشرٌ يتكلم فى الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : " اكتب فوالذى نفسي بيده ما خرج منى إلا حق " .[١]

ولذلك قال حافظ الإسلام وراوية الصحابة أبو هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أحداً أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كـان يكتب ولا أكتب .[٢]

وكان شديد الاجتهاد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل خاصةً بعد مـا أوصاه رسول الله ﷺ قائلاً : " يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل " [٣] فاعتزل النساء وسرد الصيام حتى إن أباه زوَّجه امرأةً من قريش فجعل لا يقربها لانشغاله بالعبادة فدخل عمرو بن العاص عليها فسألها عن ابنـه فقالت له نعم الرجل هو لم يُفتِّش لنا كنفاً ولم يعرف لنا فراشاً فأقبل عليه أبـوه يعنِّفه ويوبِّخه ويلومه حتى قال له : أنكحتك امـرأةً مـن قـريش ذات حسـب فعضلتها وفعلت وفعلت ثم ذهب إلى النبي ﷺ واشتكى عبد الله له فأرسـل إليـه رسول الله ﷺ وقال له : " يا عبد الله ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ " فقلت : بلى يا رسول الله قال : " فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليـك حقـاً وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فـإن ذلك صيام الدهر كله " فشدَّدت فشدَّد عليَّ قلت : يا رسول الله إنـي أجـد قـوة قال : " فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه " قلت : وما كـان

---

[١] أبو داود كتاب العلم باب فى كتاب العلم ٣١٧/٣ رقم ٣٦٤٦ ، وأحمد فـى المسـند ٦٨/٦ رقـم ٦٥١٠ ، وصححه الشيخ أحمد شاكر .

[٢] البخاري كتاب العلم باب كتابة العلم ٢٤٩/١ رقم ١١٣ .

[٣] البخاري كتاب التهجد باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه ٤٥/٣ رقم ١١٥٢ ، مسـلم كتـاب الصيام باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به ٨١٣/٢ رقم ١١٥٩ .

صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال : " نصف الدهر " فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ [1] .

وله مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل حمل عن النبي ﷺ علماً جماً وبلغت جملة الأحاديث التي رواها عن رسول الله ﷺ : سبعمائة (٧٠٠) حديث اتفق الشيخان على سبعة (٧) منها وانفرد البخاري بثمانية (٨) أحاديث ومسلم بعشرين (٢٠) حديثاً كما روى عن أبي بكر وعمر ومعاذ وأبي الدرداء وغيرهم وروى عنه من الصحابة : ابن عمر وأبو أمامة والمسور بن مخرمة وأنس بن مالك وروى عنه خلق كثير من التابعين من أشهرهم : حفيده شعيب ابن محمد وسعيد بن المسيب وعكرمة وعطاء بن السائب ومسروق والشعبي وطاووس ومجاهد والحسن البصري ووهب بن منبه وغيرهم . ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية انحاز لصف معاوية رغم أنه كان يرى الحق مع علي ولكنه فعل ذلك طاعةً لأبيه لأن أباه شكاه إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : " أطع أباك مادام حياً " [2] فكان مع معاوية دون أن يقاتل وكان يقول : مالي ولقتال المسلمين لوددت أني مت قبلها بعشرين سنة أما والله على ذلك ما ضربت بسيف ولا رميت بسهم .[3]

وكانت له صحيفة يكتب الأحاديث فيها وكان شديد الاعتزاز بها فكان يقول : إن هذه الصحيفة الصادقة التي سمعتها من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه

---

[1] البخاري كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم ٢٥٦/٤ رقم ١٩٧٥ ، مسلم كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به ٨١٣/٢ رقم ١١٥٩ .

[2] أحمد في المسند ١٠٧/٦ رقم ٦٥٣٨ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[3] سير أعلام النبلاء ٩٢/٣ .

أحد فإذا سلم لي كتاب الله وهذه الصحيفة والوهط – بستان عظيم بالطائف – لم أبال ما ضيعت الدنيا .[١]

وكان فى أواخر حياته يغلق عليه بابه ويكثر البكاء حتى ذهب بصره توفي بمصر سنة خمسٍ وستين وهو يومئذ ابن اثنتين وسبعين سنة ودفن بداره رضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

من صلّى عليَّ : أصل الصلاة فى لغة العرب الدعاء ثم استخدمها الشرع فى العبادة المعروفة والمراد بالصلاة هنا : المعنى اللغوي وهو الدعاء بصيغة من صيغ الصلاة المعروفة .

صلاةً : أي واحدة وهو ما يشير إليه إفرادها .

صلى الله عليه بها : أي بسببها .

عشراً : من باب مضاعفة الحسنات قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [٢] والصلاة من الله ثناء ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين دعاء .

المعنى الإجمالي للحديث

هذا الحديث يلفت نظر المسلم إلى أمر مهم ويرشده إلى طريق الخير ويدله على طريق السعادة ورفعة الذكر فإن كان لابد لكل نعمة من شكر ولكل منة من ثناء فأعظم النعم عند المسلم على الإطلاق هي نعمة الهداية إلى معرفة الله

---

[١] سير الأعلام ٨٩/٣ .

[٢] الأنعام : ١٦٠.

وطاعته ، نعمة الإسلام التي أرشدنا إليها ودلنا عليها سيد الأنبياء محمد ﷺ فشكره واجب ومعرفة فضله حتم والثناء عليه لازم فإن الله نجانا من النار وهدانا به إلى طريق الجنة ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله فأعظم الخلق منة وفضلاً على المسلم هو النبي محمد ﷺ ولذلك كان لابد من معرفة قدره وإتباع شرعه ومحبة مرافقته وكثرة الدعاء له والثناء عليه وإذا كان رب العالمين قد أعلى قدره ورفع ذكره وجعل له لسان صدق فى الأولين والآخرين وأخبرنا أنه وملائكته يصلون عليه وصلاة الله على النبي ﷺ تعنى ذكره بالثناء فى الملأ الأعلى وصلاة ملائكته تعني : دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى ويا لها من مرتبة ومكانة فالكون كله الخالق والمخلوق يردد الثناء على النبي محمد ﷺ ويشرق به الكون وتتجاوب به أركانه وما من نعمة تفضل هذه النعمة فالواجب على أتباع دينه وأفراد أمته أن يكثروا من الصلاة عليه التي تعنى الدعاء له والثناء عليه وكلما أكثر المسلم من ذلك فاز بالقرب منه يوم القيامة وكان متناغماً متناسقاً مع الكون وضاعف الله له الأجر وأجزل له الثواب وأعطاه بصلاته على النبي ﷺ مغفرة ورحمة وذكراً فى الملأ الأعلى وأعطاه بالحسنة عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء.

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

كلمة الصلاة تعنى فى أصل وضعها اللغوي : الدعاء ولكن الشرع يستخدمها غالباً فى غير ما وضعت له فإذا أطلق الشارع كلمة الصلاة فإنه يريد : العبادة المعروفة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم .

وقد جاء في القرآن قول الله تعالى : " هو الذي يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور " [١] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [٢] وقد اختلف العلماء في تحديد المراد بالصلاة في هاتين الآيتين فقال ابن عباس : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار وقال الضحاك بن مزاحم : صلاة الله رحمته وفي رواية عنه : مغفرته وصلاة الملائكة الدعاء . وتعقب بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة فقال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [٣] وأحسن ما قيل هنا ما جاء عن أبي العالية قال : صلاة الله على نبيه ﷺ ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة عليه الدعاء له .[٤]

والمراد بصلاة الله على خلقه : مغفرته لهم ومعنى صلاة الملائكة عليهم الاستغفار لهم والدعاء لهم .

فإن قيل : جاء في القرآن أن الله يصلى على النبي ﷺ ويصلي على المؤمنين وإجماع الأمة منعقد على أن صلاة الله على نبيه ﷺ فيها من التعظيم له والتنويه بشأنه ما ليس في غيرها وما لا يناسب غيره فما هو الفرق بين الصلاتين ؟ قيل : صلاة الله على خلقه تكون عامة وتكون خاصة فصلاة الله على الأنبياء صلاة خاصة وتعني : الثناء عليهم والتعظيم لهم وصلاة الله على غيرهم تعني : رحمته بهم ومغفرته لذنوبهم وصلاة الله على نبيه محمد ﷺ صلاة

---

[١] الأحزاب : ٤٣ .
[٢] الأحزاب : ٥٦ .
[٣] البقرة : ١٥٧ .
[٤] البخاري كتاب التفسير باب " إن الله وملائكته يصلون على النبي " الآية ٣٩٢/٨ .

خاصة تعنى زيادة التشريف وعلو القدر قال القشيري : الصلاة على النبــي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمة وعلى من دون النبي ﷺ رحمة .

وقال الحليمى : معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه فمعنى قولنا : اللهــم صلّ على محمد ﷺ : عظِّم محمداً ﷺ والمراد : تعظيمه فى الدنيا بإعلاء ذكــره وإظهار دينه وإبقاء شريعته وفى الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه فى أمته وإبداء فضيلته بالمقام المحمود وبهذا التقرير يظهر الفرق بين صلاة الله على نبيــه ﷺ وصلاته على سائر خلقه .

الفائدة الثانية :

من المتفق عليه عند جميع المسلمين أن الله أمرنا بالصلاة والسلام علــى نبيه محمد ﷺ ووعدنا على ذلك عظيم الأجر وكثير الثواب ولكن العلماء اختلفوا فيما بينهم حول حكم هذه الصلاة وحقيقة هذا الأمر ونستطيع أن نحصر أقوالهم في عشرة أقوال :

الأول : أنها واجبة فى الجملة من غير حصر عددٍ معين وأقل ما يحصــل به الإجزاء مرة واحدة فى العمر وقد ادَّعى ابــن القصـــار مــن المالكية الإجماع على ذلك .

الثاني : أنها واجبة فى العمر مرة بحيث تؤدَّى في الصلاة أو في غيرهــا وهى مثل كلمة التوحيد وهو قول أبي بكر الرازي وابــن حــزم وغيرهما قال القرطبى : لا خلاف فى وجوبها فى العمــر مــرة وأنها واجبة فى كل حين وجوب السنن المؤكدة . [١]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥٣١٤/٨ ، ٥٣١٥ .

الثالث : أنها واجبة فى التشهد الأخير فى الصلاة وهو قول الشافعي وأحمد .

الرابع : أنها واجبة فى التشهد الأوسط والأخير وهو قول الشعبي وإسحاق ابن راهويه .

الخامس: أنها واجبة فى الصلاة من غير تعيين محل وهو قول أبي جعفر الباقر .

السادس : يجب الإكثار منها من غير تقييدٍ بعدد وهو قول أبي بكر بن بكير من المالكية .

السابع : أنها واجبة فى كل مجلس مرةً واحدة حتى لو تكرر ذكره مراراً حكاه الزمخشرى .

الثامن : أنها واجبة فى كل دعاء حكاه الزمخشرى أيضاً .

التاسع : أنها واجبة كلما سمع الإنسان اسم النبي ﷺ قاله : الطحاوى وجماعة من الحنفية والحليمي وجماعة من الشافعية وجماعة من المالكية والحنابلة ، وقال ابن العربي والزمخشري : إنه الأحوط وقد استدلوا لصحة مذهبهم بأدلة عديدة منها :

أ- الأحاديث الكثيرة التي ثبت فيها الحكم على تارك الصلاة على رسول الله ﷺ إذا سمع اسمه بالرغم والإبعاد والشقاء والوصف بالبخل والجفاء وهذا يقتضى الوعيد والوعيد على الترك من علامات الوجوب .

ب- أن معنى الصلاة على النبي ﷺ مكافأته بالدعاء له نظير إحسانه وإحسانه مستمر فيتأكد كلما ذكر اسمه .

ج- قولــه تعــالى : ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [١] قالوا : فلو كان إذا ذكر لا يصلى عليه لكــان كآحــاد الناس .

وقد رتَّب الحافظ الهيثمي بناءاً على هذا القول أن ترك الصلاة على رسول الله ﷺ عند سماع ذكره كبيرة فقال : عدُّ هذا كبيرة هو صريح الأحاديث لأنه ﷺ ذكر فيها وعيداً شديداً كدخول النار وتكرر الدعاء من جبريل والنبي ﷺ بالبعــد والسحق ومن النبي ﷺ بالذل والهوان والوصف بالبخل بل بكونه أبخل النــاس وهذا كله وعيد شديد جداً فاقتضى أن ذلك كبيرة فعلى القول بالوجوب يُمكن أن يُقال : إن ترك الصلاة عليه ﷺ عند سماع ذكره كبيرة . [٢]

العاشرة : أنها مستحبة وهذا مذهب محمد بن جريــر الطبــري وادَّعــى الإجماع عليه وقد ردَّ أصحاب هذا المذهب على القائلين بالوجوب بعدة أجوبة منها :

أ- أن هذا القول لا يُعرف عن أحدٍ من الصحابة أو التابعين فهو قــولٌ مخترع فصيغة الأمر هنا لا تقتضي الوجوب لاتفاق جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن ذلك غير لازم فرضــاً حتــى يكون تاركه عاصياً .

ب- لو كانت الصلاة على النبي ﷺ واجبة كلما ذكر اسمه ﷺ للزم المؤذن إذا أذن وكذا سامعه وللزم القارىء إذا مرَّ ذكره في القرآن وللــزم الداخل في الإسلام إذا تلفظ بالشهادتين وكان في ذلك مــن المشــقة

---

[١] النور : ٦٣ .

[٢] الزواجر عن اقتراف الكبائر للحافظ الهيثمي ١٩٢/١ .

والحرج ما جاءت الشريعة السمحة بخلافه ولكان الثناء على الله عزَّ وجل كلما ذُكر أحق بالوجوب ولم يقولوا به .

ج- أجابوا عن الأحاديث الواردة فى ذم التارك لذلك بأنهـا خرجـت مخرج المبالغة فى تأكيد ذلك وطلبه وفى حق من اعتاد ترك الصلاة عليه حتى أصبحت عادة له وفى حق من ترك ذلك على وجهٍ يُشعر بعدم تعظيمه .[١]

والحقيقة أن للصلاة على النبي ﷺ من الفضل والثواب ما يجعل المسلم راغباً فى ذلك حريصاً عليه وهذا القدر متفقٌ عليه بـين العلمـاء ولكـنهم اختلفوا فى الحكم والراجح أنها مستحبة على الدوام وتزداد استحباباً وتأكُّـداً إذا ذُكر اسمه ﷺ بحيث يكون التارك لذلك تاركاً للأولى ومفرِّطاً ومقصِّـراً فى حق نفسه ورسوله ﷺ .

الفائدة الثالثة :

وردت أحاديث كبيرة تدل على فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وكثـرة ثوابها وعظيم الأجر المترتب عليها وأنها طريق إلى صلاة الله على عباده وقـد رأيتَ أن صلاة الله على عباده تعنى رحمته بهم ومغفرته لذنوبهم فعن أنس بـن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : " من صلَّى عليَّ من أمتي صلاةً مخلصـاً مـن قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات وكتب لـه بهـا عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات " [٢] وفى رواية عنه قال : قـال رسـول الله ﷺ : " من صلّى عليّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه عشراً ومن صلّى علـيّ

[١] فتح الباري ١٥٧/١١ .

[٢] النسائي كتاب السهو باب الفضل فى الصلاة على النبي ﷺ ٥٠/٣ ، أحمـد فـى المسـند ٢٦٤/١١ رقـم ١٣٦٨٩ وإسناده صحيح ، وقال ابن حجر: رواته ثقات فتح الباري ١٧٢/١١ .

عشراً صلى الله عليه مائة ومن صلّى عليّ مائة كتب الله بين عينيه براءةً من النفاق وبراءةً من النار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء " [١] .

وأولى الناس بالنبي ﷺ وأقربهم منه منزلة أكثرهم صلاة عليه فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة " .[٢]

وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ: " صلاة أمتي تعرض عليّ في كل يوم جمعة فمن كان أكثرهم عليّ صلاةً كان أقربهم منى منزلة ".[٣]

وقد وصف النبي ﷺ من سمع اسمه ثم لم يُصلِّ عليه بالبخل فقال : " البخيل من ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ " [٤] ووجه وصفه بالبخل : أنه بامتناعه من الصلاة عليه قد شحَّ وامتنع من أداء حقٍ يتعيَّن عليه أداؤه امتثالاً للأمر ولما فيه من مكافأةٍ جزئية لمن كان سبباً فى سعادته الأبدية بل فى الحقيقة إنما شح وبخل عن نفسه ومنعها أن يصل إليها عطاء عظيم ممن يُعطي بلا حساب ولا تنقص خزائنه بالعطاء فبهذا الشح تفوته تلك الكنوز التي لولاه لكان يكتالها بالمكيال الأوفى من غير أدنى مشقة فلا أبخل من هذا والنبي ﷺ يستحق من أمته

---

[١] الطبراني فى المعجم الأوسط ١٨٨/٧ رقم ٧٢٣٥ ، وفى المعجم الصغير ١٢٦/٢ رقم ٨٩٩ ، وقال الهيثمى : فيه إبراهيم بن سالم لم أعرفه وبقية رجاله ثقات معجم الزوائد ١٦٣/١٠ ، وراجع : الترغيب والترهيب ٣٢٣/٢ .

[٢] الترمذي كتاب الوتر باب ما جاء فى فضل الصلاة على النبي ﷺ ٢٧/٢ رقم ٤٨٤ وقال : إسناده حسن .

[٣] البيهقى فى السنن الكبرى ٢٤٩/٣، وفى شعب الإيمان ١١٠/٣ رقم ٣٠٣٢ قال المنذري : إسناده حسن إلا أن مكحولاً قيل لم يسمع من أبى أمامة الترغيب والترهيب ٣٢٨/٢ ، وقال العجلونى : إسناده حسن كشف الخفاء ١٥١/١ .

[٤] أحمد فى المسند ٣٥١/٢ رقم ١٧٣٦ ، الحاكم فى المستدرك ٥٤٩/١ وصححه ووافقه الذهبي ، وابن السني فى عمل اليوم والليلة رقم ٣٧٦ .

أن يُصلُّوا عليه فمن أمسك منهم عنها كان أشـــر الممســـكين وأشـــح الـــبخلاء المحرومين فيُخشى عليه المقت والبوار .

وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا على من سمع اسمه ثم لم يصلِّ عليه فدعا عليه بالذل والهوان والحقارة والصغار فقال : " رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يصلّ عليّ " [١] .

ودعا عليه بالإبعاد والحرمان من الرحمة فعن جابر بن سمرة قال : قـــال رسول الله ﷺ : " من ذُكرت عنده ولم يصلّ عليّ فمات فـــدخل النـــار فأبعـــده الله " [٢].

وعن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله ﷺ : " إن جبريل عرض لـــي فقال : بعد من ذكرت عنده فلم يصلّ عليك قلت آمين " [٣] .

وقد دعا عليه بالشقاء فعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : " شـــقي عبـــد ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليّ " [٤] .

وكما توعَّد النبي ﷺ تارك الصلاة عليه فقد وعد من يكثر الصـــلاة عليـــه بكفاية الهموم ومغفرة الذنوب فعن أُبيّ بن كعب قال : كـــان رســـول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال : " يا أيها الناس اذكروا الله جـــاءت الراجفـــة تتبعهـــا الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه " قلت : يا رسول الله إني أكثـــر

---

[١] الترمذي كتاب الدعوات باب قول رسول الله ﷺ رغم أنف رجل ٣٢٠/٥ رقم ٣٥٥٦ وحسنه ، وأحمـــد فـــى المسند ٢٥١/٧ رقم ٧٤٤٤ وصححه أحمد شاكر .

[٢] الطبراني فى المعجم الكبير ٢٤٣/٢ رقم ٢٠٢٢ .

[٣] رواه الحاكم فى المستدرك ١٧٠/٤ رقم ٧٢٥٧ وصححه ، وقال الهيثمى : رجاله ثقـــات مجمـــع الزوائـــد ١٦٦/١٠ ، وذكره الكتاني فى نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص ١٤٢ رقم ١٢٦ .

[٤] البخاري فى الأدب المفرد ٢٢٤/١ رقم ٦٤٤ .

الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ فقال : " ما شئت " قلت : الربع ؟ قال : " ما شئت فإن زدت فهو خير لك " قلت : فالنصف ؟ قال : " ما شئت فإن زدت فهو خير لك " قلت : فالثلثين ؟ قال : " ما شئت فإن زدت فهو خير لك " قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : إذاً تُكفى همك ويغفر لك ذنبك " (١) .

ووجه كفاية الهم ومغفرة الذنب بالاشتغال بالصلاة على رسول الله ﷺ اشتمالها على فوائد عديدة منها :-

أ - امتثال أمر الله تعالى .

ب - ذكر الله وتعظيمه وتعظيم رسوله ﷺ .

وقد جاء فى الحديث القدسي " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " (٢) . ففي الحقيقة لم يفت بذلك الذكر شيء على المصلي بل حصل له بتعرضه بذلك الثناء الأعظم أفضل ما كان يدعو به لنفسه وحصل له مع ذلك صلاة الله وملائكته مع ما انضمَّ لذلك من الثواب الذي لا يوازيه ثواب فأي فوائد أعظم من هذه الفوائد ومتى يظفر المُتعبد بمثلها فضلاً عن أنفس منها وأنَّى يوازي دعاؤه لنفسه واحدة من تلك الفضائل التي ليس لها مماثل ببركتة ﷺ ويكفي المصلي على الرسول ﷺ شرفاً وفضلاً أن الله يصلي عليه بأعداد مضاعفة كما معنا فى الحديث وكما جاء عن عبد الرحمن بن عوف قال خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه فجئت أنظر فرفع رأسه فقال : " مالك يا عبد الرحمن ؟ " قال : فذكرت ذلك له قال : فقال : " إن جبريل قال لي : ألا يسرُّك أن الله

---

(١) الترمذي كتاب صنفه القيامة ٢٠٧/٥ رقم ٢٤٥٦ وقال حديث حسن صحيح .

(٢) البخاري فى خلق أفعال العباد ص ٦٩ ، والترمذي بلفظ من شغله القرآن وذكري كتاب فضائل القرآن ٤٢٥/٤ رقم ٢٩٣٥ وقال : حديث حسن .

عز وجل يقول : من صلَّى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه " . [١] وقال عبد الله بن عمرو : من صلَّى على النبي ﷺ صلاةً واحدةً صلى الله عليه وملائكته سبعين صلاة فليُقلّ عبدٌ من ذلك أو ليُكثر [٢] . وعن أبى طلحة الأنصاري أن رسول الله ﷺ جاء ذات يومٍ والسرور فى وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا لنرى السرور فى وجهك فقال : " إنه أتاني الملك فقال يا محمد أما يُرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يُصلِّي عليك أحدٌ من أمتك إلا صليت عليه عشراً " [٣] .

وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمدٍ أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ثم أمر بها المؤمنين وسائر العبادات ليس كذلك .

الفائدة الرابعة :

للصلاة على النبي ﷺ فضل كبير وثواب عظيم في كل وقت ولكن هذا الثواب يزداد ويعظُم فى أوقاتٍ معيَّنة منها :

أ- يوم الجمعة ففي الحديث عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : " إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ " قالوا : يا رسول الله وكيف تُعرض صلاتنا

---

[١] أحمد فى المسند ٣٠٨/٢ رقم ١٦٦٢ وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[٢] أحمد فى المسند ١٧٦/٦ رقم ٦٦٠٥ وإسناده حسن راجع : مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٠ ، والترغيب والترهيب ٢٧٩/٢ .

[٣] النسائي كتاب السهو باب فضل التسليم على النبى ﷺ ٤٤/٣ ، أحمد فى المسند٥٣٤/١٢ رقم ١٦٣١٣ وإسناده ضعيف .

عليك وقد أرمت – أي بليت – قال : " إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء " [١].

ب– عقب إجابة المؤذن فعن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي ﷺ يقــول : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة فــي الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة " [٢] .

ج– أول الدعاء وأخره فعن فضالة بن عبيد قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: " عجل هذا " ثم دعاه فقال له أو لغيره : " إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه والثناء عليه ثم يصلِّي على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء " [٣] .

وقال عمر بن الخطاب : إن الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ﷺ [٤] .

---

[١] أحمد في المسند ٤٧٤/١٢ رقم ٦١٠٧ ، أبو داود كتاب الصلاة باب فضل يــوم الجمعــة وليلــة الجمعــة ٢٧٤/١ ، والحاكم في المستدرك ٥٦٠/٤ وصححه ووافقه الذهبي .

[٢] مسلم كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ٢٨٨/١ رقم ٣٨٤ .

[٣] أحمد في المسند ١٧٧/١٧ رقم ٢٣٨٢١ ، والترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في جامع الــدعوات عــن رسول الله ﷺ ٢٩١/٥ رقم ٣٤٨٨ وقال : حديث حسن صحيح .

[٤] الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ٢٨/٢ رقم ٤٨٦ .

وقال علي بن أبي طالب : كل دعـاء محجـوب حتـى يُصـلَّى علـى محمدٍ ﷺ (١) .

وقال أبو سليمان الدارانى : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبـدأ بالصـلاة على النبي ﷺ ثم يسأل الله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإن الله تعـالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما (٢) .

د- عند الجلوس فى أي مجلس وقبل القيام منه فعن أبى سعيد الخدري قال : ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون علـى النبـي ﷺ إلا كـان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون مـن الثـواب (٣) .
وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم ﷺ إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم " (٤) .

هـ- عند دخول المسجد وعند الخروج منه فعن فاطمة بنت رسـول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلَّى على محمدٍ وسلم ثـم قال : " اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك " وإذا خرج صلَّى

---

(١) الطبراني فى المعجم الأوسط ٢٢٠/١ رقم ٧٢١ ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمـع الزوائـد ٢٤٧/١٠ رقم ١٧٢٧٨ ، والبهيقى فى شعب الإيمان ٢١٦/٢ رقم ١٥٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥٣١٧/٨ .

(٣) النسائي فى عمل اليوم والليلة رقم ٤٠٩ .

(٤) أحمد فى المسند ٤٣٤/٩ رقم ١٠٢٢٦ ، والترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فـى القـوم يجلسـون ولا يذكرون الله ٢٤٧/٥ رقم٣٣٩١ وقال : حسن صحيح .

على محمد وسلم ثم قال : " الله اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك " [١] .

و- في التشهد الأخير في الصلاة فعن كعب بن عجرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : " اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد " [٢] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة وقد ذهب الشافعي وأحمد إلى وجوب الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير وذهب جمهور العلماء إلى أنها سنة مستحبة .

ز- الصلاة عليه في صلاة الجنازة فإن من السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ثم يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية ثم يدعو للميت بعد الثالثة ثم يقول بعد الرابعة : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله .

ح- في دعاء القنوت فعن الحسن بن علي قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر " اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا

---

[١] أحمد في المسند ٢١٩/١٨ رقم ٢٦٢٩٩ ، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء ما يقول عند دخول المسجد ٣٣٩١/١ رقم ٣١٤ وقال : حديث حسن .

[٢] البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى : " واتخذ الله إبراهيم خليلاً " ٤٦٩/٦ رقم ٣٣٧٠ ، مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ٣٠٥/١ رقم ٤٠٦ .

يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت تباركت ربنا وتعاليت وصلى الله على محمد ﷺ " (١) .

الفائدة الخامسة :

الثابت فى القرآن والسنة أن الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ وأن الله أمر المؤمنين بالصلاة على نبيه محمد ﷺ ولكن هل تجوز الصلاة على غيره من الأنبياء ؟ ذهب فريق من العلماء إلى القول باختصاص النبي ﷺ بذلك ومنع الصلاة على غيره من الأنبياء قال ابن عباس : ما أعلم الصلاة تنبغي على أحدٍ إلا على النبي ﷺ ولكن للمسلمين والمسلمات الاستغفار .(٢)

وحُكي هذا القول عن مالك وقال : ما تعبدنا به .

وذهب جمهور العلماء إلى مشروعية الصلاة على الأنبياء جمعياً قال عياض :عامة أهل العلم على الجواز وهو قول المحققين من المتكلمين والفقهاء . وحكى عن مالك أنه يجيز الصلاة على الأنبياء فقط فقال : أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدَّى ما أمرنا به ، وقال سفيان الثوري : يكره أن يصلى إلا على نبي .

وأما الصلاة على غير الأنبياء فللعلماء فيها مذاهب :

(١) أنها تجوز مطلقاً وهو مذهب أحمد وجماعة ومال إليه البخاري واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ (٣)، وبقوله تعالى :

---

(١) أبو داود كتاب الصلاة باب القنوت فى الوتر ٦٤/٢ رقم ١٤٢٥ ، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء فى القنوت فى الوتر ١١/٢ رقم ٤٦٣ وقال : هذا حديث حسن .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣٠٨٨/٥ .

(٣) الأحزاب : ٤٣ .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [١] ، وبقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [٢] وبحديث عبد الله ابن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللهم صلِّ عليهم " فأتاه أبيّ بصدقته فقال : " اللهم صلِّ على آل أبى أوفى " [٣] . وبحديث جابر أن امرأته قالت يا رسول الله صلي عليّ وعلى زوجي فقال: " صلَّى الله عليك وعلى زوجك " [٤] . قال البيهقي : يُحمل قول ابن عباس بالمنع إذا كان على وجه التعظيم لا ما إذا كان على وجه الدعاء بالرحمة والبركة .

(٢) أن الصلاة على غير الأنبياء لا تجوز استقلالاً وإنما تجوز تبعاً فيما ورد به النص أو أُلحق به وهو قول الشافعي واختاره القرطبي من المالكية وأبو المعالي من الحنابلة واختاره أيضاً ابن تيمية .

(٣) قال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة أما إذا كانت على سبيل التبعية فلا بأس بذلك كما يُقال اللهم صلِّ على محمد وآله وأزواجه وذريته ، قال ابن كثير : وهذا جائز بالإجماع [٥] . قال ابن القيم : المختار أن يُصلى على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي ﷺ وآله وذريته وأهل الطاعة على سبيل الإجمال وتكره فى غير الأنبياء

---

[١] التوبة : ١٠٣ .

[٢] البقرة : ١٥٧ .

[٣] البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية ٥١٣/٧ رقم ٤١٦٦ ، مسلم كتاب الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقة ٧٥٦/٢ رقم ١٠٧٨ .

[٤] أحمد فى المسند ١١٦/١٢ رقم ١٥٢١٨ ، أبو داود كتاب الصلاة باب الصلاة على غير النبي ﷺ ٩٠/٢ رقم ١٥٣٣ .

[٥] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٢/٣ .

لشخص مفرد بحيث يصير شعاراً ولاسيَّما إذا ترك فى حــق مثلــه أو أفضل منه كما يفعله الروافض فلو اتفق وقوع ذلك مفرداً فــى بعــض الأحايين من غير أن يتخذ شعاراً لم يكن به بأس ولهذا لم يرد فى حــق غير من أمر النبي ﷺ بقول ذلك لهم وهم من أدَّى زكاته إلا نادراً [(١)] .

وقال هذا الفريق : هذا النوع مأخوذٌ من التوقيف واستعمال السلف ولــم ينقل استعمالهم ذلك بل خصوا به الأنبياء كما خصوا الله تعالى بالتقديس والتسبيح فيقال : قال الله سبحانه وتعالى وقال الله تعالى وقال عز وجل ونحو ذلك ولا يقال قال النبي ﷺ عز وجل وإن كان عزيزاً جلــيلاً ولا نحو ذلك . وأجابوا عن أدلة المجيزين لذلك مطلقاً واستدلالهم بــوروده فى الحديث بأن لصاحب الحق أن يتفضَّل من حقه بما يشاء وليس لغيره أن يتصرَّف إلا بإذنه ولم يثبت عنه إذن فى ذلك ، قال ابــن حجــر : ويقوي المنع بأن الصلاة على غير النبي ﷺ صــارت شــعاراً لأهــل الأهواء يصلون على من يعظمونه من أهل البيت وغيرهم وهل المنــع فى ذلك حرام أو مكروه أو خلاف الأولى ؟ الصحيح أنه مكــروه [(٢)] .

قال ابن حجر : سُئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون الســلام وأمــر المؤمنين بها وبالسلام فقلت : يُحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانقياد فأُمر به المؤمنون لصحتهما منهم والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد فلم يضف إليهم دفعاً للإيهام والله أعلم [(٣)] .

---

(١) فتح الباري ١١/١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) فتح الباري ٨/٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٣) فتح الباري ٨/١٩٣ .

الدروس المستفادة من الحديث

١- فضل الصلاة على رسول الله ﷺ ومعرفة قدر ما لها من أجر وثواب .

٢- إن صلاة الله على عباده رحمة بهم وصلاة الملائكة استغفار ودعاء .

٣- أنه يُستحب لمن رغَّب غيره في خير أو دعاه إلى فعل طاعة أن يذكر له شيئاً من فوائدها لينشطوا بذلك لهذا العمل .

٤- أن للصلاة على رسول الله ﷺ أوقاتاً تكون واجبة فيها أو شديدة الاستحباب وعلى المسلم أن يحرص على الصلاة على الرسول ﷺ فيها .

فضل الدعاء

عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء :
(اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير) .

تخريج الحديث

أ – البخاري كتاب الدعوات باب قول النبي ﷺ : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ١١/١٩٩ رقم ٦٣٩٨ ورقم ٦٣٩٩ .

ب – مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في الأدعية ٤/٢٠٨٧ رقم ٢٧١٩ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الإمام الكبير والصحابي الجليل عبد الله بن قيس بن سليم أبو موسى الأشعري الفقيه المقرىء أسلم قديماً بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه فظل يدعوهم إلى الإسلام ثم قدم المدينة بعد فتح خيبر وقد صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب القادمة من الحبشة فقدموا جميعاً .

استعمله النبي ﷺ على اليمن واستعمله عمر على البصرة وعثمان على الكوفة ثم كان أحد الحكمين بين علي ومعاوية بصفين ثم اعتزل الفريقين .

شهد خيبر وما بعدها وجاهد مع النبي ﷺ حتى توفَّاه الله وقرأ عليه القرآن وحمل عنه علماً كثيراً حتى إنه كان يُفتي في حياته .

قال صفوان بن سليم: لم يكن يفتي في المسجد زمن رسول الله ﷺ غير هؤلاء : عمر وعلي ومعاذ وأبي موسى [١] . وكان أحد قضـــاة الأمـــة ، قـــال الشعبي : قضاة الأمة : عمر وعلي وزيد وأبو موسى [٢].

ولم يكن في الصحابة أحدٌ أحسن صوتاً منه فعن بريدة بن الحصيب قال : خرجت ليلةً من المسجد فإذا بالنبيﷺ عند باب المسجد قائم وإذا رجل يصـــلّي فقال لي : " يا بريدة أتراه يرائي " ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : " بـــل هـــو مؤمن منيب لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود " فأتيته فإذا هو أبو موســـى فأخبرته [٣] .

قال أبو عثمان النهدي : ما سمعت مزماراً ولا طنبوراً ولا صنجاً أحســـن من صوت أبي موسى إن كان ليصلي بنا فنودُّ أنه قرأ البقرة [٤] .

ولذلك كان سيدنا عمر إذا جلس عنده أبو موسى يقول له : ذكِّرنا ربنا أو شوّقنا إلى ربنا فيقرأ عنده [٥] .

وكان إذا قرأ اجتمع عليه الرجال والنساء لحسن صوته ، فعن أنس أن أبا موسى قرأ ليلةً فقمن أزواج النبي ﷺ يستمعن لقراءته فلما أصبح أخبرته بـــذلك فقال : لو علمت لحبرت تحبيراً ولشوقت تشويقاً ، وكان أبو موسى صوّاماً قوّاماً

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٣ .

[٢] سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٣ .

[٣] البخاري كتاب فضائل القرآن باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٧٠٩/٨ رقم ٥٠٤٨ ، مسلم كتاب صـــلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٥٤٦/١ رقم ٧٩٣ .

[٤] طبقات ابن سعد ١٣٠/٤ .

[٥] طبقات ابن سعد ١٣٢/٤ .

ربَّانياً زاهداً عابداً ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر لـم تغيِّـره الإمارة ولا غيَّرته الدنيا [١] .

ومناقبه وفضائله كثيرة فعنه أن رسول الله ﷺ قال : " اللهم اغفر لعبد الله ابن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً " .[٢] وعنه قـال : كنـت عنـد رسول الله ﷺ بالجعرانة – مكان بين مكة والطائف – فأتى أعرابي فقـال : ألا تنجز لي ما وعدتني ؟ قال : " أبشر " قال : قد أكثرت من البشرى فأقبل رسول الله ﷺ عليّ وعلى بلال فقال : " إن هذا قد ردّ البشرى فاقبلا أنتما " فقالا : قبلنا يا رسول الله فدعا بقدحٍ فغسل يديه ووجهه فيه ومجّ فيه ثم قال : " اشربا منـه وأفرغا على رؤوسكما ونحوركما " ففعلا فنادت أم سلمة وراء الستر أن فضّـلا لأمكما فأفضلا لها منه [٣].

وسُئل عنه علي بن أبي طالب فقال : صُبغ فى العلم صبغة [٤] .

وقال الحسن البصري : ما قدم الكوفة راكبٌ خير لأهلها من أبي موسى[٥] وقال الأسود بن يزيد لم أر بالكوفة أعلم من علي وأبي موسى [٦] .

ظلّ أبو موسى يُعلِّم ويُقرىء وكان هو الذي فقّه أهل البصـرة وأقـرأهم القرآن فلما شعر بدنو أجله اجتهد في العبادة اجتهاداً شديداً وكـان لا يُـرى إلا

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣٩٦/٣ .

[٢] البخاري كتاب المغازي باب غزوة أوطاس ٦٣٧/٧ رقم ٤٣٢٣ ، مسلم كتاب الفضائل باب من فضائل أبي موسى ١٩٤٣/٤ رقم ٢٤٩٨ .

[٣] البخاري كتاب المغازي باب غزوة الطائف ٦٤٢/٧ رقم ٤٣٢٨ ، مسلم كتاب فضائل الصـحابة بـاب مـن فضائل أبي موسى ١٩٤٣/٤ رقم ٢٤٩٧ .

[٤] سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٣ .

[٥] سير أعلام النبلاء ٣٨٩/٣ .

[٦] سير الأعلام ٣٨٨/٣ .

صائماً فقيل له : لو أمسكت ورفقت بنفسك فيقول : إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقلّ من ذلك [١] .

روى أبو موسى عن النبي ﷺ ثلاثمائة وستون (٣٦٠) حديثاً اتفق الشيخان على تسعة وأربعين(٤٩) حديثاً منها وانفرد البخاري بأربعة (٤) أحاديث ومسلم بخمسة عشر (١٥) حديثاً وكان إماماً ربَّانياً .

روى الحديث أيضاً عن : الخلفاءَ الأربعة وابن مسعود ومعاذ وأُبي بن كعب وعمار وغيرهم وروى عنه كثير من الصحابة منهم : بريدة بن الحصيب وأبو أمامة الباهلي وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وطارق بن شهاب وغيرهم وروى عنه خلقٌ كثير من التابعين منهم : سعيد بن المسيب والأسود بن يزيد وزر بن حبيش وابنه أبو بردة وأبو عثمان النهدي وخلق كثيرغيرهم . توفي سنة أربعٍ وأربعين وقد جاوز الستين من عمره .

معاني المفردات

اغفر : أصل الغفر التغطية يقال : غفر الله لك غفراناً ومغفرة .

والمغفرة : إلباس الله تعالى العفو للمذنبين ومن أسمائه تعالى : الغفور والغفار ومعناهما : الساتر لذنوب عباده وعيوبهم المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم .

خطيئتي : الخطيئة هي المعصية والذنب وكذا يُقال لمن فعل غير الصواب أخطأ يقال أخطأ يُخطيء إذا سلك سبيل الخطأ عمداً أو سهواً .

إسرافي : الإسراف هو مجاوزة الحد فى كل شيء وغالباً ما يُقصد به : الإكثار من الذنوب والخطايا .

---

[١] سير الأعلام ٣/٣٩٣ .

جدي : الجد بكسر الجيم : ضد الهزل يقال جَدَّ يَجدُ جداً .

هزلي : الهزل ضد الجد والهزل واللعب من واد واحد .

كل ذلك عندي : أى موجود أو ممكن الوجود .

المعنى الإجمالي للحديث

يعلمنا النبي ﷺ فى هذا الحديث كيف ندعو الله عز وجل ويلفت نظرنا إلى أهمية الدعاء وفضله وكثرة ثوابه وأجره فيختار الجوامع من الدعاء ويسأل ربه عز وجل الخير كله عاجله وآجله ويستعيذه من الشر كله عاجله وآجله ويستغفره من جميع ذنوبه الظاهرة والباطنة .

وكان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بالليل والنهار فى السر والعلن بحيث جعل لكل حركةٍ ذكراً وفى كل وقتٍ دعاءً فى الصلاة وغيرها يستشعر معية الله وقربه ومنه فيدعوه تضرعاً وخفية ورغبة ورهبة ورجاءً وخوفاً ويعترف بين يديه بعبوديته وجهله وتقصيره وسهوه وهذا مطلق الحرية بالنسبة للإنسان فكلما استغرق فى عبوديته لربه كلما سما بها فى مدا رج الكمال ومراقي الحرية فيدعو ربه أن يغفر له جميع ذنوبه التي وقعت منه عمداً أو سهواً بعلمٍ أو بجهل جداً أو هزلاً سراً أو علناً مع أن الله عز وجل وعده أن يغفر له جميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ولكنه يدعو ربه لأن الدعاء عبادة وهو سلاح المؤمن وتعليماً لأفراد الأمة وإرشاداً لهم لطريق النجاة والنجاح فكل ذنب مُتوقع صدوره من العبد الجاهل الضعيف ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [1] .

والعفو والمغفرة مرجوّة من الخالق الرحمن الكريم فيعلم النبيﷺ المسلم أن يدعو ربه أن يغفر له ذنوبه كلها ما تقدم منها وما تأخر ما ظهر منها وما

---

[1] الأحزاب :٧٢ .

استتر فكل ذلك بقدر الله وهو عالم به أحصته ملائكته وهو غير خارج عن نطاق قدرته فهو المُقدِّم والمُؤخِّر وهو على كل شيء قدير لا رادَّ لحكمه ولا يكون فى ملكه إلا ما يُريد يغفر الذنب ويقبل التوبة ويستجيب دعاء عباده يجبر ضعفهم ويرحم عجزهم ويتجاوز عن خطاياهم ويعفو عن زللهم وتقصيرهم متى أقبلوا عليه واعترفوا بالتقصير بين يديه وهو الرحمن الرحيم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

المسلم يعلم أن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وهو أعلم به من نفسه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] وهو أرحم بعبده من ولده ووالده ومن الناس أجمعين وهو اقرب إليه من نفسه وهو معه أينما كان ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [2] ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [3] والإنسان صنعته يتعهده بالرعاية والعناية والهداية والإرشاد فيقبل المسلم على ربه بقلبه ولسانه بجوارحه كلها فيُكثر من ذكره والابتهال والتضرع إليه يسأله الخير ويستعيذ ه من الشر يسأله من فضله ويستعيذ ه من غضبه وعقابه ونقمته وشرور خلقه فهو يملك خزائن كل شيء ولا تعوق قدرته شيء أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

والله يُحبُّ أن يسمع صوت عبده ذاكراً وداعياً مثنياً وحامداً ولذلك أرشده لذلك ودلَّه عليه فقال لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ

---

[1] الملك : ١٤ .

[2] طه : ٧ .

[3] غافر : ١٩ .

دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [(١)] ولذلك كان من أحب عباد الله إليه أكثرهم له سؤالاً ومن أبغض عباده إليه من استكبر عن سؤاله فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " من لم يدع الله عز وجل غضب عليه " [(٢)] وقال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله ** وبني آدم حين يُسأل يغضب

وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى أهميته وفضله فقال : " ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء " [(٣)] ، وقال : " إن الدعاء هو العبادة " [(٤)] ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [(٥)] وهذا فضل من الله ونعمة كبرى على هذه الأمة .

قال كعب الأحبار : أُعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها إلا نبي كان إذا أرسل نبي قيل له : أنت شاهد على أمتك وقال تعالى لهذه الأمة : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [(٦)] وكان يُقال لكل نبي ليس عليك في الدين من

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) أحمد في المسند ٢٩٢/٩ رقم ٩٦٨٠ وإسناده صحيح ، وابن ماجة كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ١٢٥٨/٢ رقم ٣٨٢٧ .

(٣) أحمد في المسند ٤٠٧/٨ رقم ٨٧٣٣ وإسناده صحيح ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء ٢٤٣/٥ رقم ٣٣٨١ .

(٤) أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء٧٧/٢ رقم ١٤٧٩ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء ٢٤٤/٥ رقم ٣٣٨٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) غافر : ٦٠ .

(٦) البقرة : ١٤٣ .

حرج وقال لهذه الأمة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (١) وكان يقول للنبي : ادعني أستجب لك وقال لهذه الأمة : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢) .

وقد أمر الله عباده أن يسألوه ووعدهم الإجابة وحذّرهم من ترك سـؤاله فهو مدعاة لغضب الله عليهم وفى الحديث : " سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يُسئل " (٣) ، وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " الـدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض ".(٤) .

ولذلك قال الإمام النووي : المذهب المختار الذي عليه الفقهاء والمحدثون وجماهير العلماء من الطوائف كلها من السلف والخلف أن الدعاء مستحب (٥) .

الفائدة الثانية :

الدعاء سلاح ولابد للسلاح من شروط حتى يكون نافذاً فمتـى اسـتكمل الدعاء شروطه وآدابه كان مأمول الإجابة ومن أهم هذه الشروط :-

(١) أن يكون الداعي طيب المطعم والملبس وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص : " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة " (٦) وقد ذكر الرسول ﷺ " الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر

---

(١) الحج : ٧٨ .

(٢) غافر : ٦٠ .

(٣) الترمذي كتاب الدعوات باب فى انتظار الفرج وغير ذلك ٣٣٣/٥ رقم ٣٥٨٢ ، وقال العجلونى : حسـن إسناده الحافظ ابن حجر فى بعض حواشيه كشف الخفاء ١٨٧/١ .

(٤) أبو يعلى فى مسنده ٣٤٤/١ رقم ٤٣٩ ، الحاكم فى المسـتدرك ٦٦٩/١ رقـم ١٨١٢وصـححه ووافقـه الذهبي

(٥) الأذكار ص ٤٦٩ .

(٦) الطبراني في المعجم الأوسط ٣١١/٦ رقم ٦٤٩٥ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراي في الصغير وفيه من لـم أعرفهم مجمع الروائد ٢٩١/١٠ وقال ابن رجب الحنبلى : في اسناده نظر .

يمد يديه إلى السماء يقول : يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشـربه حرام فأنَّى يستجاب له " [١] أي فكيف يُستجاب له وحالته هذه .

(٢) أن لا يشتمل دعاؤه على إثم أو قطيعة رحم ، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : " ما من مسلم يـدعو بـدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذاً نُكثر قال : الله أكثر " [٢].

(٣) عدم استبطاء الإجابة ففي الحديث : " يُستجاب لأحدكم ما لم يعجـل فيقول : قد دعوتُ فلم يُستجب لي فإذا دعوتَ فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً " [٣].

وللدعاء أيضاً آداب يحسن اتباعها والحرص عليها من أهمها :-

أ- الحرص على الدعاء فى الأوقات الشريفة والأزمنة الفاضلة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسـبوع ووقـت السحر من ساعات الليل وقد ثبت ذلك فى الأحاديث .

ب- اغتنام الأحوال الشريفة والساعات التي يشعر فيها العبد بصفاء القلب ورقته وقربه من ربه ومن هذه الحالات :-

---

[٧] مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٧٠٣/٢ رقم ١٠١٥ .

[٢] أحمد فى المسند ٥٩/١٠ رقم ١١٠٧٥ ، والترمذي كتاب الدعوات باب استجابة الدعاء فى غيـر قطيعـة ٣٤٧/٥ رقم ٣٦١٨ من طريق أبى هريرة وحديث أبى سعيد حسن .

[٣] البخاري كتاب الدعوات باب يُستجاب للعبد ما لم يعجل ١٤٥/١١ رقم ٦٣٤٠ ، مسلم كتاب الذكر والدعاء باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول : دعوت فلم يستجب لي ٢٠٩٥/٤ رقم ٢٧٣٥ .

- عند نزول المطر وساعة زحف الصفوف للقتال وعند إقامة الصلوات المكتوبات فعن أبى هريرة قال : " إن أبواب السماء تُفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبات فاغتنموا الدعاء فيها " (١) .

- الدعاء بين الأذان والإقامة ففى الحديث " الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد " (٢) ودعاء الصائم حين فطره وفى الحديث " الصائم لا ترد دعوته " (٣)، وعند السجود وفى الحديث : " أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثر فيه من الدعاء " (٤)، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : " وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن – أى حري وجدير – أن يستجاب لكم " (٥)، وخلف الصلوات قال مجاهد : " إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات " (٦) .

ج – أن يدعو مستقبل القبلة وأن يرفع يديه فعن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : " إن ربكم حيي كريم يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٦٨/١ .

(٢) أبو داود كتاب الصلاة باب ما جاء فى الدعاء بين الأذان والإقامة ١٤١/١ رقم ٥٢١ ، الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء فى أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة ٢٥٤/١ رقم ٢١٢ وقال : حديث حسن .

(٣) أحمد فى المسند ٤١١/٩ رقم ١٠١٣٦ ، وأخرجه الترمذي بنحوه كتاب صفة الجنة باب ما جاء فى صفة الجنة ونعيمها ٢٣٦/٤ رقم ٢٥٣٤ .

(٤) مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود ٣٥٠/١ رقم ٤٨٢ .

(٥) مسلم كتاب الصلاة باب النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود ٣٤٨/١ رقم ٤٧٩ .

(٦) إحياء علوم الدين ٢٦٨/١ .

أن يردها صفراً " [١]. وعن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء [٢] ثم يمسح بهما وجهه آخر الدعاء وقد جاءت في ذلك آثار ولكنها ضعيفة .

د – خفض الصوت عند الدعاء بحيث يكون بين الجهر والمخافتة قال تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [٣].

ولما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر قال لهم رسول الله ﷺ : " أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً تدعون سميعاً بصيراً قريباً " [٤]، ومرَّ بعض الصالحين برجل يرفع صوته بالدعاء فقال له : " كن كزكريا ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [٥].

هـ – عدم التكلف في الدعاء والتضرع والخشوع والرغبة والرهبة والدعاء بلسان الذل والافتقار والمسكنة والانكسار ، قال ابن عباس : انظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون ذلك [٦]، وقال بعض السلف : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق ومرَّ بعض السلف بقاصٍ يدعو بسجع فقال

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٧٩/١ رقم ١٤٨٨ ، الترمذي كتاب الدعوات باب في دعاء النبي ﷺ ٣٢٦/٥ رقم ٣٥٦٧ وحسنه .

[٢] البخاري كتاب الدعوات باب رفع الأيدي في الدعاء ١١/ ١٤٦ رقم٦٣٤١ ، مسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء ٦١٢/٢ رقم ٨٩٥ .

[٣] الأعراف : ٥٥ .

[٤] البخاري كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ١٥٧/٦ رقم ٢٩٩٢ ، مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٠٧٦/٤ ٢٧٠٤ .

[٥] مريم : ٣ .

[٦] البخاري كتاب الدعوات باب ما يكره من السجع في الدعاء ١٤٢/١١ رقم ٦٣٣٧ .

له : أعلى الله تبالغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً العجمي يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدين اللهم لا تفضحنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير والناس وراءه يدعون من كل ناحية وكان يُعرف بركة دعائه [١] .

و - أن يجزم الدعاء ويُوقن بالإجابة ولا يستعظم على الله شيء وفي الحديث " لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم إغفر لي إن شئت اللهم ارحمني أن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له " [٢] ، وفي الحديث أيضاً : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاءً من قلب غافل " [٣] ، وقال سفيان بن عيينة : لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [٤].

ز - تكرير الدعاء والإلحاح على الله ومداومة قرع الباب فإن من داوم على قرع الباب أوشك أن يُفتح له وعن ابن مسعود قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً [٥].

---

[١] إحياء علوم الدين ٢٧٠/١ .

[٢] البخاري كتاب الدعوات باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ١٤٤/١١ رقم ٦٣٦٩ ، مسلم كتاب الذكر والدعاء باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت ٢٠٦٣/٤ رقم ٢٦٧٩ .

[٣] الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فى جامع الدعوات عن النبي ﷺ ٢٩٢/٥ رقم ٣٤٩٠ ، وأحمد فى المسند ٢١٣/٦ رقم ٦٦٥٥ وإسناده صحيح .

[٤] الأعراف : ١٤ ، ١٥ .

[٥] مسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٤١٨/٣ رقم ١٧٩٤ .

ح – أن يستفتح الدعاء بحمد الله تعالى والثناء عليه ثم يُصلِّى على نبيه محمد ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء فإذا فرغ صلَّى على النبي محمد ﷺ فعن فضالة بن عبيد قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : " عجل هذا " ثم دعاه فقال له أو لغيره " إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه والثناء عليه ثم يصلى على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء " [١].

ط – التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بهمة عالية ونفس مشرقة صافية والاعتراف بالذنب والتقصير إخلاص التوجه إلى الله .

ك – الإكثار من الدعاء فى السرَّاء والرخاء حتى يستجيب الله للعبد عند الضيق والضراء فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليُكثر من الدعاء فى الرخاء " [٢].

ل – اختيار الجوامع من الكلام عند الدعاء والحرص على الدعاء بالمأثور وتحري الدعاء بأسماء الله الحسنى عامة والاسم الأعظم خاصة فعن عائشة قالت : " كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك " [٣] ، وفى الحديث أن رجلاً جاء للنبي ﷺ فقال : يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربى ؟ قال : " قل : اللهم اغفر لي

---

[١] أحمد فى المسند ١٧٧/١٧ رقم ٢٣٨٢١ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فى جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ ٢٩١/٥ رقم ٣٤٨٨ وقال : حديث حسن صحيح .

[٢] الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ٢٢٨٤٨/٥ رقم ٣٣٩٣ وحسنه .

[٣] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٧٨/٢ رقم ١٤٨٢ ، أحمد فى المسند بنحوه ٥٢٧/١٧ رقم ٢٥٠٣٠ وإسناده صحيح .

وارحمني وعافني وارزقني فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك "[١] ، وعن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال : " لقد سألت الله تعالى بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب " [٢] ، وفى رواية قال : " لقد سألت الله باسمه الأعظم " [٣].

وعن أنس أنه كان عند رسول الله ﷺ جالساً ورجل يُصلِّى ثم دعا اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبيﷺ : " لقد دعا الله تعالى باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى " [٤].

م – طلب الدعاء من أهل الفضل والصلاح ومن يتوسم الإنسان فيهم التقوى والإخلاص فعن عمر ابن الخطاب قال : استأذنت النبي ﷺ فى العمرة فأذن وقال : " لا تنسنا يا أخي من دعائك " فقال كلمةً ما يسرني أن لي بها الدنيا [٥].

وفى رواية أنه قال : أشركنا يا أخي فى دعائك [٦].

---

[١] مسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٠٧٣/٤ رقم ٢٦٩٧ .

[٢] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨٠/٢ رقم ١٤٩٣.

[٣] أحمد فى المسند ٤٧٨/١٦ رقم ٢٢٨٤٨ ، الترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء فى جامع الدعوات عن النبيﷺ ٢٩٠/٥ رقم ٣٤٨٦ وحسنه .

[٤] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨٠/٢ رقم ١٤٩٥ ، الترمذي كتاب الدعوات باب خلق الله مائة رحمة ٣٢٠/٥ رقم ٣٥٥٥ .

[٥] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨١/٢ رقم ١٤٩٨، والترمذي كتاب الدعوات فى دعاء النبيﷺ ٣٢٩/٥ رقم ٣٥٧٣ وقال : حديث حسن صحيح .

[٦] أبو داود كتاب الصلاة باب الدعاء ٨١/٢ رقم ١٤٩٨ .

الفائدة الثالثة :

المسلم يعلم أن الله فرغ من كتابة الأقدار وجفَّت الأقلام وطويت الصحف وما من شيء كائن إلا وقدَّر الله كيف يكون ولا يتخلف من ذلك شيء ولذلك قد يقول البعض : فما فائدة الدعاء إذا كان القضاء لا يُـردّ والمكتـوب لا يتغيـر والمقدر حتم فنقول : إن الله قدَّر القضاء وجعل من جملة القضـاء رد الـبلاء بالدعاء فالدعاء من أسباب رد البلاء ووجود الرحمة كما أن الدرع سبب لـدفع السلاح والماء سبب لخروج النبات من الأرض والدواء سبب لشـفاء المـريض وكما أن الدرع يدفع السهم فيتدافعان فيغلب الأقوى فكذلك الدعاء والبلاء .

وكما أنه ليس من شرط الاعتراف بالقضاء والتسليم بالقدر أن لا يحمـل السلاح وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [١].

فكذلك ليس من شرط التسليم للقضاء ترك الدعاء لأنه من جملة الأسـباب التي قدَّرها الله لدفع البلاء فالله قدَّر الأمور وقدَّر أسبابها ولذلك قال عمـر بـن الخطاب لمن قال له : أتفر من قدر الله ؟ فقال له : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله [٢] .

وفى الحديث : " إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عبـاد الله بالدعاء " [٣].

ويُمكن أن يُقال : إن الدعاء من جملة العبادة لمـا فيـه مـن الخضـوع والافتقار ومن فوائد الدعاء أيضاً : تحصيل الثواب بامتثال الأمر ومناجاة الرب.

---

[١] النساء : ١٠٢ .

[٢] البخاري كتاب الطب باب ما يذكر فى الطاعون ١٠/١٨٩ رقم ٥٧٢٩ ، مسلم كتاب السلام بـاب الطـاعون والطيرة والكهانة ونحوها ٤/١٧٤٠ رقم ٢٢١٩ .

[٣] أحمد فى المسند ١٦/١٧٧ رقم ٢١٩٤٣ ، الترمذي كتاب الدعوات باب فى دعاء النبي ﷺ ٥/٣٥٥٩ رقم ٣٥٥٩ .

قال ابن الجو زى : اعلم أن دعاء المؤمن لا يُردّ غير أنه قد يكون الأولى لــه تأخير الإجابة أو يُعوَّض بما هو أولى له عاجلاً أوآجلاً فينبغــي للمــؤمن أن لا يترك الطلب من ربه فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض [١].

الفائدة الرابعة :

يقول بعض المسلمين إننا ندعو الله فلا يُستجاب لنا وقد قال الله تعــالى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٢] فلو كانت الآية على ظاهرها لم تتخلــف الإجابــة والجواب عن ذلك أن يُقال : إن الله يستجيب كل الدعاء متى استكمل شــروطه ولكن صور الإجابة تتنوع فقد يدعو الإنسان بإثم أو قطيعة رحم أو يدعو علــى نفسه أو على أولاده أو يدعو بالشر من حيث لا يحتسب ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [٣] .

فيكون من رحمة الله ولطفه أن لا يستجيب لعبده ولكن الله لا يحرم عبده إذا دعاه من خير فإما أن يجيبه بجنس ما دعا إليه وإما أن يصرف عنه من البلاء أو يُعطى عوضاً له وإما أن يُدَّخر له فى الآخرة وقد سبق ذلك فى الحديث فمتى استكمل الدعاء شروطه كان حرياً بالإجابة ومتى تخلّفت الشروط والآداب لم يتجاوز لسان الداعي ولم يترتب عليه خير .

قال ابن عطاء الله السكندري : إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتــاً فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق مواقيته فاز

---

[١] فتح الباري ١١/١٤٥ .

[٢] غافر : ٦٠ .

[٣] الإسراء : ١١ .

وإن وافق أسبابه نجح فأركانه : حضور القلب والخشوع وأجنحتـــه : الصـــدق ومواقيته : الأسحار وأسبابه : الصلاة على النبي ﷺ [١] .

ويُحكى فى ذلك أن إبراهيم بن أدهم مرَّ بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا له : يا أبا إسحاق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتـــت بعشرة أشياء :-

الأول : أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به .

الرابع : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها .

الخامس : قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه .

السادس : قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها .

السابع : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها .

الثامن : قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له .

التاسع : انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم .

العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . [٢]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١-٦٨٧ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١-٦٨٧ .

الفائدة الخامسة :

فى قول النبي ﷺ : " اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وجهلي وجدي وكل ذلك عندي " ما يُفيد وقوع الخطأ من النبي ﷺ وهو معصوم منه فكيف نفهم ذلك .

نقول إن الخطأ بمعنى مجانبة الصواب وفعل غير الأكمل مُتصوَّر وقوعه من النبي ﷺ بل قد يحدث فعلاً كما فى قصة أسارى بدر وإذنه للمنافقين بالتخلف عن الغزو وتحريمه لنسائه

ولكن الله لا يُقرُّه على خطأ بل يُصوِّبه له ، أما الخطأ بمعنى الذنب والمعصية فمذهب جمهور العلماء أن الأنبياء جميعاً معصومون من الذنوب جميعها صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها ولكنهم نظراً لقربهم من ربهم ومعرفتهم به وخشيتهم منه قد يعتبرون المباح فى حق غيرهم ذنباً لهم فيستغفرون منه وفى الحديث : " إني ليغان على قلبى حتى أستغفر الله أكثر من سبعين مرة " [١] .

قال ابن بطال : الأنبياء أشد الناس اجتهاداً فى العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة فهم دائبون فى شكره معترفون له بالتقصير .

ويُمكن أن يُقال : يحتمل أن يكون النبي ﷺ لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة أو مخاطبة الناس والنظر فى مصالحهم ... الخ مما يحجبه عن الانشغال بذكر الله والتفرغ إليه ومشاهدته ومراقبته فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي وهو الحضور فى حظيرة القدس .

---

[١] مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٤/٢٠٧٥ رقم ٢٧٠٢ .

ويُمكن أن يُقال : إن صدور مثل هذا القول من النبي ﷺ إنما يُريد به التشريع لأمته والتعليم لها وإرشادها إلى طريق النجاة .

قال ابن الجوزى : هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحدٌ والأنبياء وإن عُصِموا من الكبائر فلم يُعصموا من الصغائر .

والراجع عند جمهور العلماء عصمتهم من الكبائر والصغائر جميعاً .

وقال الحارث المحاسبي : الملائكة والأنبياء أشد لله خوفاً ممن دونهم وخوفهم خوف إجلال وإعظام واستغفارهم من التقصير لا من الذنب المحقق [1] .

وقال القاضي عياض : يُحتمل أن يكون ذلك على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع والشكر لربه لما علم أنه قد غفر له [2] .

وقال القرطبى : وقوع المعصية من الأنبياء جائز لأنهم مكلَّفون فيخافون وقوع ذلك ويتعوَّذون منه وعلى هذا فيكون قوله " وكل ذلك عندي " أى : ممكن الوقوع عندي قال : ودليل صحة ذلك أنهم مكلَّفون باجتناب المعاصي كلها كغيرهم فلولا صحة إمكان الوقوع لما صح التكليف وقال : هذه التعويذات وهذه الدعوات والتضرُّعات قيامٌ بحق وظيفة العبودية واعترافٌ بحق الربوبية ليقتدي بهم مذنبو أممهم ويسلكوا مناهج سبلهم فتستجاب دعواتهم وتقبل توبتهم [3]. وعلى كل حال فالنبي ﷺ مغفورٌ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما أخبره الله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ

---

[1] فتح الباري ٢٠٢/١١ .

[2] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٢١٤/٨ .

[3] المفهم ٤٧/٧ ، ٤٨.

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [١] . فدعا بهذا وغيره تواضعاً لربه وحباً لمناجاته لأن الدعاء عبادة وهذا إرشاد لأمته أيضاً وتعليم لهم .

الفائدة السادسة :

يُستحب للعبد أن يدعو الله بأسمائه الحسنى قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [٢] وأسماء الله الحسنى نوعان : نوع متفرد مثل : الملك القدوس السلام ونوع مزدوج مثل : الأول والآخر والظاهر والباطن والمعز والمذل وغيرها فالأفضل أن لا تُقال هذه الأسماء مُفردة بل تُقال مزدوجة كما وردت في القرآن فلا يُقال : يا خافض حتى يضم إليها يا رافع وقد دعا النبيﷺ ربه بأسمائه الحسنى في هذا الحديث فقال : " أنت المقدم وأنت المؤخر " ومعنى المقدم أي : المقدم لمن شئت بالتوبة والولاية والطاعة والمؤخر لمن شئت بضد ذلك والأولى أن يُقال : إنه تعالى مقدّم كل مقدّم في الدنيا والآخرة ومؤخّر كل مؤخّر في الدنيا والآخرة فالله سبحانه وتعالى يُقدِّم من يشاء من خلقه إلى رحمته بتوفيقه ويُؤخِّر من يشاء عن ذلك بخذلانه .

الدروس المستفادة من الحديث

١. فضيلة الدعاء وأهميته وعظيم أجره وأنه من أفضل العبادات .
٢. للدعاء شروط وآداب يحرص عليها المسلم حتى يُستجاب دعاؤه .
٣. ضرورة التوبة والاستغفار من الذنوب الظاهرة والباطنة .
٤. النبي ﷺ أعرف الناس بربه وأكثرهم خشية له ومعرفه به وبعظيم جنابه ولذلك دلنا على طريق القرب منه وهو دعاؤه ومناجاته .
٥. الأنبياء جميعاً معصومون من الذنوب كلها كبيرها وصغيرها وما وقع منهم مما ينافي ذلك إنما هو من قبيل ترك فعل الأولى وفعل ما دون الكمال لأنهم أفضل البشر وأكملهم .

---

[١] الفتح : ٢ .
[٢] الأعراف : ١٨٠ .

فضل الاستغفار

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً ومن كل همٍ فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب) .

تخريج الحديث

هذا الحديث أخرجه :

١) أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٨ .

٢) ابن ماجة كتاب الأدب باب الاستغفار ١٢٥٤/٢ رقم ٣٨١٩ .

٣) أحمد في المسند بلفظ من أكثر من الاستغفار ٢٧/٣ رقم ٢٢٣٤ وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل حبر الأمة وإمام التفسير وفقيه عصره ، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، القرشي الهاشمي أبو العباس المدني ، ابن عم رسول الله ﷺ وصاحبه ، خالته أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ، وابن خالته خالد بن الوليد .

وُلد في شِعب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتربَّى في بيت النبي ﷺ وتلقَّى عنه العلم وتأدَّب بأدبه ، أسلم قبل الفتح ثم هاجر سنة الفتح ، وقُبِضَ رسول الله ﷺ وعمره ثلاث عشرة سنة .

رزقه الله الفهم والفقه منذ نعومة أظافره ، فيحكي عن نفسه فيقول :

" أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجرَّني حتى جعلني حذائه ، فلما أقبل رسول الله ﷺ على صلاته خنست فصلى رسول الله ﷺ

فلما انصرف من صلاته قال : " ما شأنك أجعلك في حذائي فتخنس ؟! " فقلت : يا رسول الله أوَينبغي لأحدٍ أن يصلِّي في حذائك وأنت رسول الله ﷺ الذي أعطاك الله عز وجل ؟ قال : " فأعجبته فدعا الله أن يزيدني علماً . " [١]

وقد ظهرت عليه منذ الصغَر علامات الذكاء والنجابة حتى دعا له رسول الله ﷺ أن يزيده الله علماً وفقهاً .

قال ابن عباس : بِتُّ في بيت خالتي ميمونة فوضعت للنبي ﷺ غسلاً فقال : " من وضع هذا ؟ " قالوا : عبد الله ، فقال : " اللهم فقهه في الدين " . [٢]

وكان ابن عباس إلى جانب علمه وسيماً جميلاً صبيح الوجه مديد القامة مهيباً كامل العقل ذكي النفس من رجال الكمال . [٣]

وكان أبيضاً طويلاً جسيماً طيب الرائحة ، تفوح منه رائحة المسك . قال عكرمة : كان ابن عباس إذا مرَّ في طريقٍ قالت النساء : أمرَّ المسك أم مرَّ ابن عباس ؟ [٤] ، وقال عطاء بن أبي رباح : ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة إلا ذكرت وجه ابن عباس . [٥]

وكان شديد الاجتهاد في العبادة يصوم الاثنين والخميس ويُكثر الصلاة والذكر وكان شديد الخشية من الله كثير البكاء .

---

[١] أحمد في مسنده ٣٣٠/٣ رقم ٣٠٦١ وإسناده صحيح ، قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح راجع : مجمع الزوائد ٢٨٤/٩ .

[٢] البخاري كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء ٢٩٤/١ رقم ١٤٣ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل عبد الله بن عباس ١٩٢٧/٤ رقم ٢٤٧٧ .

[٣] سير أعلام النبلاء ٣٣٣/٣ .

[٤] سير أعلام النبلاء ٣٣٧/٣ ، تاريخ ابن معين برواية الدوري ٩٠/٣ رقم ٣٨٠ .

[٥] سير الأعلام ٣٣٩/٣ ، تهذيب الأسماء للنووي ٢٥٨/١ .

قال ابن أبي مليكة : صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة فكان إذا نزل قام شطر الليل ، فسُئل : كيف كانت قراءته ؟ قال : قرأ ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ [١] فجعل يرتل ويكثر في ذلك النشيج [٢] .

وقال أبو رجاء : رأيت ابن عباس وأسفل عينه مثل الشراك البالي من البكاء . [٣]

اجتهد ابن عباس في طلب العلم منذ نعومة أظافره فاستفاد من قرابته من رسول الله ﷺ وتعلم منه كثيراً ثم استفاد من الصحابة الموجودين حينئذ فجمع علمهم إلى علمه فساد أقرانه جمَيعاً لفضل ذكائه وتبكيره بطلب العلم .

قال ابن عباس : لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجلٍ من الأنصار هلُمَّ نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير فقال : وا عجباً لك يا ابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى ؟ فترك ذلك ، قال ابن عباس : وأقبلت على المسألة فإن كان الحديث ليبلغني عن الرجل فآتيه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح عليّ التراب فيخرج فيراني فيقول : يا ابن عم رسول الله ﷺ ألا أرسلت إليّ فآتيك ؟ فأقول أنا أحق أن آتيك فأسألك قال : فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس عليّ فقال : هذا الفتى أعقل مني . [٤]

---

[١] ق : ١٩ .

[٢] حلية الأولياء ٣٢٧/١ ، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٥٠/٢ رقم ١٨٤٠ .

[٣] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٧٨/٢ رقم ١٩٣٠ ، مصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد باب ما قالوا في البكاء من خشية الله ٢٤٤/٧ رقم ٣٥٥٢٢ .

[٤] سنن الدارمي في المقدمة باب الرحلة في طلب العلم و احتمال العناء فيه ١٥٠/١ رقم ٥٧٠ ، المعجم الكبير للطبراني ٢٢٤/١٠ رقم ٥٩٢ ، والحاكم في المستدرك ١٨٨/١ وصححه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٢٧٧/٩ .

وقال ابن عباس : وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هـذا الحـي مـن الأنصار إن كنت لآتي الرجل منهم فيُقال : هو نائم فلو شئت إن يُوقظ لي لأوقظ فأجلس على بابه تسفي الريح على وجهي التراب حتى يستيقظ فأسأله عما أريد ثم أنصرف . [١]

ولقد تلقى ابن عباس العلم بذاكرةٍ واعية وهمـةٍ عاليـة ودأبٍ وإصـرار وصبر فكان يقصد الصحابة ويسألهم ، والعلم خزائن ومفتاحها السؤال ، يقـول ابن عباس : إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ . [٢]

وقال الشعبي : قيل لابن عباس : أنىّ أصبت هذا العلم ؟ قـال : بلسـانٍ سؤول وقلبٍ عقول . [٣] وكانوا إذا عابوا على عمر إدناءه لـه وإدخالـه إلـى مجلسه مع أهل بدر وقالوا له : ألا تدعوا أبناءنا كما تدعوا ابن عباس ؟ فيقـول عمر : ذلكم فتى الكهول ، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً . [٤]

وقد أعانه على ذلك دعاء النبي ﷺ له بالعلم والفقه والحكمة ، فكان رضي الله عنه آية في الحفظ وحضور البديهة ، أنشده ابن أبي ربيعه قصيدة من ثمانين بيتاً فحفظها من مرةٍ واحدة ، وكان إذا سمع النوادب سدَّ أذنيه بأصابعه مخافة أن يحفظ أقوالهن .

وقد تصدَّر ابن عباس للتعليم والإفتاء منذ خلافة عمر بن الخطاب ، قـال عطاء بن يسار : كان عمر وعثمان يدعوان ابن عباس مع أهل بدر وكان يفتي

---

[١] الدارمي في المقدمة باب الرحلة في طلب العلم و احتمال العناء فيه ١/١٥٠ رقم ٥٦٧ ، والجامع لأخـلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ١/١٥٨ رقم ٢١٤ .

[٢] سير الأعلام ٣/٣٤٤ .

[٣] البداية والنهاية ٨/ ٢٨٣ .

[٤] المعجم الكبير للطبراني ١٠/٢٦٥ رقم ١٠٦٢٠ ، والحاكم في المستدرك ٣/٦٢١ رقم ٦٢٩٨ .

في عهد عمر وعثمان إلى يوم أن مات ، وقد عدّه ابن حزم من السبعة المكثرين من الفتوى مع الصحابة ، وقد جمعت فتاواه في عشرين كتاباً [١] .

وقد جمع ابن عباس علوماً عدة وبرع في فنونٍ شتى ، قال عطاء : كان أناس يأتون إلى ابن عباس في الشعر والأنساب وناس يأتونه لأيام العرب ووقائعهم وناس يأتونه للفقه والعلم ، فما منهم صنف إلا يقبل عليهم بما يشاؤون وكان كثيراً ما يجعل أيامه يوماً للفقه ويوماً للتأويل ويوماً للمغازي ويوماً للشعر ويوماً لوقائع العرب [٢] ، وما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب الشعر عنده يُصدرهم كلهم من واد واسع [٣] .

ولابن عباس مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه وعمق فهمه وكمال عقله وسعة فضله ونبل أصله فهو أحد المكثرين من رواية الحديث وأحد العبادلة الأربعة ، ومن فقهاء الصحابة وعلمائهم ، ولقد علم الصحابة مكانة ابن عباس وقربه من رسول الله ﷺ ولمسوا بركة دعاء النبي ﷺ له ، حيث دعا الله أن يعلمه الكتاب [٤] والحكمة [٥] وأن يفقهه في الدين [٦] ويعلمه التأويل [٧] فقرَّبوه وأحبوه فكان عمر يقول : لا يلومني أحد على حب ابن عباس ، وكان

---

[١] سير الأعلام ٣/٣٥٨ .

[٢] البداية والنهاية ٨/٢٨٦ .

[٣] الزهد لابن المبارك ١/٤١٤ ، تاريخ بغداد ١/١٧٤ .

[٤] البخاري كتاب العلم باب قول النبي ﷺ : اللهم علمه الكتاب ١/٢٠٤ رقم ٧٥ .

[٥] البخاري كتاب المناقب باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ٧/١٢٦ رقم ٣٧٥٦.

[٦] البخاري كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء ١/٢٩٠ رقم ١٤٣ .

[٧] أحمد في المسند ٣/٩٥ رقم ٢٣٩٧ وإسناده صحيح ، راجع : مجمع الزوائد ٩/٢٦٧ .

يقول له : لقد علمت علماً ما علمناه [1] ، وقال سعد بن أبي وقاص : ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألب لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس [2] .

وقال طلحة بن عبيد الله : لقد أُعطي ابن عباس فهماً وعلماً ما كنت أرى عمراً يقدم عليه أحدًا [3] ، وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس [4]

وقال ابن عمر : ابن عباس أعلم أمة محمد ﷺ بما أنزل على محمد ﷺ [5]

وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمل الناس ، فإذا نطق قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس [6] ، ومناقبه وفضائله كثيرة جداً .

روى ابن عباس عن النبي ﷺ (١٦٦٠) حديثاً اتفق الشيخان على (٧٥) حديثاً وانفرد البخاري برواية (١١٠) حديثاً ومسلم برواية (٤٩) حديثاً ، كما روى عن جماعة من الصحابة منهم : عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعائشة وغيرهم .

كما روى عنه جمعٌ من الصحابة منهم : أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وابن عمرو والمسور بن مخرمة وخلقٌ لا يُحصون من التابعين من أشهرهم : سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وشعبة وطاووس و الشعبي وعطاء بن يسار وعطاء بن أبي رباح وعكرمة ومجاهد وخلق كثير سواهم .

[1] سير الأعلام ٣/٣٤٥ .
[2] سير الأعلام ٣/٣٤٧ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٣٦٩ .
[3] سير الأعلام ٣/٣٧٤ .
[4] المستدرك للحاكم ٣/٦١٨ رقم ٦٢٩١ ، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢/٩٥٧ رقم ١٨٦٤ .
[5] البداية والنهاية ٨/٢٨٥ .
[6] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢/٩٦٠ رقم ١٨٧٢ ، سير الأعلام ٣/٣٥١ .

شهد ابن عباس وقعة الجمل وصفين مع عليّ وكف بصره في آخر عمره ثم توفي سنة ثمانٍ وستين بالطائف ، ولما مات جاء طائرٌ لم يُرَ طائر على خلقته فدخل نعشه ثم لم يُرَ خارجاً منه فلما دُفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولا يُرى من تلاها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠ ﴾ [١] .

ولما بلغ جابر بن عبد الله خبر وفاته صفق بإحدى يديه علـــى الأخـــرى وَقال : مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس ، وقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق [٢] ، فلما دفن قال محمد بن الحنفية : اليوم مات رباني هـــذه الأمـــة [٣] . رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة قراره ومثواه .

معاني المفردات

لـــــزم : أي داوم عليه وأكثر من الملازمة له والدوام عليه .

الاستغفار : هو طلب المغفرة من الله .

ضيـــق : أي شدة ومحنة .

مخرجاً : أي طريقاً وسبباً يخرج إلى السعة والراحة .

هـــــم : أي غماً يغمه .

فرجـــــاً : أي خلاصاً .

ورزقـــه : أي أعطاه حلالاً طيباً .

لا يحتسب : أي لا يظن ولا يرجو ولا يخطر بباله .

---

[١] الفجر : ٢٧-٣٠ ، والخبر في مستدرك الحاكم ٦٢٦/٣ رقـــم ٦٣١٢ ، الطبرانـــي فـــي المعجـــم الكبيـــر ٢٣٦/١٠ رقم ١٠٥٨١ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٢٨٥/٩ .

[٢] البداية والنهاية ٢٨٥/٨ .

[٣] المستدرك للحاكم ٦١٦/٣ رقم ٦٢٨٤ .

المعنى الإجمالي للحديث

يرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى لزوم الاستغفار والإكثار والمداومة عليه مع التوبة من جميع الذنوب ، ووعد من لزم ذلك بسعادة الدنيا والآخرة حيث يجعل الله له من كل ضيقٍ في الدنيا أو في الآخرة مخرجاً بأن يلطف به فينجيه من كل كرب وضيق وحزن ويجعل له من كل غمٍ وهمٍ فرجاً بأن يزيل عنه سببه وينجيه من تعبه ويفيض عليه من رزقه الواسع الحلال الطيب ويأتيه من حيث لا يرجوا ولا يظن ولا يتوقع فالاستغفار يُصلح أمور الدنيا كما يُصلح أمور الآخرة .

والاستغفار المقصود في الحديث هو طلب المغفرة من الله ، وقد علَّمنا رسول الله ﷺ كثيراً من صيغ الاستغفار كما ستأتي .

والاستغفار يكون باللسان أو بالقلب أو بهما جميعاً ، والأول فيه منفعة وخير لأنه أفضل من السكوت ولأن فاعله يتعود قول الخير ومناجاة الله ، والثاني نافع جداً لأنه يتضمن الإقرار بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه ، والثالث أبلغ منه لأنه يتضمن الإقرار والاعتراف بالقلب وطلب المغفرة باللسان والاستغفار لا يمحص الذنوب إلا إذا رافقته أو تضمن التوبة بشروطها .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الإنسان بطبعه كثير الذنوب لأنه ظلوم جهول إلا من عصم الله لأن الله ركَّبه من الماء والطين ثم نفخ فيه من روحه ، فهو واقعٌ في المعاصي لا محالة وفي الحديث : " كل بني آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون " . [1]

---

[1] أحمد في المسند ٧٧/١١ رقم ١٢٩٨٣ ، الترمذي كتاب صفة القيامة ٢٢٤/٤ رقم ٢٥٠٧ وإسناده حسن.

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : " كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم " . [١]

ولكن المسلم إذا أذنب استغفر وإن أخطأ تاب ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] ، وقد ورد في الحديث صفة الاستغفار المشار إليه في الآية ، فعن علي بن أبي طالب قال : حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنهما وصدق أبو بكر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " ما من رجل يذنب ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر الله له ثم تلا والذين إذا فعلوا فاحشة ... الآية " [٣]

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نكتةً فإذا هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " . [٤]

فالمسلم دائماً يتوب ويستغفر لأنه من حصول الذنب على يقين ومن الخروج من عقوبته على شك فحق التائب أن يجعل ذنبه نُصب عينيه وينوح دائماً على نفسه حتى يتحقق أن الله قد غفر له ذنبه وأمثالنا لا يتحققون من ذلك

---

[١] أحمد في المسند ٥٠٥/١٥ رقم ٢١٢٦٤ ، وابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر التوبة ١٤٢٢/٢ رقم ٤٢٥٧ وإسناده حسن .

[٢] آل عمران : ١٣٥ .

[٣] أحمد في المسند ١٦٥/١ رقم ٢ ، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في الصلاة عند التوبة ٤١٤/١ رقم ٤٠٦ وإسناده صحيح .

[٤] سورة المطففين الآية ١٤ ، انظر : أحمد في المسند ٧١/٨ رقم ٧٩٣٩ ، الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة ويل للمطففين ٢٢٠/٥ رقم ٣٣٤٥ وقال : حديث حسن صحيح .

إلا بلقاء الله تعالى والرجوع إليه ، والندم على الفعل والعزم على عدم العود إليه والإقلاع عن الذنب وكثرة الاستغفار منه طريق المسلم للمغفرة ، ثم لو قدَّرنا أنه تحقق أنه غُفر له ذلك الذنب لتعيَّنت عليه وظيفة الشكر كما قال ﷺ " أفلا أكون عبداً شكوراً " . [١]

وغير المسلم سادرٌ في غيِّه متمادٍ في ضلاله لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا الحق من الباطل لا يرجو رحمة الله ولا يخاف عقابه .

قال ابن مسعود : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخاف أن تقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُبابٍ مَرَّ على أنفه فقال به هكذا . [٢]

فمثل المؤمن كمثل الثوب الأبيض وكمثل الذهب الخالص ، توسخه المعاصي وتغسله التوبة والاستغفار ، فكلما أذنب استغفر فعاد نقياً خالصاً وفي الحديث " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " [٣] وسُئل ابن الجوزي أيهما أفضل التسبيح أم الاستغفار ؟ فقال : الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور، فلسان المسلم يلهج دائماً بالتوبة والاستغفار لكثرة ذنوبه ودوام غفلته فهذا رسول الله ﷺ سيد الخلق وأفضل البشر ، عصمه الله من الذنوب كلها وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول : " إنه ليُغان على قلبي حتى أستغفر الله مائة مرة " [٤].

---

[١] البخاري كتاب تفسير القرآن باب " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ... الآية ٨/٤٤٨ رقم ٤٨٣٦ ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ٤/٢١٧٤ رقم ٢٨١٩ .

[٢] البخاري كتاب الدعوات باب التوبة ١١/١٠٥ رقم ٦٣٠٨ .

[٣] ابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر التوبة ٢/١٤١٩ رقم ٤٢٥٠ ، الطبراني في المعجم الكبير ١٠/١٥٠ رقم ١٠٢٨١ ، البيهقي في شعب الإيمان ٥/٤٣٦ رقم ٧١٧٨ والحديث حسن بشواهده .

[٤] مسلم كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٤/٢٠٧٥ رقم ٢٧٠٢ .

فما بالنا نحن بمعاصينا وجهلنا وغفلتنا أفلا نستغفر آناء الليل وأطراف النهار لعل ربنا يرضى ، وكيف لا يحرص المسلم على ذلك وهو يستمع رسولهﷺ يقول : " من قال : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غُفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف " .[١]

قال أبو نعيم الأصبهاني : هذا يدل على أن بعض الكبائر تُغفر ببعض العمل الصالح وضابطه : الذنوب التي لا تُوجب على مرتكبها حكماً في نفس ولا مال ، ووجه الدلالة منه : أنه مُثِّل بالفرار من الزحف وهو من الكبائر فدلَّ على أن ما كان مثله أو دونه يُغفر إذا كان مثل الفرار من الزحف فإنه لا يوجب على مرتكبه حكماً في نفسٍ ولا مال .

والاستغفار يرفع الهمَّ ويكشف الغم ويُكثر الرزق ويجلب سعادة الدنيا والآخرة . جاء رجلٌ إلى الحسن البصري فشكى إليه الجدب فقال له : استغفر الله ، وجاء إليه آخر فشكا إليه عدم الولد فقال له : استغفر الله ، وشكا إليه ثالث جفاف بستانه فقال له : استغفر الله ثم تلا عليهم قول الله تعالى ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۞ ﴾ [٢]

وفي الآيات حثٌ على الاستغفار وبشارة بوقوع المغفرة لمن استغفر وقد أشار الشاعر إلى ذلك فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه ** من جود كفيك ما علمتني الطلبا

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٥ ، الترمذي كتاب الدعوات ٣٣٦/٥ رقم ٣٥٨٨

[٢] نوح : ١٠ ، ١١، ١٢ .

وقد ورد في فضل الاستغفار آيات وأحاديث كثيرة فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) ، وقد أمر الله أنبيائه بالاستغفار فقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (٢) ، وأمر نبيه محمداً بالاستغفارفقال له : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (٣) ، وقال له ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٤) .

والآيات في الاستغفار كثيرة مشهورة وأما الأحاديث فمنها : حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : " قال إبليس : يا رب لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى : وعزتي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني " (٥) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم . (٦)

والاستغفار يمحق الذنوب مهما عظُمت ويمحوها مهما كثُرت ، وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو

(١) النساء : ١١٠ .
(٢) غافر : ٥٥ .
(٣) محمد : ١٩ .
(٤) النساء : ١٠٦ .
(٥) أحمد في المسند ٩٥/١٠ رقم ١١١٨٣ ، والحاكم في المستدرك ٢٩٠/٤ رقم ٧٦٧٢ وصححه .
(٦) مسلم كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٢١٠٦/٤ رقم ٢٧٤٩ .

أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بـي شـيئاً لأتيتـك بقرابهـا مغفرة " . [١]

وعن حذيفة بن اليمان قال : كنت ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله لقد خشيت أن يُدخلني لساني النار فقال له النبـي ﷺ : " فـأين أنـت مـن الاستغفار ؟ فإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة " [٢] ، وعن أبي هريرة عـن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : " أذنب عبدٌ ذنباً فقال : اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنـب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ما شئت فقد غفرت لك " [٣] .

ولذلك أوصى النبيﷺ النساء بكثرة الاستغفار ليكون سبباً لنجاتهن من النار فقال : " يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن من الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهـل النار " [٤] .

والاستغفار ضياءٌ في القلب ورضا للرب ونور في كتاب الأعمـال فعـن عبد الله بن بُسر قال : قال رسول الله ﷺ : " طوبى لمن وجـد فـي صـحيفته

---

[١] أحمد في المسند ٥٣٨/١٥ رقم ٢١٣٦٤ ، الترمذي كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاسـتغفار ومـا ذكر من رحمة الله بعباده ٣١٨/٥ رقم ٣٥٥١ ، وإسناده حسن .

[٢] أحمد في المسند ٦٢٠/١٦ رقم ٢٣٣١٤ ، وابن ماجة كتاب الأدب باب الاستغفار ١٢٥٤/٢ رقم ٣٨١٧ ، وإسناده ضعيف .

[٣] مسلم كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ٢١١٢/٤ رقم ٢٧٥٨ .

[٤] البخاري كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم ٤٨٣/١ رقم ٣٠٤ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات ٨٦/١ رقم ٧٩ .

استغفاراً كثيراً " [١] ، وهو النجاة والملجأ من الهلاك ، قال علي بن أبي طالب : العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل : وما هي ؟ قال : الاستغفار [٢] . وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه وتعالى عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه .

والذنوب أمراض والاستغفار دواؤها ، والذنوب أقذار والاستغفار ينظفها . قال قتادة : القرآن يدُلُّكم على دائكم ودواؤكم أما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار . [٣]

الفائدة الثانية

للاستغفار شروطٌ وآدابٌ تضمن قبوله وحصول أثره منها :

١) صدق النية وصحتها وحسن التوجه والأدب مع الله بمعرفة قدره وخشيته وإجلاله وأنه لا يتعاظمه ذنب ولا يحول دون قدرته شيء .

٢) الاعتراف بالذنب والتقصير ومعرفة حقيقة النفس فمتى اعترف المسلم بذنبه وندم عليه غُفِر له ، وفي الحديث : " العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه " . [٤]

٣) الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم العودة إليه ، قال تعالى في وصف المستغفرين :﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [٥] فالاستغفار باللسان مع التلبس بالذنب كالتلاعب بمقام الرب . قال بعض

[١] ابن ماجة كتاب الأدب باب الاستغفار ١٢٥٤/٢ رقم ٣٨١٨ ، البيهقي في شعب الإيمان ٤٤٠/١ رقم ٦٤٧

[٢] فيض القدير ٥٧/٦ .

[٣] شعب الإيمان للبيهقي ٤٢٧/٥ رقم ٧١٤٦ .

[٤] جزء من حديث الإفك الطويل وقد أخرجه : البخاري كتاب الشهادات باب تعديل النساء بعضهن بعضاً ٣١٩/٥ رقم ٢٦٦١ ، مسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٢١٢٩/٤ رقم ٢٧٧٠.

[٥] آل عمران : ١٣٥ .

السلف : المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه [١] ، وقال الفضيل بن عياض : استغفارٌ بلا إقلاع توبة الكذابين [٢] ، وفي مثل هذا الاستغفار تقول رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير [٣] ورؤي بعض الأعراب متعلِّقاً بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز فكم تتحبّب إليّ بالنعم مع غناك عني وأتبغّض إليك بالمعاصي مع فقري إليك يا من إذا وعد وفّى وإذا توعَّد تجاوز وعفا أدخل عظيم جُرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . [٤]

فإن ترك الإنسان الذنب نادماً على فعله عازماً على عدم العود إليه ثم غلبته شهوته وعاد إليه عاد إلى الاستغفار وفي الحديث عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ " ما أصرَّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة " [٥] ، وذكر النبي ﷺ السبعين مرة هنا على سبيل المبالغة والتكثير ورحمة الله تسع ذنوب العباد جميعاً .

٤) كثرة الاستغفار عقب الوقوع في الذنب لأن الذنب سيئة والاستغفار حسنة ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [٦] وفي الحديث : " أتبع السيئة الحسنة تمحها " [٧] وقد سبق حديث أبى بكر في هذا المعنى .

---

[١] عون المعبود لشمس الحق العظيم آبادي ٢٦٦/٤ ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٢٣/١٠ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٣١/٥ ، الأذكار للنووي ص ٤٨١ .

[٣] الأذكار : ٤٨١ .

[٤] الأذكار : ٤٨١ .

[٥] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٥/٢ رقم ١٥١٤ ، والترمذي كتاب الدعوات باب في دعاء النبي ﷺ ٣٢٧/٥ رقم ٣٥٧٠ ، وقال ليس اسناده بالقوى .

[٦] هود : ١١٤ .

[٧] أحمد في المسند ٥٠١/١٥ رقم ٢١٢٥١ ، والترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في معاشرة الناس ٣٩٧/٣ رقم ١٩٩٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والحاكم في المستدرك ١٢١/١ رقم ١٧٨ وصححه ووافقه الذهبي .

٥) الاستغفار في الأوقات الفاضلة ومنها :-

١- وقت السحر في الثلث الأخير من الليل لأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيُنادي من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأُعطيه من يستغفرني فأغفر له " [١] وقد وصف الله المتقين بقوله تعالى ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ ﴾ [٢] ، وقد وصف الله أهل الجنة بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝ ﴾ [٣] ، وقال خالد بن مَعدان : يقول الله عز وجل : إن أحب عبادي إليّ المتحابون بُحبي والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرين بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم . [٤]

٢- قبل النوم ففي الحديث من قال حين يأوي إلى فراشه : " أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أو عدد رمل عالج أو عـــدد

---

[١] البخاري كتاب الدعوات باب الدعاء نصف الليل ١٣٣/١١ رقم ٦٣٢١ ، ومسلم كتاب صـــلاة المســـافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ٥٢١/١ رقم ٧٥٨ .

[٢] الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

[٣] آل عمران : ١٦ ، ١٧ .

[٤] الزهد لعبد الله بن المبارك ١٣٩/١ رقم ٤١٢ ، حلية الأولياء لأبي نعيم ٢١٢/٥ .

ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا " [١]

٣- عقب الفراغ من الصلاة فعن ثوبان قال : كـان رسـول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً وقال : " اللهم أنـت السـلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام " فقيل للأوزاعي وهـو أحد رواة الحديث كيف الاستغفار ؟ قـال : يقـول : أسـتغفر الله أستغفر الله .[٢]

٤- في أثناء الصلاة في الركوع والسجود فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأويل القرآن" . [٣] ومعنى يتأوّل القران أي : يعمل بما أمر به في القرآن في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [٤] .

٦) اختيار الصيغ المأثورة التي حثنا النبي ﷺ على الاسـتغفار بهـا ومـن أهمها :-

أ) قال رسول الله ﷺ : " من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفـرت ذنوبـه وإن كـان قـد فـرَّ مـن الزحف " .[٥]

---

(١) أحمد في المسند ٣٦/١٠ رقم ١١٠١٦ ، والترمذي كتاب الدعوات باب ما جاء في الـدعاء إذا اوى إلـى فراشه ٢٥٥/٥ رقم ٣٤٠٨ وحسنه ، والحاكم في المسـتدرك ٦٩٢/١ رقـم ١٨٨٤ وصـححه ووافقـه الذهبي .

(٢) مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٤١٤/١ رقم ٥٩١ .

(٣) البخاري كتاب الأذان باب التسبيح والدعاء في السجود ٣٤٩/٢ رقم ٨١٧ ، ومسلم كتـاب الصـلاة بـاب ما يقال في الركوع والسجود ٣٥٠/١ رقم ٤٨٤ .

(٤) النصر : ٤ .

(٥) أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٧ ، الترمذي كتاب الدعوات ٣٣٦/٥ رقم ٣٥٨٨

ب) عن شدَّاد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : " سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " قال رسول الله ﷺ " من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة " [١] ، وإنما عُدّ هذا الدعاء سيداً للاستغفار لأنه جامعٌ لمعاني التوبة كلها ولذلك أمر النبي ﷺ بتعلُّمه ففي حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ " تعلَّموا سيد الاستغفار " [٢]

ج) عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يُكثرَ أن يقول : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلي " [٣] .

الفائدة الثالثة :

كان النبي ﷺ يُكثر من الاستغفار والتوبة تعليماً لأمته وتشريعاً لها ومعرفةً بمقام ربه وخوفاً منه ، وفي الحديث : " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " [٤] ، وعن ابن عمر قال : إنا كنا لنعد لرسول الله

---

[١] البخاري كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار ١١/١٠٠ رقم ٦٣٠٦ .

[٢] السنن الكبرى للبيهقي ٣/١٢١ رقم ١٠٣٠١ ، عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٣٣٤ .

[٣] سبق تخريجه .

[٤] البخاري كتاب الدعوات باب الاستغفار في اليوم والليلة ١١/١٠٤ رقم ٦٣٠٧ .

ﷺ في المجلس : " رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة " [١] .

وقد سبق في الحديث الماضي توجيه صدور الاستغفار من النبي ﷺ مع أن الله تعالى قد عصمه من جميع الذنوب وغفر له ما تقدم له من ذنبه وما تأخر ، وإنما أخبر النبي ﷺ أنه يكرر التوبة والاستغفار في اليوم الواحد مع أنه مغفور له ليقتدي به غيره بطريق الأولى ، لأن غيره يقول : إذا كان حال من تحقّق مغفرة ذنوبه هكذا كانت حال من هو من ذلك في شك أحرى وأولى .

والتوبة والاستغفار تقتضي صدور شيءٍ يُتاب منه إلا أن ذلك منقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء فتوبة العوام من السيئات وتوبة الخواص من الغفلات وتوبة خواص الخواص من الالتفات إلى الحسنات ، هكذا قال بعض أرباب القلوب وهو كلامٌ حسنٌ في نفسه بالغٌ في فنه . [٢]

الفائدة الرابعة :

ورد الاستغفار في القرآن على ضربين :

فتارةً يُذكر مفرداً كقول نوح لقومه ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [٣] وقول صالحٍ لقومه : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [٤] .

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار ٨٦/٢ رقم ١٥١٦ ، والترمذي كتاب الدعوات ٢٧٣/٥ رقم ٣٤٤٥ وقال : حسن صحيح .

[٢] المفهم ٢٨/٧ .

[٣] نوح : ١٠ .

[٤] النمل : ٤٦ .

فجعل الاستغفار طريقاً إلى نيل رحمة الله ، وكقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (2) .

فالاستغفار طريق الوقاية والنجاة من العذاب فإن الله لا يعذِّب مستغفراً ، وأما من أصرَّ على الذنب واستغفر فهذا ليس استغفاراً فلا يمنع العذاب ، والاستغفار إذا ذُكر مفرداً تضمَّن التوبة مع تضمن طلب المغفرة من الله تعالى بمحو الذنب وإزالة أثرة ووقاية شره فالاستغفار والتوبة يدخل كلّ منهما في مسمَّى الآخر عند الإطلاق ، (3) وتارةً يُذكر الاستغفار مقروناً بالتوبة كقول صالح لقومه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (4) ، وقول هود لقومه : ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ (5) ، وكقول شعيب لقومه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (6) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ (7) والاستغفار وصيه الله تعالى لعباده ووصية الأنبياء لأقوامهم ، لأنه طريق النجاة وسبيل الوقاية من العذاب والقرب من الله .

---

(1) البقرة : ١٩٩ .

(2) الأنفال : ٣٣ .

(3) مدارج السالكين لابن القيم ٣٤٤/١ ، ٣٤٥ .

(4) هود : ٦١ .

(5) هود : ٥٢ .

(6) هود : ٩٠ .

(7) هود : ٣ .

وإذا اقترن الاستغفار بالتوبة أُريد بالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى وبالتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من السيئات فها هنا ذنبان : ذنب قد مضى فالاستغفار منه طلب مغفرته ووقاية شره ، وذنب يخاف وقوعه فالتوبة هي العزم على أن لا يفعله وإنما قدَّم الله تعالى الاستغفار على التوبة لأن التخلية مقدمة على التحلية لأن الاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب لجلب المنفعة ، فالمغفرة أن يقيه الله شر الذنب ، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما لازم للآخر عند إفراده .

الدروس المستفادة من الحديث :

١) فضل الاستغفار وأهمية الإكثار منه .
٢) معرفة شروط وآداب الاستغفار والحرص على تطبيقها
٣) الاستغفار طريق السعادة في الدنيا والآخرة .
٤) الحرص على الاستغفار في الأوقات الفاضلة .
٥) رحمة الله بخلقه وتشريعه لهم مايصلح أحوالهم .

تحريم الغيبة

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما الغيبة ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم قال : (ذكرك أخاك بما يكره) قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٩ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة الدوسي ، وقد سبقت ترجمته .

معاني المفردات

أتدرون ما الغيبة ؟ : أي : أتعرفون حقيقتها الشرعية التي حرَّمها الله ؟ .

الغيبة : بكسر الغين وسكون الياء على وزن فِعْلة مأخوذة من الغَيبة بفتح الغين مصدر غاب ، لأنها ذِكرُ الرجل في حال غيابه بما يكره لو سمعه بالقول أو بالفعل أو بالإشارة يُقال : اغتاب فلانٌ فلاناً يغتابه اغتياباً والاسم : الغيبة .

أفرأيت : أي : أخبرني .

إن كان في أخي ما أقول : أي من العيب أيكون ذلك غيبة .

بهته : بفتح الباء والهاء وتشديد التاء المفتوحة يقال : بهته بَهَتاً وبَهْتاً وبُهتاناً أي قال عليه ما ليس فيه كذباً أو افتراءً وهو بهّات والبهتان هو : الباطل وافتراء الكذب .

المعنى الإجمالي للحديث :

حرَّم الله الغيبة وذمَّها في كتابه وحذَّر منها فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

فأراد النبي ﷺ أن يحدّد لأصحابه مفهومها الشرعي فاستخدم أحد أساليبه الناجحة في التعليم وهي طريقة السؤال والجواب ، فسألهم عنها فقالوا : الله ورسوله أعلم فردوا العلم إليهما عملاً بالأدب ووقوفاً عند حد العلم فأجابهم النبيﷺ معلماً ومرشداً فقال : هي أن تذكر أخاك بما يكره سواءً ذكرت ما يُسيئه ويكرهه إذا سمعه في نفسه أو فيمن يحب فإن ذكرت ما ليس فيه فهذا أشرُّ وأخبث وهو البهتان .

والمجتمع المسلم كالجسد الواحد ، والمسلمون تجمعهم أُخوَّة الإيمان ونسب العقيدة فيشيعون الخير ويكتمون الشر ويُسعدون إخوانهم ويكرهون إساءتهم يبنون قواعد مجتمعهم على المحبة والإخاء .

والغيبة تنقض ذلك وتهدمه لأنها تشيع الشر والفساد وتؤذي المسلمين ولذلك لا يستروح لها إلا أصحاب النفوس المريضة والفِطَر المعوجَّة ، فالغيبة

---

(١) الحجرات : ١٢ .

هي : شهوة الهدم للآخرين وهي شهوة النهش في أعراض المسلمين وكراماتهم وحرماتهم وهم غائبون ، والنبي ﷺ حرَّم أموال المسلمين ودمائهم وأعراضهم وجعلها متماثلة فقال في حجة الوداع " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " [١].

والغيبة دليلٌ على جبن فاعلها لأنها طعنٌ من الخلف ، فالمغتابون كالخفافيش لا تظهر إلا ليلاً في غيبة النور وهم لا يتكلمون إلا في غيبة من يتكلمون عنه ويعجزون عن الصراحة والمواجهة وهي من مظاهر الضعف والسلبية فالغيبة معول هدم وأداة فساد ومظهر ضعف وجبن .

وهواة الغيبة لا يسلم من طعنهم وجرحهم أحد ينسون عيوبهم ولا ينظرون إلا إلى عيوب الناس قال أبو هريرة : يبصر أحدهم القذاة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه . [٢]

ولذلك صوَّر القرآن الغيبة في صورة منفِّرة تتقزز منها النفوس وتنبو عنها الأذواق فقال : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .[٣]

والإنسان يأنف أن يأكل لحم إنسان فكيف إذا كان لحم أخيه وكيف إذا كان ميتاً ؟ ولقد أكد النبي ﷺ هذا التصوير القرآني في الأذهان وحرص على تثبيته في القلوب كلما لاحت فرصة لهذا التأكيد والتثبيت فعن ابن مسعود قال : كنا عند النبي ﷺ فقام رجل – أي انصرف من المجلس – فوقع فيه رجل من بعده

---

[١] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ١٩٨٦/٤ رقم ٢٥٦٤ .

[٢] الأدب المفرد للبخاري ص ٢٠٧ .

[٣] الحجرات : ١٢ .

فقال له النبي ﷺ : " تخلَّل " فقال : ومِمَّ أتخلل ؟ ما أكلتُ لحماً قال : " إنك أكلت لحم أخيك " [١] .

فالإسلام يُقدِّس الحرمة الشخصية للأفراد ويصونها ويمنع من الخوض فيها إلا عند الحاجة والضرورة سواءً بذكر العيوب الموجودة في الشخص أو بالافتراء والكذب ، قال الحسن البصري : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغيبة والإفك والبهتان ، فأما الغيبة فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه ، وأما الإفك أن تقول فيه ما بلغك عنه ، وأما البهتان فأن تقول ما ليس فيه . [٢]

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الغيبة هي : أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواءً ذكرته بنقصٍ في بدنه كوصفه بالعمش أوالحول أوالقصر ، أو نسبه بأن تقول أبوه هندي وتقصد الإساءة اليه أو فاسق أو زبال أو نحو ذلك ، أو في خُلُقه كأن تقول هو بخيل متكبر جبان ، أو في فعله المتعلق بالدين كقولك : هو سارق أو كذاب أو متهاون بالصلاة ، أو في فعِله المتعلق بالدنيا كقولك : إنه كثير الكلام ، كثير الأكل والنوم ، قليل الأدب ، أو في قوله أوفي دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته . [٣]

قال الراغب : هي أن يذكر الإنسان عيب غيره من غير حاجة إلى ذكر ذلك ، وقال ابن الأثير : الغيبة هي أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ١٠٢/١٠ رقم ١٠٠٩٢ وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٩٤/٨ وقال المنذرى ورواته رواة الصحيح الترغيب والترهيب ٢٩٨/٣ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦١٥٥/٩ .

[٣] إحياء علوم الدين للغزالي ١٣٥/٣ ، ١٣٦ .

فيه [١] ، وقال النووي : الغيبة هي : ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره سواءً كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خَلْقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو والـده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته و حركتـه وبشاشـته وخلاعته وعبوسه وطلاقته أو غير ذلك مما يتعلق به سواءً ذكرت بلفظـك أو كتابك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك حتى قال : وضابطه ذكره بما يكره . [٢]

وقد اختلف العلماء في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتـان أو متحـدتان والراجح التغاير وأن بينهما عموماً وخصوصاً وجهياً ، فالنميمة : نقـل حـال الشخص لغيره على جهة الإفساد وبغير رضاه سواءً كان ذلك بعلمـه أم بغيـر علمه ، والغيبة ذكره في غيبته واختصت الغيبة بكونها في غيبه المقـول فيـه واشتركتا فيما عدا ذلك . [٣]

الفائدة الثانية :

الغيبة محرَّمة بإجماع المسلمين وقد تظاهرت الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [٥] .

---

[١] النهاية في غريب الحديث ٣/٣٥٧ .

[٢] الأذكار للنووي ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

[٣] فتح الباري ١٠/٤٨٨ .

[٤] الحجرات : ١٢ .

[٥] الهمزة : ١ .

قال قتادة الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم [١] وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء : الهمزة : الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل ، واللمزة : الذي يغتابه من خَلفه إذا غاب . [٢]

أما السنة فالأحاديث التي جاءت في تحريم الغيبة والنهي عنها كثيرة ، فقد حذّر النبي ﷺ منها وبيّن ما يترتب عليها من الإثم والعقاب الشديد فقال ﷺ " لما عرج بي مررت بقومٍ لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " . [٣]

وجعلها النبي ﷺ من أربا الربا ، فعن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ قال : " إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق " . [٤]

وصوّر النبي ﷺ المغتاب بصورة آكل لحم أخيه كما صوره القرآن فقال ﷺ : " من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرّب له يوم القيامة فيُقال له : كله ميّتاً كما أكلته حيّاً فيأكله ويكلح ويصيح " [٥].

وقال ابن مسعود : ما التقم أحدٌ لقمة شراً من اغتياب مؤمن [٦] .

---

[١] تفسير ابن كثير ٥٤٨/٤ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٢٧١/١٠ .

[٣] أحمد في المسند ١٥٢/١١ رقم ١٣٢٧٣ ، أبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧١/٤ رقم ٤٤٧٨ ، وإسناده صحيح .

[٤] أحمد في المسند ٢٩٧/٢ رقم ١٦٥١ ، أبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧٠/٤ رقم ٤٨٧٦ وإسناده صحيح .

[٥] المعجم الأوسط للطبراني ١٨٢/٢ رقم ١٦٥٦ ، قال الهيثمي : فيه ابن إسحاق وهو مدلس ومن لم أعرفه مجمع الزوائد ٩٢/٨ ، وقال المنذري : فيه محمد بن إسحاق وبقية رواته ثقات الترغيب والترهيب ٢٩٩/٣ ، وقال ابن حجر : سنده حسن فتح الباري ٤٨٥/١٠ .

[٦] الأدب المفرد للبخاري ٢٥٥/١ رقم ٧٣٤ .

والصحيح فهم هذا الحديث على ظاهره وحقيقته ومما يؤكِّد ذلك أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : إن فلانة وفلانة صائمتان وقد بلغتا الجهد فقال : " ادعهما " فقال لإحداهما : " قيئي " فقاءت لحماً ودماً عبيطاً وقيحاً والأخرى مثل ذلك ، فقال رسول الله ﷺ " صامتا عما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله عليهما أتت إحداهما الأخرى فلم يزالا يأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحاً " [(١)] ، فهذا شاهد لإجراء الآية والحديث على ظاهرهما . [(٢)]

ولما اعترف ماعز بالزنا ورجمه رسول الله ﷺ بعد إقراره متطوعاً وإلحاحه على النبي ﷺ أن يطهره بإقامة الحد عليه ، سمع النبي ﷺ رجلاً يقول لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ؟ ثم سار النبيُ ﷺ حتى مرّ بجيفة حمار فقال : " أين فلان وفلان " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : " فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " . [(٣)]

ويترتب على أكل المغتاب لحم أخيه نتن رائحته ، فعن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ فهاجت ريح منتنة فقال النبي ﷺ : " هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين " [(٤)] ، ومرّ النبي ﷺ على قبرٍ يُعذَّب صاحبه فقال : " إن هذا كان يأكل

---

(١) أحمد في المسند ٦٦/١٧ رقم ٢٣٥٤٣ ، قال الهيثمي : إسناده ضعيف فيه راو لم يسم مجمع الزوائد ١٧١/٣ .

(٢) دليل الفالحين ٣٦٠/٤ .

(٣) المنتقى لابن الجارود ص ٢٠٦ رقم ٨١٤ ، سنن الدارقطني ١٩٦/٣ رقم ٣٣٩ ، وقال ابن كثير : إسناده صحيح ، تفسير القرآن العظيم ٢١٥/٤ .

(٤) أحمد في المسند ٥٤٠/١١ رقم ١٤٧٢٠ ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمع الزوائد ٩١/٨ .

لحوم الناس " [١] ، ومرَّ على قبرين فقال : " إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير" وقال " وما يعذبان إلا في البول والغيبة " [٢] .

وقد جمع العلماء بين هاتين الخصلتين والتعذيب عليهما في القبر فقالوا : إن البرزخ مقدمة للآخرة وأول ما يُقضى فيه يوم القيامة من حقوق الله : الصلاة ومن حقوق العباد : الدماء ، ومفتاح الصلاة : التطهر من الحدث ، ومفتاح الدماء : الغيبة والسعي بين الناس بالنميمة . [٣]

وقد حذَّر النبي ﷺ ضعاف الإيمان من الوقوع في الغيبة فقال : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته " [٤]

ووصَّى النبي ﷺ الأمة جميعاً في حجة الوداع بصيانة الدماء والأموال والأعراض فقال ﷺ : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " [٥] .

والغيبة شرها عظيم وضررها كبير وتأثيرها واسع وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً فيما تحكيه أم المؤمنين عائشة قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا – تعني أنها قصيرة – فقال لها رسول الله ﷺ : " لقد قلتِ كلمةً

---

[١] المعجم الأوسط للطبراني ٤٢/٣ رقم ٢٤١٣ ، وقال الهيثمي : فيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وبقية رجاله ثقات مجمع الزوائد ٩٣/٨ ، وقال ابن حجر : رواته موثقون فتح الباري ٤٨٥/١٠ .

[٢] أحمد في المسند ١٩٦/١٥ رقم ٢٠٢٥٢ ، وابن ماجة كتاب الطهارة باب التشديد في البول ١٢٥/١ رقم ٣٤٩ وإسناده صحيح .

[٣] فتح الباري ٤٨٧/١٠ .

[٤] أحمد في المسند ٦٢٦/١٧ رقم ٢٥٤٣٦ ، وأبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧١/٤ رقم ٤٨٨٠ وإسناده صحيح .

[٥] سبق تخريجه .

لو مزجت بماء البحر لمزجته " [١] ، وقال الإمام النووي : هذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها وما أعلم شيئاً من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ . [٢]

وكما حرم الإسلام الغيبة بالقول فقد حرمها بالإشارة والتعريض والكتابة والرمز والتقليد طالما قصدها التجريح والإساءة ، فعن عائشة قالت : حكيت للنبي إنساناً – أي قلَّدته – فقال رسول الله ﷺ : " ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا " [٣] .

وقد أدرك السلف الصالح خطورة الغيبة فضربوا أروع الأمثلة في الامتناع عنها كما أكثروا التحذير منها .

قال عمر بن الخطاب : إياكم وذكر الناس فإنه داء وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذة في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه .

وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوب نفسك .

وقال أبو عاصم النبيل : ما اغتبت أحداً منذ عرفت ما في الغيبة .

---

[١] أحمد في المسند ٦٢٦/١٧ رقم ٢٥٤٣٦ ، وابو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧٠/٤ رقم ٤٨٧٥ ، الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٢٢٥/٤ رقم ٢٥١٠ .

[٢] الأذكار للنووي ص ٣٩٦ .

[٣] جزء من الحديث السابق .

وسمع علي بن الحسين رجلاً يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار ، وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك فقال : إياه فارحموا ، وقال رجل للحسن البصري : بلغني أنك تغتابني فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أُحَكِّمك في حسناتي ، ولذلك قال عبد الله بن المبارك : لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديَّ لأنهما أحق بحسناتي .

وقيل للحسن إن فلاناً اغتابك فأهدى إليه طبقاً من رطب ، فأتاه الرجل فقال له : اغتبتك فأهديت إليّ فقال له الحسن : أهديت إليَّ حسناتك فأردت أن أكافئك ، وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فساداً في دين المرء من الأكلة في الجسد ، وقيل للربيع بن خُثَيم : ما نراك تعيب أحداً فقال : لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس ثم أنشد .

لنفسي أبكي لست لغيرها ** لنفسي عن نفسي من الناس شاغل

وكان الصحابة لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس [١] ، ويمثل هذا الأدب العالي والخلق الرفيع تطهَّر المجتمع الإسلامي وارتفع وانتهى إلى ما صار إليه حلماً يمشي على الأرض ، ومثالاً يتحقق في واقع التاريخ . [٢]

الفائدة الثالثة :

أجمع المسلمون على تحريم الغيبة ولكنهم اختلفوا في عدّها من الصغائر أم من الكبائر فذهب بعض العلماء إلى اعتبارها صغيرة ، وذهب جمهور العلماء

---

[١] راجع : إحياء علوم الدين للغزالي ٢١٣٥/٣ ، الزواجر عن اقتراف الكبائر للحافظ الهيثمي ١٨/٢ .

[٢] في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ٣٣٤٧/٦ .

إلى عدِّها كبيرة حتى نقل الإمام أبو عبد الله القرطبي المفسر الإجماع على أنها من الكبائر [١] .

واستدلوا بالأحاديث الكثيرة الواردة في ذم الغيبة وتوعُّد فاعلها بالعـذاب الأليم وقالوا : الكبيرة ما قُرن بها وعيدٌ شديد وقد وُعِد المغتاب بالعذاب الشديد .

قال الأذرعي : إطلاق القول بأنها من الصغائر ضعيف أو باطل ومن تتبع الأحاديث علم أنها من الكبائر . [٢]

وقال ابن حجر الهيثمي : الذي دلت عليـه الـدلائل الكثيـرة الصـحيحة الظاهرة أنها كبيرة لكنها تختلف عِظماً وضده بحسب إختلاف مفسدتها ، وظهر أيضاً أنها الداء العضال والسم الذي في الألسن أحلى من الزلال ، ويقال : للغيبة حلاوة كحلاوة التمر وضراوة كضراوة الخمر ، وقد جعلها من أوتـي جوامـع الكلم عديلة غصب المال وقتل النفس بقوله " كل المسلم على المسلم حرام دمـه وماله وعرضه " .

والغصب والقتل كبيرتان إجماعاً فكذا ثلم العرض [٣] قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [٤] ، وفي الحديث " الغيبة أشد من الزنا " . [٥]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي ٦١٥٧/٩ .

[٢] الزواجر ١٩/٢ .

[٣] الزواخر ٢٢/٢ .

[٤] الأحزاب : ٥٨ .

[٥] الطبراني في المعجم الأوسط ٣٤٨/٦ رقم ٦٥٩٠ ، وقال الهيثمي : فيه عباد بن كثير الثقفي وهو متـروك مجمع الزوائد ٩١/٨ ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على سـفيان الثـوري ٣٠٥/٥ وفـي =

وذهب البعض إلى أن الإسلام حرَّم جميع صورها ولكنها تختلف اختلافاً كبيراً بحسب خفتها وثقلها وإيذاءها ، فإذا كانت الغيبة في حق العلماء والأولياء أو في عيب الدين كأن يقول إنه فاسق أو فاجر صارت كبيرة ، وإن كانت دون ذلك كعيب الجسم أو الدابة ونحو ذلك فهي من الصغائر لخفة التأذِّي بالوصف بها فوصفها بأنها كبيرة أو صغيرة يرتبط بالأذى الذي تُلحقه بالآخرين فإن عظُم فهي كبيرة وإن خفّ فهي صغيرة .

الفائدة الرابعة :

الأصل في الغيبة الحرمة ولكنها قد تكون واجبة وقد تكون مندوبة أو مباحة لغرضٍ شرعي صحيح لا يُتوصل إليه إلا بها وتنحصر في ستة أبواب :

الأول : عند التظلُّم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول له : ظلمني فلان أو فعل بي كذا ، فقد رخَّص الله له في التظلم والشكوى قال تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ . [١]

الثاني : الاستفتاء بأن يقول للمفتي ظلمني أبي أو أخي أو فلان وفعل بي كذا فماذا أفعل ، وما طريقي إلى الخلاص منه ، وكيف أدفع ظلمه عنه ؟ ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة وإن كان الأحوط أن يقول : ما الحكم في رجل ظلمه أخوه وفعل به كذا ، وإن كان التعيين جائزاً لأن المفتي قد يدرك من تعيينه معنى لا يدركه مع إبهامه ، فكان في التعيين مصلحة ، واستدلوا بحديث هند بنت عتبة حيث قالت للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل

طرقه جميعاً زيادة قيل : كيف يا رسول الله ؟ فقال : الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه .

[١] **النساء** : ١٤٨ .

شحيح وليس يُعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم قال : " خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف " . [١]

الثالث : عند تحذير المسلمين ونصيحتهم ولذلك صور متعددة منها :-

(أ) إذا رأيتَ من يشتري شيئاً معيباً وهو يجهله فلا بأس من ذكره للمشتري نصيحةً لا بقصد الإيذاء والإفساد .

(ب) إعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده إذا كان فاسقاً ظالماً أو كان لا يقوم بولايته على وجهها الصحيح لعدم أهليته فيلزمه الإصلاح والعدل .

(ج) عند الاستشارة في نكاح أو عقد من العقود فيجب على من استُشير في ذلك وهو يعلم في المُستشار فيه عيباً قبيحاً منفِّراً كالفسق والبدعة أن يذكره مع الاقتصار على أقل الكلمات كقوله : لا يصلح لك ثم إن استلزم الأمر ذكر العيب ذكره دون زيادة ، لأن ذلك كإباحة الميتة للمضطر فلا يجوز تناول شيء منها إلا بقدر الضرورة وأن يقصد بذلك النصيحة لوجه الله تعالى ، ومما يؤكِّد ذلك ما حكته فاطمة بنت قيس قالت : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطباني فقال رسول الله ﷺ : " أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه " [٢] ، وفي رواية " وأما أبو

---

[١] البخاري كتاب النفقات باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٤١٨/٩ رقم ٥٣٦٤ ، مسلم كتاب الأقضية باب قضية هند ١٣٣٨/٣ رقم ١٧١٤ .

[٢] مسلم كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١١١٤/٢ رقم ١٤٨٠ .

الجهم فضرّاب للنساء " [1] فهنا تعارضت النصيحة مع صيانة العرض فقُدِّمت النصيحة لأهميتها .

(د) عند جرح رواة الحديث والشهود والمصنفين وذلك جائز بالإجماع ، قال النووي : بل واجب صوناً للشريعة [2] ، وقال القرطبي : هذه أمورٌ ضرورية في الدين معمول بها مجمعٌ من السلف الصالح عليها . [3]

(ه) إذا رأى متفقهاً يتردد على مبتدع أو فاسق وخاف عليه أن يتأثَّر به ويقتدي به فلا بأس من تحذيره منه ببيان حاله قصداً للنصيحة .

الرابع : عند الاستعانة على تغيير المنكر فيقول لمن يرجو قدرته على إزالته : فلان يعمل كذا فازجره عنه بقصد التوصل إلى إزالة المنكر .

الخامس : عند المجاهرة بالفسق والظلم والبدعة وإعلان المعصية والتبجُّح بها كمن يشرب الخمر ويظلم الضعفاء ونحو ذلك فيجوز ذكر هؤلاء بما يجهرون به دون غيره فيحرم ذكرهم بعيب آخر إلا عند الحاجة والضرورة لقول النبي ﷺ : " ليُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته " [4] ، وقال الحسن ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر ، وقال أيضاً : ليس لأهل البدع غيبة .

---

[1] مسلم كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١١١٩/٢ رقم .

[2] شرح صحيح مسلم للنووي ١٤٢/١٦ .

[3] المفهم ٥٧١/٦ .

[4] أحمد في المسند ٤٨٥/١٤ رقم ١٩٣٥٥ ، أبو داود كتاب الأقضية باب الحبس في الدين وغيره ٣١٢/٣ رقم ٣٦٢٨ وإسناده صحيح .

السادس : إذا كان الشخص معروفاً بلقبه مشهوراً به وليس فيه إطراء ومدح مما نهى عنه الشرع ويُعجب الملقب به فهو جائز أو مستحب .

وإن كان لا يعجبه ويكره أن يعرف به فهو حرام أو مكروه قال تعالى ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾ [١] ولا يجوز إلا إذا كان الشخص لا يُعرف ولا يتميز عن غيره إلا به وبحيث لا يُراد عند إطلاقه عليه تنقيصه وذمه بل تعيينه والتعريف به .

ولذلك أكثر الرواة من نحو الأعمش والأعرج ونحوهما ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: " أكما يقول ذو اليدين ؟ " [٢] لأنه كان معروفاً بذلك مشهوراً به ، وهذا مذهب جمهور العلماء ولذلك ترجم البخاري في صحيحه باب : ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم : الطويل والفقير ، وقال النبي ﷺ ما يقول ذو اليدين ، وما لا يُراد به شين الرجل . [٣]

قال ابن المنير : اشار البخاري إلى أن ذكر مثل هذا إن كان للبيان والتمييز فهو جائز وإن كان للتنقيص لم يجز [٤] ، ولذلك لمَّا دخلت امرأةٌ على السيدة عائشة فأشارت بيدها أنها قصيرة قال لها النبيﷺ : " اغتبتيها " [٥] وذلك لأنها لم تفعل هذا بياناً وإنما قصدت الإخبار عن صفتها فكان كالاغتياب . [٦]

---

[١] الحجرات : ١١ .

[٢] البخاري كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٦٧٤/١ رقم ٤٨٢ .

[٣] البخاري كتاب الأدب ٤٨٣/١٠ .

[٤] فتح الباري ٤٨٤/١٠ .

[٥] أحمد في المسند ٣٥/١٨ رقم ٢٥٥٨٤ وإسناده صحيح .

[٦] فتح الباري ٤٨٤/١٠ .

ولذلك قال معاوية بن قرة : لو مرّ بك رجلٌ أقطع فقلت :هذا أقطع كـان غيبة ، وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور . وذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذا الرجل الأسود ثم قال : أستغفر الله إني أراني قد اغتبته .[1]

وهذه الأمور الستة منها الواجب والمندوب والمباح وإنما أُبيحت إذا لم يُغن غيرها فإذا أغنى التعريض أو التلويح حرم التنصيص والتصريح لأن ذلك أمـرٌ ضروري والضروري يقدَّر بقدر الحاجة .[2]

والضابط العام لإباحة هذه الصور هي : الحاجة الماسة إلى ذكر الغائـب بما يكره ، والنية فيريد النصح والإخبار لا التجريح والتشفي .[3]

الفائدة الخامسة :

إذا أراد المغتاب التوبة فطريق التوبة هو الإقلاع عنها والندم عليها والعزم على عدم العودة إليها وهذا متفقٌ عليه بين العلماء ، ثم اختلفوا هل يُشـترط أن يستحل من اغتابه أم لا على ثلاثة مذاهب :

الأول : ليس عليه استحلاله ، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه وأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس ذلك بمظلمة يسـتحلها منـه ، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن وهذا خطـأ لأن الغيبة مظلمة إن لم يأخذها في الدنيا أخذها حسـنات يـوم القيامـة ولذلك أوجب الإسلام حد القذف وهو في العرض فثبت أن ذم العـرض مظلمة .

---

[1] إحياء علوم الدين ١٣٦/٣ .

[2] المفهم٧١/٥ .

[3] الأذكار للنووى ص ٤٠٠-٤٠٢ .

الثاني : الغيبة مظلمة وكفارتها : الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه والدعاء لــه ، واستدلوا بحديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قــال : " كفــارة مــن اغتبته أن تستغفر له " [١] ، وقال الحسن : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته [٢] ، وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتــدعو له بخير . [٣] .

وهذا تناقضٌ إذ عدّها مظلمة يثبت حقها للمظلوم فإذا ثبتت الظلامة لم يُزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له والحديث ضعيف لا تثبت بــه حجة ، وقول الحسن ومجاهد لا تثبت به حجــة خاصــةً إذا عارضــه الحديث الصحيح .

الثالث : الغيبة مظلمة وكفارتها الاستحلال منها واستدلوا بحديث النبي ﷺ قال : " من كانت له مظلمة من أخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليــوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقــدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه " . [٤]

وسُئل عطاء عن كفارة الغيبة فقال : أن تمشي إلى صاحبك فتقول لــه : كذبتُ فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئتَ أخذت بحقــك وإن شــئت عفــوت ، قال الغزالي : وهذا هو الأصح [٥] ، وقال القرطبي : دلت الآثــار علــى أنهــا

---

[١] البيهقي في شعب الإيمان ٣١٧/٥ وإسناده ضعيف ، راجع : كشف الخفاء للعجلوني ١٠٢/٢ رقم ١٩٣٠

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦١٥٧/٩ .

[٣] إحياء علوم الدين ١٤٥/٣ .

[٤] البخاري كتاب المظالم والغصب باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يُبَــيِّن مظلمتــه ١٢١/٥ رقم ٢٤٤٩ .

[٥] إحياء علوم الدين : ١٤٥/٣ .

مظلمة يجب على المغتاب استحلالها [١] ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لامرأة قالت لأخرى : إنها طويلة الذيل فقالت لها : قد اغتبتيها فاستحليها [٢] .

فلابد من الاستحلال إن قدر عليه فإن كان غائباً أو ميتا او ظن أن إخباره سيترتب عليه ضرر أو أذىً فينبغي أن يُكثر الاستغفار والدعاء له ويكثر من الحسنات والله قادر أن يرضيه عنه يوم القيامة ويعفو عنه .

والظاهر أن الله تعالى حرم الغيبة لأنها إيذاءٌ للمؤمنين وإلحاق الأذى بالمؤمنين حرام ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ ﴾ [٣] فإذا أُخبر الشخص بما قيل في حقه فالاستحلال واجب حينئذ ، وإذا لم يعلم فلا يشترط الاستحلال لأنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذّى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريق التوبة حينئذٍ أن يُثني عليه بما فيه خاصة في المجالس التي كان يذُمُّه ويغتابه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك . [٤]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن ٦١٥٨/٩ .

[٢] الجامع لأحكام القرآن ٦١٥٨/٩ .

[٣] الأحزاب : ٥٨ .

[٤] تفسير ابن كثير ٢١٦/٤ .

الدروس المستفادة من الحديث :

١- وجوب صيانة أعرض المسلمين وحرمة الخوض فيها .

٢- المفهوم الشرعي للغيبة أنها ذكرك أخاك في غيبته بأمرٍ يكرهه لو بلغه حتى وإن كان فيه وكنت صادقاً .

٣- تحريم إيذاء المؤمن بأي صورةٍ كان الإيذاء .

٤- تحريم الغيبة وأنها قد تصل إلى كبائر الذنوب .

٥- لا تجوز الغيبة إلا لغرضٍ شرعي صحيح ، وقد تكون واجبة أو مندوبة أو مباحة بشرط الحاجة إليها ووجود نية النصح .

٦- وجوب التوبة على المغتاب واستبدال مجالس المعصية بمجالس الطاعة .

وجوب صيانة الأعراض

عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال : (من رَدّ عن عِرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

(أ) أحمد في المسند ١٨/٥٧٩ رقم ٢٧٤٠٧ وقال محققه : إسناده حسن ، وفي ١٨/٥٨١ رقم ٢٧٤١٤ وقال محققه : إسناده صحيح .

(ب) الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الذَبِّ عن عِرض المسلم ٣/٣٧٤ رقم ١٩٣٨ وقال : هذا حديث حسن .

(ج) البيهقي في شعب الإيمان ٦/١١١ رقم ٧٦٣٥ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الإمام القدوة والصحابي الجليل قاضي دمشق : عويمر بن زيد بن قيس أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي ، مشهور باسمه وكنيته جميعاً ، كان من آخر الأنصار إسلاماً ، وكان يعبد صنماً فدخل عبد الله ابن رواحة ومحمد بن مسلمة بيته فكسروا صنمه فرجع فجعل يجمع الصنم ويقول : ويحك هلاّ امتنعت ألا دفعتَ عن نفسك ، فقالت أم الدرداء : لو كان ينفع أو يدفع عن أحدٍ دفع عن نفسه ونفعها .

فقال أبو الدرداء : أعدّي لي ماءً في المغتسل فاغتسل ولبس حُلّته ثم ذهب إلى النبي ﷺ فنظر إليه ابن رواحة مقبلاً فقال : يا رسول الله هذا أبو الدرداء

وما أراه إلا جاء في طلبنا ؟ فقال ﷺ : " إنما جاء ليُسلم إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يُسلم " . [١]

أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأبلى فيها بلاءً حسناً حتى قال رسول الله ﷺ : " نِعم الفارس عويمر " [٢] ، رُزق الحكمة وحُسن الفهم حتى أُطلق عليه حكيم الأمة ، وقال عنه رسول الله ﷺ : " هو حكيم أمتي " [٣].

جمع القرآن في حياة النبي ﷺ ثم تصدَّر لإقراء القرآن بدمشق في خلافة عثمان فكان يجتمع في حلقته أكثر من ألف رجل فيجعل لكل عشرةٍ منهم مُلقِّناً ثم يطوف عليهم قائماً فإذا أحكم الرجل منهم – أي أتقن القراءة – تحوَّل إلى أبي الدرداء ليعرض عليه ، فكان سيِّد القُرَّاء في دمشق .

وكان مجتهداً في العبادة يصوم النهار ويقوم الليل ويُكثر من الذكر وتلاوة القرآن ، قيل له : كم تسبِّح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا أن تُخطئ الأصابع [٤] وقد عرف الصحابة فضله وقدره فكانوا يقولون : أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء . [٥]

ولما حضرت الوفاة معاذاً قال لأصحابه : التمسوا العلم عند أربعة عند : أبي الدرداء وسلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام . [٦]

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣٤٠/٢ ، المستدرك للحاكم ٣٨٠/٣ .

[٢] مسند الشاميين للطبراني ٨٨/٢ رقم ٩٦٧ ، وانظر : تهذيب الكمال ٤٧٣/٢٢ ، سير الأعلام ٣٣٨/٢ .

[٣] مسند الحارث بن أبي أسامة مع زوائد الهيثمي ٩٢٥/٢ رقم ١٠١٩ ، مسند الشاميين للطبراني ٨٨/٢ رقم ٩٦٧ .

[٤] سير الأعلام ٣٤٨/٢ .

[٥] التاريخ الكبر للبخاري ٧٦/٧ .

[٦] المعجم الكبير للطبراني ١١٦/٢٠ ، التاريخ الصغير للبخاري ٧٣/١ رقم ٢٨٤ .

وقال له أبو ذر : ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء أعلم منك يـا أبـا الدرداء .[1]

وقال يزيد بن معاوية : إن أبا الدرداء من العلماء الفقهاء الذين يشفون من الداء .[2]

وكان ابن عمر يقول : حدِّثونا عن العاقلَيْن فيُقال من العاقلان ؟ فيقـول : معاذ وأبو الدرداء .[3] ومن أقواله المأثورة :

إن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله فإذا أبغضه الله بغّضه إلى عباده

وقال : تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة .

وقال : لولا ثلاث ما أحببت البقاء : ساعة ظمأ الهواجر والسجود في الليل ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما تنتقى أطايب التمر .

وتحكي عنه زوجه أم الدرداء فتقول : كان لأبي الدرداء ستون وثلاثمائـة خليل في الله يدعو لهم في الصلاة فقلت له في ذلك فقال : إنه ليس رجلٌ يـدعو لأخيه في الغيب إلا وكّل الله به ملكين يقولان : ولكَ بمثل أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة .[4]

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ مائةً وتسعةً وسبعون حديثاً ، اتفق الشيخان على حديثين منها وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بثمانية .

---

[1] سير الأعلام ٣٤٣/٢ .
[2] حلية الأولياء ٢٢٥/١ .
[3] الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢٧/٧ .
[4] راجع سير الأعلام ٣٤٧/٢ – ٣٥٠ .

كما روى عن زيد بن ثابت وأبو أمامة وفضالة بن عبيد وغيرهم ، وروى عنه من الصحابة : أنس بن مالك وعبد الله بن عمرو وأبو أمامة وغيرهم وروى عنه خلق من التابعين منهم : سعيد بن المسيب وأبو إدريس الخولاني وعطاء بن يسار وخالد بن معدان وجبير بن نفير وزوجه أم الدرداء وابنه بلال وغيرهم .

لمَّا حضره الموت جعل يقول : من يعمل لمثل يومي هذا ؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا ؟ توفي سنة اثنتين وثلاثين ، فرضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

ردّ : الرد هو صرف الشيء ورجعه والمراد هنا : منع الغيبة عن أخيه .

عرض : العرض هو : موضع المدح والذم من الإنسان سواءٌ كان في نفسه أو في سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن يُنتقص ويُثلب ، وقال ابن قتيبة : عرض الرجل نفسه وبدنه لا غير . (١)

أخيه : المراد أخوه في الإسلام وهو أعم من أخوة النسب قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ ﴾ .(٢)

ردّ الله عن وجهه النار : أي صرف الله عن وجه الرادّ نار جهنم ، **قال المناوي** : أى عن ذاته العذاب وخُصَّ الوجه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام وأشد في الهوان . (٣)

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١٨٩/٣ .

(٢) الحجرات : ١٠ .

(٣) فيض القدير ١٣٥/٦ .

المعنى الإجمالي للحديث

المسلمون جميعاً إخوة تربطهم العقيدة وتجمع بينهم أحكام الشريعة فيشعرون أنهم جسدٌ واحد يجلب لنفسه النفع ويدفع عنه الضر ، فإذا امتدت يدٌ لإيذاء هذا الجسد دون غرضٍ صحيح ومصلحةٍ شرعية امتدَّت إليه الأيدي تمنعه وتحول بينه وبين ذلك فيحتفظ الجسد بصحته ونضرته وقوته .

فإذا أصاب المرض جزءاً منه وامتد بالأذى نحو غيره وجب كفُّه عن ذلك ولو أدّى ذلك إلى بتره ، والتضحية بالأقل واجبة في سبيل الحفاظ على الأكثر وحق المجتمع مقدَّم على حق الفرد فإن تُرك المرض يسري فيه دون علاج دبّ فيه الخَوَر وأضعفه المرض وأنهكه الضعف وقضى عليه الفساد .

والنبي ﷺ في هذا الحديث يلفت نظرنا إلى أهمية صيانة المجتمع من أسباب الضعف فإذا حاول إنسان ذكر آخر بسوء في غيبته دون حاجة شرعية فالواجب على جلسائه أن يمنعوه من ذلك وينصحوه ويُحذِّروه من خطورة الغيبة وما يترتب عليها من ضرر وإثم فإذا فعلوا ذلك ردّ الله عن وجوههم النار يوم القيامة جزاءاً وفاقاً لأنهم ردّوا المغتاب إلى الحق وحالوا بينه وبين العذاب فجازاهم الله برد العذاب عنهم يوم القيامة .

ولأنهم ردُّوا عن المغتاب ما يُقال في حقه في غيبته ، وأحسنوا الظن به فكافئهم الله برد النار عنهم وعتقهم منها وجعل من عملهم هذا حجاباً بينهم وبينها فعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال : " من ردَّ عن عرض أخيه الغيبة كان حقاً على الله أن يُعتقه من النار " . [١]

---

[١] أحمد في المسند ٦٠١/١٨ رقم ٢٧٤٨١ ، وإسناده صحيح .

وقد عدّ العلماء من حقوق الأخ على أخيه : رد غيبته والدفاع عنه وإحسان الظن به ونشر حسناته وستر سيئاته ، وعدّوا نقيض ذلك نقصاً يحبط الأخوة .

قال الغزالي : فأخسس بأخٍ يراك والكلاب تفترسك وتُمزّق لحومك وهـو ساكت لا تُحرّكه الشفقة والحميَّة للدفاع عنك ، وتمزيق الأعراض أشـد علـى النفوس من تمزيق اللحوم . [١]

ولذلك قال أحد الصالحين : ما ذُكر أخٌ لي بغيبةٍ إلا تصوَّرته جالساً فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو كان حاضراً .

وبهذا يسلم المجتمع من الفساد ويخلو من الضعف ويأمن فيه الأفراد على أعراضهم كما أمنوا على دمائهم وأموالهم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

حرَّم الإسلام الغيبة وجعلها من كبائر الذنوب صوناً للأعراض أن تُنتهـك وحمايةً للمجتمع أن يدُبَّ الوهن في أركانه ، فإذا غفل مسلم عن ذلك ووقع فيها بجهلٍ أو شهوة فالواجب على جلسائه الإنكار عليه ونهيه عن ذلك والدفاع عـن المسلم في غيبته وحسن الظن به ، وفي الحديث : " من ذبّ عن عرض أخيـه الغيبة كان حقاً على الله أن يُعتقه من النار " . [٢]

فالمسلم يُحب إخوانه ويدعو لهم ويثني عليهم بما عرف من طيّب أعمالهم وقلبه خالٍ من الغل والحقد والحسد قـال تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ

---

[١] إحياء علوم الدين ١٦٥/٢ .

[٢] هو حديث أسماء السابق تخريجه .

يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .[١]

فإذا أصرَّ المغتاب على معصيته فالواجب على المسلم أن يعتزل مجلسه لأن المستمع شريك المغتاب والراضي كالفاعل ، فالإعراض عنه واجب حتى يخوض في حديثٍ غيره حتى لا يدخل في سخط الله ويكون شريكاً في الإثم ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾[٢] وقال أيضاً : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] .

ولأن من كذب لك أوشك أن يكذب عليك ، ومن اغتاب غيرك عندك أوشك أن يغتابك عند غيرك ، سنة الله في عبادة ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

قال القرطبي : فكل من جلس في مجلس معصية ولم يُنكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء ، وينبغي أن يُنكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .

---

[١] الحشر : ١٠ .
[٢] النساء : ١٤٠ .
[٣] الأنعام : ٦٨ .

وقد رُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوماً يشربون الخمر فقيل لـه عن أحد الحاضرين : إنه صائم فحمل عليه الأدب ، وقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [١] ، أي أن الرضا بالمعصية معصية ، ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة العاصي حتى يهلكوا بأجمعهم . [٢]

فالإسلام حينما يُحرِّم شيئاً يُحرِّم الرضا به أو الاشتراك فيه ، لأن الإنسان ربما سمع الغيبة فأنكرها ثم يسمعها فيصمت حتى يألف سماعها وربما شـارك فيها ، وفي الحديث : " من كان يؤمن الله واليوم الآخر فلا يجلس علـى مائـدة عليها الخمر " [٣] ولو لم يشربها .

وقد يُظهر المستمع تعجُّبه من الغيبة وما يقصد بـذلك إلا زيـادة نشـاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق فيقول له : عجيبٌ هذا ما علمت أنه كذلك ما عرفت عنه إلا خيراً كنت أحسب أنه غير ذلك عافانا الله من بلائه .

قال الغزالي [٤] فإن كل ذلك تصديقٌ للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبـة ، بل الساكت شريك المغتاب والمستمع أحد المغتابين ، والأدلة على ذلـك كثيـرة منها :

لمَّا اعترف ماعز على نفسه بالزنا ورجمه رسول الله ﷺ سمع النبـي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم

---

[١] النساء : ١٤٠ .

[٢] تفسير القرطبي ١٩٨٨/٣ .

[٣] الطبراني في المعجم الكبير ١٩١/١١ رقم ١١٤٦٢ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧١/٤ رقـم ٦٧٤١ ، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢/٥ رقم ٥٥٩٦ .

[٤] إحياء علوم الدين ١٣٨/٣ .

تَدَعه نفسه حتى رُجم رَجم الكلب ، فسكت عنهما ثم سار ساعةً حتى مرَّ بجيفة حمار شائل برجله ، فقال ﷺ : " أين فلان وفلان ؟ " فقالا : نحن ذا يا رسول الله قال : " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار " فقالا : يا نبي الله من يأكل من هذا ؟ قال : " فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من أكلٍ منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها " . (١)

فانظر كيف جمعهما وشَرَك بينهما في الإثم مع أن القائل واحد والثاني مستمع .

وعن أنس بن مالك قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار ، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فقاما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعاماً فقال أحدهما لصاحبه : إنه لنئوم فأيقظه فقال : ائت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام وهما يستأدمانك فقال : " اقرئهما السلام وأخبرهما أنهما قد ائتدما " ففزعا فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا : يا رسول الله بعثنا إليك نستأدمك فقلت : قد ائتدما فبأى شيىء ائتدمنا ؟ قال : " بلحم أخيكما والذى نفسى بيده إنى لأرى لحمه بين أنيابكما " قالا : فاستغفر لنا قال : " هو فليستغفر لكما " (٢).

فجمعهما معاً مع أن القائل واحد والآخر مستمع .

فالمستمع شريك في الإثم إلا إذا أنكر فإن استطاع أن يقطع الكلام بكلامٍ آخر فعل ، وإلا قام من المجلس .

---

(١) أبو داود كتاب الحدود باب رجم ماعز بن مالك ١٤٦/٤ رقم ٤٤٢٨ ، ابن حبان في صحيحه ٢٤٤/١٠ رقم ٤٣٩٩ .

(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٧١/٥ رقم ١٦٩٧ .

قال النووي : ينبغي لمن سمع غيبة مسلمٍ أن يرُدَّها ويزجر قائلها فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده فإن لم يستطع باليد ولا باللسان فارق ذلك المجلس . [١]

وقد شدَّد النبي ﷺ في ذلك وحذَّر منه فقال : " ما من امرئ يخذُل امرءًا مسلماً في موضعٍ تُنتهك فيه حرمته ويُنتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطنٍ يحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضعٍ يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته ومن حمى عرض مسلم حماه الله من النار ومن اغتاب مسلماً حُبس على جسر جهنم حتى يحاسب على ما قال [٢].

فعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : " من حمى مؤمناً من منافق أُراه قال : بعث الله تعالى ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مسلماً بشئ يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال " . [٣]

الفائدة الثانية :

أمرنا الله عز وجل بالاقتداء برسوله ﷺ ووصفه بالخلق العظيم وقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة وأعظم المواقف في إحسان الظن بالمسلمين والدفاع عنهم في غيبتهم ، وهذه أمثلة تؤكِّد ذلك وتوضحه .

---

[١] الأذكار ص ٤٠٣ .

[٢] أحمد في المسند ٥٣٦/١٢ رقم ١٦٣٢٠ ، أبو داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبة ٢٧٢/٤ رقم ٤٨٨٤ وإسناده حسن .

[٣] أحمد في المسند ٢٥٧/١٢ رقم ١٥٥٨٦ ، أبو داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبة ٢٧٢/٤ رقم ٤٨٨٣ وإسناده حسن .

في حديث عتبان بن مالك الطويل أن رسول الله ﷺ قام يُصلِّي فقال بعض الصحابة : أين مالك بن الدُّخشم ؟ فقال رجل : ذلك منافق لا يحب الله ورسوله فلما فرغ الرسول ﷺ من صلاته قال له : " لا تقل ذلك ألا تراه قد قال : لا إلــه إلا الله يريد بذلك وجه الله " . [١]

فانظر فقَّهك الله كيف لم يُرد النبي ﷺ أن يُغتاب صاحبه في حضرته فــردَّ عنه ودافع عن عِرضه بما يعلم فيه .

وقد استوعب الصحابة الدرس وساروا على خطى النبي ﷺ ففي حــديث كعب بن مالك الطويل في حكاية تخلُّفه عن غزوة تبوك قال : قال النبي ﷺ وهو جالس في القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه بُرداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمتُ عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ . [٢] أي مقــراً لإنكار معاذ على من فعل غيبة أو تلبَّس بها وتشريعاً لمن كان مثله أن يرد على المغتاب ، وقد أوصى الصحابة بذلك ، فقال جابر بن عبد الله : من نصر أخــاه المسلم بالغيب نصره الله في الدنيا والآخرة ، وقال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل – يعني عمر بن الخطاب – يُقدِّمك على الأشياخ فاحفظ عني ثلاثاً : لا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تجرين عليه كذبا . قال الشعبي : كل كلمةٍ من هذه الثلاث خيرٌ من ألف ، فقال ابن عباس : ومن عشرة آلاف . [٣]

---

[١] البخاري كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت ٦١٨/١ رقم ٤٢٥ ، مسلم كتاب المساجد ومواضع الصــلاة باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ٤٥٥/١ رقم ٣٣ .

[٢] البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك ٧١٧/٧ رقم ٤٤١٨ ، مسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢١٢٠/٤ رقم ٢٧٦٩ .

[٣] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٩٥٧/٢ رقم ١٨٦٢ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٦/٣ .

وقد تبعهم على هذا المسلك الكريم والسلوك المستقيم والنهج المبارك السلف الصالح ، فكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً يغتاب عنده أحداً . [١]

ودُعي إبراهيم بن أدهم إلى وليمة فلما حضر ذكروا رجلاً لم يأتهم فقالوا : إنه ثقيل . فقال إبراهيم : أنا فعلت هذا بنفسي حيث حضرت موضعاً يُغتاب فيه الناس فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام قال الشاعر :

وسمعك صُن عن سماع القبيح ** كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند سماع القبيح ** شريك لقائله فانتبه

الدروس المستفادة من الحديث

١) وجوب صيانة الأعراض بحسن الظن وترك الغيبة .
٢) اعتزال مجالس السوء وأصدقاء السوء والحرص على مجالس الطاعة وإخوان الصدق .
٣) وجوب النهي عن المنكر فالراضي كالفاعل والمستمع كالقائل.
٤) الحرص على طهارة المجتمع وترابط أفراده .

---

[١] تفسير القرطبي ٦١٥٦/٩ .

النميمة من الكبائر

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : (لا يدخل الجنة نمّام) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

(أ) البخاري كتاب الأدب باب ما يُكره من النميمة بلفظ : لا يدخل الجنة قتات ٨٤٧/١٠ رقم ٦٠٥٦ .

(ب) مسلم كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم النميمة ١٠١/١ رقم ١٠٥ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان العبسي أبو عبد الله اليمان حليف الأنصار من أعيان المهاجرين ، أصاب أبوه اليمان واسمه حِسْل دماً في قومه فهرب إلى المدينة وحالف بني الأشهل فسماه قومه اليمان لأنه حالف اليمانية وهم الأنصار أسلم قديماً وآخى النبي ﷺ بينه وبين عمار بن ياسر .

لم يشهد بدراً وقد حكى سبب ذلك فقال : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي فأخَذَنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً فقلنا : ما نريد إلا المدينة فأخذوا العهد علينا لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه فأخبرنا النبي ﷺ فقال : " نفي بعدهم ونستعين الله عليهم " . [1]

[1] مسلم كتاب الجهاد والسير باب الوفاء بالعهد ١٤١٤/٣ رقم ١٧٨٧ .

ثم شهد مع أبيه أحداً فاستشهد أبوه يومئذ قتله بعض الصحابة غلطاً ولم يعرفه لأن الجيش يختفون في لأمة الحرب ويسترون وجوههم فإن لم تكن لهم علامة بينة وإلا ربما قتل الأخ أخاه وهو لا يشعر ولما شدوا على اليمان يومئذ بقي حذيفة يصيح : أبي أبي يا قوم فقتلوه خطأ فقال حذيفة : يغفر الله لكم فأراد رسول الله ﷺ أن يدفع إلى حذيفة ديته فقال حذيفة بل أتصدق بها على المسلمين فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً ، قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقيت خير حتى لحق بالله عز وجل . [١]

أسرَّ إليه النبي ﷺ أسماء المنافقين وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة حتى قيام الساعة ، قال حذيفة : إني لأعلم الناس بكل فتنةٍ هي كائنة فيما بيني وبين الساعة . [٢]

ولذلك أطلقوا عليه صاحب سر رسول الله ﷺ لأنه أخبره بأسماء المنافقين ولذلك قال أبو الدرداء لعلقمة : أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ؟ [٣] – يعني حذيفة – ، وقد ناشده عمر : أأنا من المنافقين ؟ فقال : لا ولا أزكي أحداً بعدك . [٤]

وكان يقول : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني [٥] ، حتى قال : تعلَّم أصحابي الخير وتعلَّمت الشر [٦]

---

[١] – البخاري كتاب المغازي باب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ آل عمران : ١٢٢ ج ٤١٨/٧ رقم ٤٠٦٥ .

[٢] مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ٢٢١٦/٤ رقم ٢٨٩١ .

[٣] البخاري كتاب المناقب باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما ١١٣/٧ رقم ٣٧٤٢ .

[٤] سير أعلام النبلاء ٣٦٤/٢ .

[٥] البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٧١٢/٦ رقم ٣٦٠٦ ، مسلم كتاب الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ١٤٧٥/٣ رقم ١٨٤٧ .

[٦] البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٧١٢/٦ رقم ٣٦٠٧ .

ولما سُئل عنه علي بن أبي طالب قال : علم المنافقين ، وسأل عن المعضـــلات فإن تسألوه تجدوه بها عالماً . [١]

ندبه النبي ﷺ ليلة الأحزاب ليأتيه بخبر المشركين فقام بذلك على خير وجه ومناقبه وفضائله كثيرة .

ولاه عمر إمرة المدائن فلما وصل إليها قالوا له : سل ما شـــئت فقـــال : طعاماً آكله وعلفاً لحماري هذا ما دمت فيكم فأقام فيهم ما شاء الله ثم كتب إليـــه عمر : أقدم فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق فلما رآه على الحال التي خرج عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخي وأنا أخوك [٢] ، وظلَّ أميـــراً عليهـــا حتى قُتل عثمان .

روى عن النبي ﷺ وعن عمر وتبلغ جملة أحاديثه في الصحيحين ســـبعة وثلاثون حديثاً اتفقا منها على اثنتى عشرة حديثاً وانفرد البخاري برواية ثمانيـــة ومسلم برواية سبعة عشر حديثاً .

وروى عنه من الصحابة : جابر بن عبد الله وجندب بن عبـــد الله وأبـــو الطفيل وغيرهم ، ومن التابعين : زر بن حبيش وربعي بن خراش وزيـــد بـــن وهب وأبو وائل وأبو إدريس الخولاني وهمام بن الحارث وخلق كثير سواهم .

لما أصابه مرض الموت قال عند السحر : أعوذ بالله من صباحٍ إلى النار ثلاثاً ، ثم قال : اشتروا لي ثوبين أبيضين فإنهما لن يُتركا عليّ إلا قليلاً حتـــى أبدل بهما خيراً منهما أو أسلبهما سلباً قبيحاً . [٣]

---

[١] الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ١٢٣/٢ رقم ٢٤٩٤ ، المعجم الكبير للطبرانـــي ٢١٣/٦ رقـــم ٦٠٤١ قال الهيثمي : فيه راوٍ مختلف فيه وبقية رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١٥٨/٩ .

[٢] سير أعلام النبلاء ٣٦٦/٢ .

[٣] سير الأعلام ٣٦٨/٢ .

فلما حضره الموت قال : حبيبٌ جاء على فاقة لا أفلح من ندم أليس بعدي ما أعلم الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها . [١]

مات حذيفة بالمدائن سنة ستٍ وثلاثين فرضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

الجنة : هي دار النعيم في الدار الآخرة التي أعدَّها الله تعالى للطائعين وهي مشتقة من الاجتنان وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جَنّه جناً إذا ستره فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها .

نمَّام : صيغة مبالغة من النميمة وهي : نقل الكلام من قومٍ إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، والاسم : النميمة ، والفاعل : نمام وأتى فيه بصيغة المبالغة لتعظيم الوعيد وإلا فأصل النمّ منهي عنه وهو من الكبائر .

المعنى الإجمالي للحديث

الجنة هي الدار التي أعدها الله لعباده المسلمين ، وأعدّ لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهي دار السلام وجنة الخلد والنعيم لهم فيها الحسنى وزيادة ، طاهرة التربة عذبة الماء شهية الثمرة فلا يسكنها إلا الطاهرون الذين خلصت نياتهم واستقامت أخلاقهم ، وعرفوا الحق فاتبعوه والباطل فاجتنبوه ، اتقوا ربهم فلم يرجوا غيره ، ولم يخافوا سواه ، أعدها الله لهم جزاءً وفاقاً .

أما من تلوَّثت ضمائرهم وفسدت أخلاقهم وسعوا في الأرض فساداً فلم يعرفوا لله حقاً ولا لعباده حرمة فأعد الله لهم ناراً وقودها الناس والحجارة لأنهم

---

[١] مصنف ابن أبي شيبة ٤٥٨/٧ رقم ٣٧٢٠٣ ، حلية الأولياء ٢٨٢/١ .

عملوا بأعمالها وتخلَّقوا بأخلاق ساكنيها فكانوا من أهلهـا ، وفـي الحـديث : " النميمة والشتيمة والحمية في النار ولا يجـتمعن فـي صـدر مـؤمن " [١] ، وفي رواية " إن النميمة والحقد في النار ولا يجتمعان في قلب مسلم " .[٢]

والنبي ﷺ يخبرنا في هذا الحديث أن الله حرَّم الجنة على من يسعون فـي الأرض فساداً ويُفسدون بين الأحبَّة ويقطعون ما أمر الله به أن يوصـل جـزاءً وفاقاً وما ربك بظلامٍ للعبيد ، والله عز وجل يبغضهم ويكره جوارهم ورسـول الله ﷺ يتنكَّر منهم ويرفض أن ينسبوا إليه ، وفي الحديث : " أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذي يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلـى الله المشـاؤون بالنميمة المفرِّقون بين الإخوان الملتمسون لهم العثرات " . [٣]

فمدار دخول الجنة صلاح القلب واستقامة الجوارح ، ومدار دخول النـار فساد القلب وانحراف الجوارح حتى وإن كانت الصورة الظاهرة تدل على الخير والصلاح ، فليس الإسلام صلاةً وصياماً وحركات جوارح فقط إنمـا الإسـلام طهارة قلب وخلق فاضل ومعاملة حسنة وحب للخير وسعي لتحقيقـه وكراهـة للشر وقطع الصلات وفساد ذات البين ثم عبادات ظاهرة تُعبِّر عن نور القلـب وفقه العقل ، وفي الحديث : " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصـيام والصـلاة والصدقة ؟ " قالوا : بلى قال : " إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البـين هـي

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير ١٢/٤٤٥ رقم ١٣٦١٥ ، قال الهيثمي فيه راويان ضعيفان وقد وثقـا مجمـع الزوائد ٨/٩١ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٥/٥٤ رقم ٤٦٥٣ ، قال الهيثمي : فيه راوٍ أجمعوا على ضعفه مجمـع الزوائـد ١/١٠٢ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/٣٨٢ رقم ٣٥٠ .

الحالقة لا أقول تحلق الشعر بل تحلق الدين " [١] .

وقد حرص الإسلام على ترابط أفراد المجتمع وحذر من الخصام والهجر والقطيعة حتى أباح للمصلح في سبيل إصلاح ذات البين أن يخفي ما يسمع ويعلم من كلام سيء قاله أحدهما في الآخر بل أجاز له أن يزيد من عنده كلاماً طيباً لم يسمعه من أحدهما في شأن الآخر ، وفي الحديث : " ليس الكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً " . [٢]

ويغضب الإسلام أشد الغضب على أولئك الذين يسمعون كلمة السوء ثم يبادرون بنقلها تزلُّفاً أو كيداً أو حباً في الهدم والإفساد فهم شرار الخلق .

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن سمعوا ** شراً أذاعوه وإن لم يسمعوا كذبوا

وقد ذمَّهم الله وتوعَّدهم بالعذاب الشديد فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [٣] .

وقال الشاعر واصفاً إياهم :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ** مني وما سمعوا من صالح دفنوه

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ** وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا [٤]

---

[١] أحمد في المسند ٥٧١/١٨ رقم ٢٧٣٨١ ، أبو داود كتاب الأدب باب في إصلاح ذات البين ٢٨٢/٤ رقم ٤٩١٩ ، الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٢٢٨/٤ ، وقال : هذا حديث صحيح .

[٢] البخاري كتاب الصلح باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس ٣٥٣/٥ رقم ٢٦٩٢ ، مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ٢٠١١/٤ رقم ٢٦٠٥ .

[٣] النور : ١٩ .

[٤] هذا الشعر لقعنب بن أم صاحب راجع : لسان العرب ١٠٥/١ .

سبب ورود الحديث

ورد عن البخاري وغيره أن سبب ورود هذا الحديث من حذيفة رضي الله عنه أنه كان جالساً مع أصحابه فمرَّ بهم رجل فقالوا له : إن هذا الرجل يرفع الحديث إلى عثمان بن عفان وهو أمير المؤمنين فقال ورفع صوته حتى يسمع : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لا يدخل الجنة قتات " [١] .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

تطلق النميمة في الأغلب على نقل كلام الغير إلى المقول فيه على وجه الإفساد كأن تقول : فلان يقول عنك كذا وكذا .

والصحيح أن النميمة لا تختص بهذه الصورة فالنميمة هي : كشف ما يُكره كشفه سواءً كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث وسواءً كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواءً كان المنقول قولاً أو عملاً وسواءً كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن .

فحقيقة النميمة : إفشاء السر وكشف الستر عما يكره كشفه فلو رأى إنساناً يخفي مالاً لنفسه فحكاه لغيره فهي نميمة .

فإن كان ما ينم به نقصاً أو عيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة [٢] ، قال النووي : هذا المذكور في النميمة إذا لم يكن فيها مصلحة شرعية فإن دعت حاجة إليها فلا منع منها ، وذلك كما إذا أخبره بأن إنساناً يريد الفتك به أوبأهله أو بماله أو أخبر الإمام أو من له ولاية بأن إنساناً يفعل كذا

[١] البخاري كتاب الأدب باب ما يكره من النميمة ٨٤٧/١٠ رقم ٦٠٦٥ .

[٢] إحياء علوم الدين ١٤٧/٣ .

ويسعى فيما فيه مفسدة ويجب على صاحب الولاية الكشف عن ذلك وإزالته فكل هذا وما أشبهه ليس بحرام وقد يكون بعضه واجباً وبعضه مستحباً على حسب المواطن والله أعلم .[١]

وفي الحديث : " المجالس بالأمانة إلا ثلاثة : مجلس سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق "[٢] .

وتعظم النميمة بقدر ما يترتب عليها من المضار والمفاسد حتى تصير كبيرة ، قال الهيثمي : عدُّ النميمة من الكبائر هو ما اتفقوا عليه[٣] ، وقال الحافظ المنذري : أجمعت الأئمة على تحريم النميمة وأنَّها من أعظم الذنوب عند الله عز وجل .[٤]

وقال القرطبي : النميمة من الكبائر لا خلاف في ذلك حتى قال الفضيل بن عياض : ثلاث تهدّ العمل الصالح ويفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الغيبة والنميمة والكذب[٥] .

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له أو التلذذ بالحديث عن الآخرين والخوض في الفضول والباطل .

وقد ورد عند البخاري هذا الحديث بلفظ " لا يدخل الجنة قتَّات " والقتات هو : النمَّام وزناً ومعنى ، وقيل الفرق بين النمام والقتَّات أن النمام هو : الذي

---

[١] شرح صحيح مسلم ١١٣/٢ .

[٢] أحمد في المسند ٥١٥/١١ رقم ١٤٦٢٨ ، أبو داود كتاب الأدب باب في نقل الحديث ٢٦٩/٤ رقم ٤٨٦٩.

[٣] الزواجر عن اقتراف الكبائر ٣٧/٢ .

[٤] الترغيب والترهيب ٢٩٥/٣ .

[٥] تفسير القرطبي ٧٣٢٩/١٠ ، ٧٣٣٠ .

يحضر القصة ويسمع الكلام ثم ينقله ، والقتّات هو : الذي يتسمَّع من حيث لا يُعلم به ثم ينقل ما سمعه .

الفائدة الثانية :

وردت في ذمِّ النميمة والتحذير منها نصوص كثيرة تدل على كونها من أكبر الذنوب كما تدل على خطورتها ومدى إضرارها بالبراءاء وإفسادها للمجتمعات وهي من أقبح المعاصي وأكثرها انتشاراً بين الناس حتى ما يسلم منها إلا القليل من الناس وهي محرَّمة بإجماع المسلمين وقد تظاهرت على تحريمها الدلائل الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

فمن الآيات القرآنية : قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝ ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ﴾ [٢] . قال ابن عباس : هم المشّاءون بالنميمة المُفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب [٣] ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [٤] فليس المقصود بالخيانة هنا : وقوع الفاحشة منهم فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء [٥] ، قال ابن عباس : ما زنتا أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدلُّ قومها على

---

[١] القلم : ١٠ ، ١١ .

[٢] الهمزة : ١ .

[٣] تفسير القرطبي ٧٢٧١/١٠ .

[٤] التحريم : ١٠ .

[٥] تفسير ابن كثير ٣٩٣/٤ .

أضيافه [١] يعني أنهما كانتا تمشيان بالنميمة ، قال الضحاك : خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئاً أفشتاه إلى المشركين .[٢]

وقال تعالى عن أم جميل زوجة أبي لهب : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝ ﴾ [٣] ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة بين الناس .[٤]

وأما الأحاديث الواردة في ذم النميمة فكثيرة منها :

ما جاء عن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذَّبان في قبورهما فقال : " **يُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير وإنه لكبير كان أحدهما لا يستتر من البول والآخر يمشي بالنميمة** " .[٥]

ومعنى قوله : وما يعذبان في كبير أي ليس كبيراً في اعتقادكم كما قال تعالى : ﴿ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴾ [٦] أو ليس كبيراً تركه والاحتراز منه أو المراد أنه أكبر الكبائر ويدل على ذلك قول النبي ﷺ : " وإنه لكبير " ، وعن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال : " ألا أخبركم بخياركم؟ " قالوا : بلى يا رسول الله قال : " الذين إذا رُءوا ذُكر الله عز وجل " ثم قال : " ألا أخبركم بشراركم ؟ المشَّاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء

---

[١] تفسير ابن كثير ٣٩٣/٤ .

[٢] تفسير القرطبي ٦٦٨١/١٠ .

[٣] المسد : ٤،٥ .

[٤] جامع البيان لابن جرير الطبري ٣٣٩/٣٠ .

[٥] البخاري كتاب الأدب باب النميمة من الكبائر ٤٨٧/١٠ رقم ٦٠٥٥ ، مسلم كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٤٠/١ رقم ٢٩٢ .

[٦] النور : ١٥ .

العنت " [١] ، وفي رواية : " شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت " .[٢]

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث الباب أن النمام لا يدخل الجنة ومعنى عدم دخوله الجنة : أنه لا يدخلها أبداً إذا استحلّها بغير تأويل فهذا كافر لا يدخلها أصلاً وإذا لم يستحلها فجزاؤه ألا يدخلها وقت دخول الفائزين إذا فُتحت أبوابها لهم بل يُؤخَّر ثم قد يُجازى وقد يعفوا الله عنه فيدخلها أولاً وسبب هذا التأويل أن أهل السنة اتفقوا على أن من مات على التوحيد مصراً على الكبائر فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه فأدخله الجنة أولاً وإن شاء عاقبه بذنبه ثم أدخله الجنة . [٣]

والنميمة تُفسد المجتمع وتقطع أواصر المحبة ، قال أكثم بن صيفي : إيَّاكم والنميمة فإنها نارٌ محرِقة وإن النمَّام ليعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر .[٤]

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سُقوا فأوحى الله تعالى إليه : إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمَّام قد أصر على النميمة ، فقال موسى : يا رب من هو ؟ دلني عليه حتى أخرجه من بيننا فقال الله عز وجل : يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً فتابوا جميعاً فسُقُوا . [٥]

---

[١] أحمد في المسند ٥٩٨/١٧ رقم ٢٧٤٧١ ، وقال الهيثمي : فيه شهر بن حوشب ضعفوه وبقية رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٩٣/٨ .

[٢] شرح صحيح مسلم للنووي ٢٧/٢ .

[٣] شرح صحيح مسلم للنووي ٢٧/٢ .

[٤] تفسير القرطبي ٧٣٢٩/١٠ .

[٥] إحياء علوم الدين ١٤٧/٣ .

الفائدة الثالثة :

النميمة من أقبح الذنوب وأسوأ الخطايا تهتك الأستار وتكشف العيوب وتنشر الحقد والبغضاء والنمام شيطان ينشر سمومه بين الأحبة ويُفسد ما بينهم إن لم نحسن التعامل معه والواجب على من نُقلت إليه النميمة وقيل له : إن فلاناً يقول عنك كذا وكذا حتى يسلم من الشر أن يتبع هذه الخطوات الست :

الأولى : أن لا يُصدِّق النمام لأنه فاسق والفاسق مردود الشهادة قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝ ﴾ [١] ، دخل رجلٌ على سليمان بن عبد الملك وعنده الزهري فقال له سليمان : بلغني أنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا فقال الرجل : ما فعلتُ ولا قلت فقال سليمان : إن الذي أخبرني صادق فقال له الزهري : لا يكون النمام صادقاً فقال سليمان : صدقت ثم قال للرجل : اذهب بسلام . [٢]

الثانية : أن ينهاه عن النميمة وينصحه بعدم تكرارها ويُقبِّح عليه فعله ويُبيِّن له عظيم خطرها قال تعالى : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [٣] ، قال رجل لعمرو بن عبيد : إن فلاناً يذكرك في مجلسه بشر فقال له عمرو : يا هذا ما راعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ولا أتيت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أخبره أن الموت

---

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٤٩/٣ .

(٣) لقمان : ١٧ .

يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خيـر الحاكمين .

وكتب رجل إلى الصاحب ابن عباد خطاباً ينبهه فيه على مالٍ ليتيم ليحمله على أخذه لكثرته فوقّع على ظهرها : النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة الميـت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمَّره الله والساعي لعنه الله .

وزار بعض السلف أخاً له فنمّ له عن صديقه فقال يا أخي أطلـت الغَيبـة وجئتني بثلاث جنايات : بغَّضت إليّ أخي وشغلت قلبي بسببه واتَّهمـت نفسـك الأمينة .

وقيل : من أخبرك بشتم غيرك لك فهو الشاتم لك .

الثالثة : أن يبغضه في الله تعالى ولا يثق به ، قال الحسن : من نمّ إليـك نـمّ عليك . ولأن الله يبغضه ويجب بغض من يبغضه الله .

دخل رجلٌ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال لـه : إن فلاناً يقول عنك كذا وكذا فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاتبناك وإن شئت أن نقيلك أقلناك فقال له : أقلني يا أمير المؤمنين .

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز فقال له : إن فلاناً ذكـرك بسوء فقال له عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هـذه الآيـة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [1] وإن كنـت

[1] الحجرات : ٦ .

صادقاً فأنت من أهل هـذه الآيـة : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ۝ ﴾[١] وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً .

الرابعة : أن ينسى ما قيل له وأن لا يظن بأخيه الغائب سوءاً قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ .[٢]

الخامسة : أن لا يحمله ما حُكي لك على التَّحقُّق والبحث عن صحته من عدمه بل الواجب أن ينساه تماماً قال تعالى ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ .[٣]

السادسة : أن يحمد الله تعالى على أن عافاه من المعصية ولا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي لأحدٍ نميمة ويقول : فلانٌ حكى لي كذا وكذا فيجمع بين الغيبة والنميمة ويكون قد فعل ما نهى عنه .

قال الغزالي : وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يُتوقَّى ، قال حماد ابن سلمة : باع رجلٌ عبداً وقال للمشتري ما فيه عيب إلا النميمة قال : رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدي لا يحبك وهو يريـد أن يتزوج عليك فخذي الموسي واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتـى أسحره عليها فيُحبَّك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك حتى تتزوجه فتَنَاوْم لها حتى تعرف ذلك فتناوم لها فجاءت المـرأة بالموسـي لتحلق من شعره فظن أنها تُريد قتله فقام إليها فقتلها فجاء أهل المـرأة فقتلـوا الزوج ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .[٤]

---

[١] القلم : ١١ .

[٢] الحجرات : ١٢ .

[٣] الحجرات : ١٢ .

[٤] إحياء علوم الدين ١٤٩/٣ .

من نمّ في الناس لم تؤمن عقاربه ** على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يدري به أحد ** من أين جاء ولا من أين يأتيه

الويل للعهد منه كيف ينقضه ** والويل للود منه كيف يفنيه

ولذلك حذَّر العلماء والصالحون ولاةَ الأمر من رُوَّاد مجالسهم الذين يسعون إليهم بالنميمة ويُرضونهم بالخوض في أعراض الناس .

دخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال له : إني مُكلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته فقال : قُل قال : يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجالٌ قد ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تُصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا في الأمة خسفاً ولا في الأمانة تضييعاً والأعراض قتلاً وانتهاكاً أعلى قربهم البغي والنميمة وأجلُّ وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

وسعى رجلٌ إلى أمير بالنميمة فجمع بينه وبين من نمّ عنه فأقبل عليه وقال له :

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً ** فخنت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ** بمنزلة بين الخيانة والإثم

الدروس المستفادة من الحديث :

١) حرمة النميمة وقبحها وأنها من أشر الذنوب .

٢) حرص الإسلام على صيانة الأعراض وحرمة الحياة الشخصية للأفراد

٣) الانشغال بعيوب النفس وترك الانشغال بعيوب الآخرين .

٤) الإسلام علَّمنا أمثل الطرق لمواجهة النمام .

٥) حرص الإسلام على توطيد أواصر الأخوة بين أتباعه .

سلامة الصدر

عـن ابـن مسـعود ﷺقـال : قـال رسـول الله ﷺ (لا يُـبلغني أحـدٌ مـن أصحابي عن أحدٍ شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

أ- أحمد في المسند ٢٠/٤ رقم ٣٧٥٩ ، وقال أحمد شـاكر : إسـناده حسن على الأقل .

ب- أبو داود كتاب الأدب باب في رفع الحديث من المجلس ٢٦٧/٤ رقم ٤٨٦٠ .

ج- الترمذي كتاب المناقب باب فضل أزواج النبـي ﷺ ٤٧٥/٥ رقـم ٣٩٢٢ .

والحديث عند أحمد والترمذي فيه زيادة وهي :

قال ابن مسعود فأُتي رسول الله ﷺ بمال فقسمه فانتهيـت إلـى رجلـين جالسين وهما يقولان : والله ما أراد محمد بقسمته التي قسمها وجه الله ولا الدار الآخرة فتثبت حين سمعتها فأتيت رسول الله ﷺ وأخبرته فاحمر وجهه وقـال : " دعك عني فقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر " .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الكبير والحبر الجليل فقيه الأمة : عبد الله بن مسـعود بـن غافل أبو عبد الرحمن الهذلي ، وينسب إلى أمه أحياناً فيقال له : ابن أم عبـد ، وهي صحابية كنيتها أم عبد .

وابن مسعود أحد السابقين الأولين والنجباء المشهورين ، أسلم قديماً بمكة حتى قال عن نفسه : لقد رأيتني سادس ستة وما على الأرض مسلم غيرنا . [١]

وهو أول من جهر بالقرآن في مكة فضربه المشركون ضرباً شديداً فقال له أصحابه : هذا الذي خشينا عليك فقال لهم : ما كان أعداء الله أهون عليّ قط منهم الآن ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً ، قالوا : حسبك . [٢]

هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وهو الذي أجهز على فرعون هذه الأمة أبي جهل بن هشام يوم بدر كما شهد اليرموك وفتوح الشام بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وكان من كبار زعماء الصحابة وزهّادهم وفقهائهم .

لازم النبي ﷺ ملازمةً شديدة في حِلّه وترحاله وليله ونهاره وكان صاحب سواد رسول الله ﷺ ووساده – يعني فراشه وسواكه ونعليه وطهوره وهذا يكون في السفر – [٣] ، فكان يُسافر مع رسول الله ﷺ ويحمل له هذه الأشياء حيث كان ، حتى إن بعض الصحابة كان يحسبه لشدة قربه من النبيﷺ ولكثرة دخوله عليه من أهل بيت رسول الله ﷺ ، فعن أبي موسى الأشعري قال : قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً وما نحسب ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت النبي ﷺ . [٤]

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١٣/٣ وصححه ووافقه الذهبي ، أبو نعيم في حلية الأولياء ١٢٦/١ .

[٢] تاريخ الطبري ٣٣٤/٢ ، ٣٣٥ ، سيرة ابن هشام ٢٥٩/١ ، ٢٦٠ .

[٣] البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عبد الله بن مسعود ١٢٨/٧ رقم ٣٧٦١ .

[٤] البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عبد الله بن مسعود ١٢٩/٧ رقم ٣٧٣٦ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن مسعود ١٩١١/٤ رقم ٢٤٦٠ .

تلقَّى القرآن عن النبي ﷺ وكان حسن الصوت جيد التلاوة حتى إن النبي ﷺ أوصى أصحابه بالقراءة عليه فقال : " من سرَّه أن يقرأ القرآن غضاً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد " [١]

طلب منه النبي ﷺ أن يسمع منه القرآن فقال له ابن مسعود : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ فقال ﷺ : " نعم إني أحب أن أسمعه من غيري " .[٢]

وكان ابن مسعود نحيف الجسم دقيق الساقين صعد شجرةً ذات يوم يجتني سواكاً فانكشفت ساقيه فضحك الصحابة لدقة ساقية فقال رسول الله ﷺ : " مم تضحكون ؟ لَرِجْل عبد الله بن مسعود يوم القيامة أثقل من أُحُد " [٣] ، ومناقبه غزيرة وفضائله كثيرة .

وقد عرف الصحابة قدر ابن مسعود ومكانته فاثنوا عليه بما يستحقه . أرسله عمر إلى الكوفة معلِّماً وكتب إليهم : إني قد بعثت إليكم عماراً أميراً وابن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر فاسمعوا لهما واقتدوا بهما وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي . [٤]

سُئل عنه عليّ بن أبي طالب فقال : عَلِم الكتاب والسنة ثم انتهى . [٥]

---

[١] أحمد في مسنده ١٩٢/٤ رقم ٤٢٥٥ ، ابن ماجة في سننه المقدمة باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ٤٩/١ رقم ١٣٨ وإسناده صحيح .

[٢] البخاري كتاب فضائل الصحابة باب من أحب أن يستمع القرآن من غيره ٧١١/٨ رقم ٥٠٤٩ ، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل استماع القرآن ٥٥١/١ رقم ٨٠٠ .

[٣] أحمد في المسند ٥٥٩/١ رقم ٩٢٠ وإسناده صحيح .

[٤] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٨٤١/٢ رقم ١٥٤٦ ، سير أعلام النبلاء ٤٨٦/١ .

[٥] الحاكم في المستدرك ٣٦٠/٣ وصححه ، سير الأعلام ٤٩٢/١ .

وقال حذيفة بن اليمان : ما أعرف أحداً أقرب سـمتاً وهـدياً ودلاً – أي سيرة وحالة وهيئة – بالنبي ﷺ من ابن أم عبد . [١]

وقال عمرو بن العاص وهو في مرض موته : أشهد علـى رجلـين أن رسول الله ﷺ مات وهو يحبهما ابن أم عبد وابن سمية . [٢]

روى ابن مسعود أحاديث كثيرة وأخذ عنه العلم جمّ وافرٌ مـن الصـحابة والتابعين فلذلك انتشر علمه وذاع صيته ، روى ابن مسعود عن النبي ﷺ وعـن عمر وسعد بن معاذ وغيرهما ، بلغت جملة أحاديثه ثمانمائة وأربعون حـديثاً ، اتفقا له في الصحيحين على أربعةٍ وستين وانفـرد البخـاري بـإخراج واحـد وعشرين حديثاً ومسلم بإخراج خمسةٍ وثلاثين حديثاً .

وروى عنه جمعٌ من الصحابة منهم : العبادلة الأربعـة و أبـو موسـى الأشعري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وغيرهم .

وروى عنه جمعٌ كبير من التابعين من أشهرهم : علقمة ومسروق وزر بن حبيش وشريح القاضي وأبو وائل والربيع بن خُثيم وخلق كثير غيرهم .

مرض عبد الله فعاده عثمان بن عفان فقال له : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني قال : ألا آمر لك بعطاء قال : لا حاجة لي فيه .

ثم توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وكان عمره حين مات بضعاً وستين سنة وصلَّى عليه الزبير بن العوام ولما بلغ نعيه أبا الدرداء قال : ما ترك بعده مثله ، وقال أبو الأحوص : سمعت أبا مسعود الأنصاري وأبا موسى الأشعري

---

(١) البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عبد الله بن مسعود ١٢٨/٧ رقم ٣٧٦٢ .

(٢) أحمد في المسند ٤٩٥/١٣ رقم ١٧٧٠٩ ، وإسناده صحيح .

حين مات عبد الله بن مسعود وأحدهما يقول لصاحبه : أُتراه ترك بعده مثلـــه ؟ قال : لئن قلت ذلك لقد كان يُؤذن له إذا حُجبنا ويشهد إذا غبنا . [١]

رحم الله بن مسعود ورضي الله عنه وأرضاه .

معاني المفردات

لا يبلغني : بضم الياء وسكون الباء والغين المعجمة وكسر اللام وتشديدها وقـــد تخفف من البلاغ أي لا يوصلني وهو نفي بمعنى النهي .

أصحابي : الصحابي هو : كل مميز لقي النبي ﷺ بعد بعثته وقبل انتقالـــه مـــن الدنيا يقظةً في عالم الشهادة وآمن به ومات على الإسلام وإن تخلّلت إسلامه ردة على الأصح .

شيئاً : أي شيئاً أكرهه ويجعلني أغضب عليه بسببه .

أخرج إليكم : أي من البيت وألاقيكم .

المعنى الإجمالي للحديث

الإسلام دين الخلق الرفيع والأدب العالي ، ولذلك كانت الوظيفة الرئيســة للرسول ﷺ إتمام مكارم الأخلاق ، فالاسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق وينهى عن سفاسفها ، والرسول ﷺ هو مؤدِّب الأمة ومعلمها ومربيها .

وهو في هذا الحديث ينهانا عن نقل الكلام خاصةً لولاة الأمـــور حتـــى لا تفسد قلوبهم على الرعية ويكون ذلك مدعاةً لهم لظلمهـــم ويحثنـــا علـــى ســـتر الأخطاء وصيانة العورات وحفظ الأسرار فرب كلمةٍ قيلت ساعة غضـــبٍ لـــو تُركت لماتت حين قيلت فإذا نُقلت فلربما سعَّرت الحروب وأفسدت النفوس .

---

[١] مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله مسعود وأمه ١٩١١/٤ رقم ٢٤٦١ .

ولذلك حذَّر الرسول ﷺ من نقل الكلام وأمر بستره ما لم يترتَّب على ستره سفك دمٍ حرام أو قتل نفسٍ بريئة أو ظلم يقع على بريئ حتى تسلم الصدور وتصفوا الضمائر ويسود العدل .

الفائدة الأولى :

أراد الله تعالى للمجتمع المسلم الطهارة والنقاء والتعاون على فعل الخير ونبذ الشر فقال لهم : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ .[١]

فطلب منهم ستر العورات وعدم إشاعة المنكرات وفي الحديث : " من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته " [٢]

وعن دُخين كاتب عقبة بن عامر قال : قلت لعقبة : إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داعٍ لهم الشرط فيأخذوهم فقال : لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم .

قال : ففعل فلم ينتهوا قال : فجاء دخين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا وأنا داعٍ لهم الشرط . فقال عقبة : ويحك إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من ستر مؤمناً فكأنما استحيا موؤدة من قبرها " [٣] ، وفي رواية عنه قال : "من ستر

---

[١] المائدة : ٢ .

[٢] ابن ماجة كتاب الحدود باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ٨٥٠/٢ رقم ٢٥٤٦ .

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في الستر على المسلم ٢٧٤/٤ رقم ٤٨٩٢ ، أحمد في المسند ٣٥٨/١٣ رقم ١٧٣١ وإسناده صحيح .

مؤمناً في الدنيا على عورة ستره الله يوم القيامة " [١] ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا وفي الآخرة " .[٢]

ولذلك كانت معالجة الأخطاء بالستر والتوضيح أولى من معالجتها بالفضيحة والتصريح حتى لا يشيع الفساد في جوانب المجتمع .

وقد حرَّم الإسلام نقل الأخبار وعدَّ ذلك من قبيل النميمة المحرَّمة إلا إذا كانت هناك مصلحة راجحة وحاجة شرعية للنقل طالما لم يُقصد بالنقل الفساد ، وأما من قصد بالنقل النصيحة وتحري الصدق وتجنب الأذى فلا مانع من ذلك وفي الحديث : " المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : مجلسٌ يُسفك فيه دمٌ حرام أو مجلس يُستحلُّ فيه فرجٌ حرام أومجلس يُستحل فيه مالٌ بغير حق " .[٣]

واستُدِلَّ على ذلك بكون النبي ﷺ لم يُنكر على ابن مسعود نقله ما نقل إليه بل غضب من قول المنقول عنه ثم حلم عنه وصبر على أذاه اقتداءاً بنبي الله موسى عليه السلام وامتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [٤] .

وقلَّ من يُفرِّق بين النصيحة والفضيحة فطريق السلامة من ذلك لمن يخشى عدم الوقوف على ما يُباح من ذلك الإمساك عن ذلك كله .

الفائدة الثانية :

المؤمنون جميعاً إخوة تربطهم العقيدة وتجمع بينهم أحكام الشريعة ومعيار التفاضل بينهم هو التقوى والعمل الصالح يسعى بذِمَّتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم .

---

[١] أحمد في المسند ٣٧٧/١٣ رقم ١٧٣٨٥ وإسناده صحيح لكنه مرسل .

[٢] مسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ٢٠٧٤/٤ رقم ٢٦٩٩ .

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في نقل الحديث ٢٦٩/٤ رقم ٤٨٦٩ ، وأحمد في المسند ٥١٥/١١ رقم ١٤٦٢٨ ، وإسناده ضعيف .

[٤] الأنعام : ٩٠ .

ولا يكتمل إيمان المسلم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره لأخيه ما يكره لنفسه فيتمنَّى الخير لإخوانه ويكره لهم الشر .

ولا يحقد على أحدٍ ولا يغشُّ أحداً ولا يحسد أحداً بل هو دائماً سليم الصدر نقي الفؤاد حسن الظن بإخوانه وهذه أقل درجات الأخوة ، وقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بذلك .

فعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " يا بُنيَّ إن قدرت على أن تُصبح وتُمسي وليس في قلبك غشٌّ لأحدٍ فافعل ثم قال : " يا بني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبَّني ومن أحبَّني كان معي في الجنة " [1] .

وسلامة الصدر ترفع الدرجات وتُدخِل الجنات وإن قلَّ العمل .

فعن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : " يطلع علينا الآن رجلٌ من أهل الجنة " فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علَّق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تُؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يُحدِّث أنه بات معه تلك الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارّ وتقلَّب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر .

[1] الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٣٠٩/٤ رقم ٢٦٨٧ وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه .

قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن احتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : " يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة " فطلعت أنت الثلاث مرار فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت فلما ولَّيتُ دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ مي المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نُطيق .[1]

ولذلك روى الحسن البصري أن رسول الله ﷺ : " إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقةٍ ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور "[2] .

وسلامة الصدر طريق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة .

فعن أبي ذرٍ أن رسول الله ﷺ قال :" قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة "[3] .

ومن حافظ على سلامة صدره وطهارة قلبه كان من أفضل الناس ، فعن عبد الله بن عمرو قال : قيل يا رسول الله : أي الناس أفضل ؟ قال : " كل

---

[1] أحمد في المسند ٥٣٦/١٠ رقم ١٢٦٣٣ وإسناده صحيح .

[2] ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ١٤/٤ ، وقال : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء مرسلاً وذكره ابن عدي في الكامل ٢٨٩/٦ من حديث عبد العزيز الدينوري ، وقال : هذا من الأحاديث التي أنكرت عليه .

[3] أحمد في المسند ٤٨٦/١٥ رقم ٢١٢٠٧ وإسناده صحيح .

مخموم القلب صدوق اللسان " قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلـب ؟ قال : " هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد " [١] .

وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة " فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه أناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عملٍ في نفسك ترجـو بـه – أي هذه الدرجة – فقال : إني لضعيف وإني أوثق مـا أرجـو الله : سـلامة الصدر وترك ما لا يعنيني [٢] .

وسلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنَّى الخير للناس إن عجز عـن سوقه إليهم بيده فيكون جالباً للخير أو محباً له .

الفائدة الثالثة :

يلفت النبي ﷺ أنظار أصحابه في هذا الحديث إلى أنه بشر ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [٣] فكلام الآخرين عنه من ذمٍ وإساءة يُغضبه ويُغيِّـر قلبـه نحـو المُتكلِّم ولا يجعله سليم الصدر جهته وهذا من مقتضيات بشريته فهو ينهاهم أن ينقلوا إليه شيئاً يُغيِّر صدره نحو أحدٍ من أصحابه لأنه يُحِبُّ أن يخرج إليهم وهو سليم الصدر حسن الظن بهم جميعاً .

فهو بشرٌ يحب ويبغض ويفرح ويغضب ويرضى ويسخط ولكن في رضاه رضا الله وفي سخطه سخط الله عز وجل ولذلك فإنه لا يصدر منه إلا حق فهو

---

[١] ابن ماجة كتاب الزهد باب الورع والتقوى ١٤٠٩/٢ رقم ٤٢١٦ وفي الزوائد : هذا إسناد صحيح رجالـه ثقات .

[٢] ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ١٠٧/٣ ، وقال العراقي : أخرجه ابن أبي الـدنيا هكـذا مرسـلاً وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

[٣] الكهف : ١١٠ .

معصومٌ من المعصية محفوظ الظاهر والباطن رحيمٌ بأمته يريد لهم الخير ويدلُّهم على طرقه ويخاف عليهم الشر ويُحذِّرهم منه وفي الحديث : " مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذُبُّهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون من يدي " [١] ، وصدق الله تعالى إذ يقول عنه : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . [٢]

الدروس المستفادة من هذا الحديث

١) أهمية القدوة بالأنبياء والصالحين وأثرها في حياة الدعاة .

٢) وجوب سلامة الصدر وحسن الظن بالمسلمين .

٣) معرفة فضل النبي محمد ﷺ ورحمته بالمؤمنين وشفقته عليهم وحبه لهم .

٤) التحذير من نقل ما يغضب إلا إذا كانت هناك ضرورة لذلك .

---

[١] مسلم كتاب الفضائل باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم ١٧٩٠/٤ رقم ٢٢٨٥ .

[٢] التوبة : ١٢٨ .

ذم ذي الوجهين

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهيةً له وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ) البخاري كتاب المناقب باب قول الله تعالي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ الآية [1] ٦٠٨/٦ رقم ٣٤٩٣ .

ب) مسلم كتاب فضائل الصحابة باب خيار الناس ١٩٥٨/٤ رقم ٢٥٢٦ .

معاني المفردات

معادن : المعادن جمع معدن والمعدن هو : الشيء المُستقِرُّ في الأرض فتارةً يكون نفيساً وتارةً يكون خسيساً والمقصود بالمعادن هنا : الأصول التي ينتسب إليها الناس ويتفاخرون بها .

جاهلية : الجاهلية هي : الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله ﷺ وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وعبادة الأوثان غير ذلك .

---

[1] الحجرات : ١٣ .

فقهوا : بضم القاف وكسرها والضم أفصح والفقه في الأصل هو : الفهم مشتق من الشق والفتح ، يقال : فقه الرجل – بكسر القاف – يفقه فقهـا إذا فهم وعلم ، وفقه – بضم القاف – يفقه إذا صار فقيها عالما وقد خصَّه العرف بعلم الشريعة ثم خصَّه بعلم الفروع منها .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسـي سـبقت ترجمته وافية .

المعنى الإجمالي للحديث

يوضِّح لنا النبي ﷺ في هذا الحديث أن للنـاس أصـولاً مختلفـة فمـنهم الشريف الكريم ومنهم الخسيس الدنيء فإذا أسلم كـريم الأصـل زاده الإسـلام شرفاً وكرماً فإذا تفقه في الدين وعلم أحكـام الشـرع ازداد شـرفاً وكرمـا . وأن خيار الناس في أمور الولاية والحكم الذين لا يُحبُّونها ولا يرغبـون فيهـا ويعتبرونها مشقة وثقلا فإذا فُرضت عليهم كانوا خير الناس فيها عدالةً وسـلوكاً ثم يوضِّح لنا رسول الله ﷺ أن من أشرِّ الناس منزلةً عنـد الله عـز وجـل ذا الوجهين الذي يُداهن ويُنافق ويأكل على كل الموائد ويمدح كل الطوائف ويـذم الأُخَر عندها فليس عنده صدقٌ ولا شجاعة بل تملُّقٌ وخداع فيأتي هؤلاء بوجـه يرضيهم فإذا تركهم وذهب لغيرهم لبس لهم الوجه الذي يُرضيهم أيضاً فهو ساعٍ أبداً في إرضاء الناس غافل أبدا عن إرضاء رب الناس فيخسر الدنيا والآخـرة وفي الحديث أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلي أم المؤمنين عائشة رضـي الله عنها أن اكتبي إليَّ كتابا تُوصيني فيه ولا تكثري عليَّ فكتبت عائشة رضي الله عنها إلي معاوية عليه السلام : سلامٌ عليك أما بعد ، فإني سمعت رسول الله ﷺ

يقول : "من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنة الناس ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلي الناس " والسلام عليك .[١]

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولي :

خلق الله الناس جميعاً من طينٍ ثم أرسل لهم رسلاً مبشِّرين ومنذرين فمن استجاب لدعوتهم نال خير الدنيا وعز الآخرة مهما كان لونه أو جنسه أو أصله أو وطنه ومن أعرض عن دعوتهم وأتبع نفسه هواها وسار في ركاب الشيطان خسر الدنيا والآخرة مهما كان لونه أو جنسه أو أصله أو وطنه وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " يا فاطمة بنت محمد اعملي فإني لا أُغنى عنك من الله شيئا " [٢] فمعيار التفاضل بين الناس عند الله عز وجل هو : طاعتهم له واستجابتهم لرسله وقد أشار ربنا إلي هذا المعني فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ .[٣]

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء وإنما يتفاضلون بطاعة الله وتقواه واتباع أمر رسوله ﷺ فمدار التفاضل على التقوى أي أن الجميع من آدم وحواء وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

---

[١] الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان ١٨٦/٤ رقم ٢٤٢٢ ، ابن حبان في صحيحه ٥١٠/١ رقم ٢٧٦ .

[٢] البخاري كتاب الوصايا باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ؟ ٤٤٩/٥ رقم ٢٧٥٣ ، مسلم كتاب الإيمان باب في قوله تعالي " وأنذر عشيرتك الأقربين " ١٩٢/١ رقم ٢٠٤ .

[٣] الحجرات : ١٣ .

وقد نبَّه النبي ﷺ المسلمين لهذا الأمر فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال : " يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبِّيَّة الجاهلين وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان : رجلٌ برٌ تقي كريم على الله وفاجرٌ شقي هيِّنٌ على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب " [١]

وخطب النبي ﷺ على منى وهو يركب بعيراً له فقال : " يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .. " [٢] .

فالناس يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب وقد سُئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ فقال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " فقالوا : ليس عن هذا نسألك قال : " فأكرم الناس : يوسف نبي الله ابن نبي لله ابن نبي الله ابن خليل الله " قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : " فعن معادن العرب تسألوني " ؟ قالوا : نعم قال : " فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا " . [٣]

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " [٤] .

وعن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال : " ليس لأحدٍ فضلٌ إلا بدينٍ أو تقوى " [٥] .

---

[١] أبو داود كتاب الأدب باب في التفاخر بالأحساب ٣٣٣/٤ رقم ٥١١٦ ، الترمذي كتاب المناقب باب في فضل الشام واليمن ٤٩٧/٥ رقم ٣٩٨١ وقال : حديث حسن ، وأحمد في مسنده ٤٠٣/٨ رقم ٨٧٢١ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[٢] أحمد في المسند ١٢/١٧ رقم ٢٣٣٨١ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٢٦٦/٣ .

[٣] البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ... الآية ٤٧٧/٦ رقم ٣٣٧٤ ، مسلم كتاب الفضائل باب من فضائل يوسف عليه السلام ١٨٤٦/٤ رقم ٢٣٧٨ .

[٤] مسلم كتاب البر والصلة الآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ١٩٨٧/٤ رقم ٢٥٦٤ .

[٥] أحمد في مسنده ٣٧٥/١٣ رقم ١٧٣٧٧ ، وقال الهيثمي : فيه ابن لهيعة وفيه لين وبقية رجاله وثقوا مجمع الزوائد ٨٤/٨ .

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال له : " انظر فإنك لست بخيـــر من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله " [١] .

فإذا جمع الإنسان بجوار التقوى والكرم كرامة الأصل وشرف المنشأ كان من خيار الناس .

ولقد شبَّه رسول الله ﷺ الناس بالمعادن المركوزة والمستقِرَّة فـــي الأرض فمنها حقير القيمة الذي لا يأبه الناس له ، ومنها النفيس الذي يحرص الناس على اقتنائه ويبذلون الغالي والرخيص من أجل الحصول عليه . فكذلك الناس مـــنهم الخسيس التافه ومنهم العظيم .

وفي إحدى روايات الحديث " الناس معادن كمعادن الذهب والفضـــة ". [٢] ووجه تشبيه الناس بالمعادن أنه يوجد منها الغالي والرخيص والعظيم والحقيـــر فكذلك الناس .

والمعدن إذا استُخرِج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته فكـــذلك صـــفة الشرف لا تتغير في ذاتها فمن كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلـــى أهـــل الجاهلية رأس فإن أسلم استمرَّ شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية فإن تفقَّه وصل إلى غاية الشرف ، فخير الناس : الشريف في الجاهلية إذا أسلم وتفقه ويليه المشروف في الجاهلية إذا أسلم ولم يتفقه .

وأما من لم يُسلم فلا اعتبار به سواءً كان شريفاً أو مشروفاً تفقَّـــه أو لـــم يتفقَّه .

---

[١] أحمد في مسنده ٥١٦/١٥ رقم ٢١٣٠١ ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات إلا أبا بكر بن عبد الله المزنـــي لـــم يسمع من أبي ذر مجمع الزوائد ٨٤/٨ .

[٢] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب الأرواح جنود مجندة ٢٠٣١/٤ رقم ٢٦٣٨ .

والمراد بالشرف والخيار في الجاهلية : الاتصــاف بمحاســن الأخــلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها وتجنُّب المساوئ كالبخل والفجور والظلم وغيرها فأصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهــوا صــاروا خيار الناس ، ولذلك عدَّ النبي ﷺ نبي الله يوسف عليه السلام أكرم الناس لأنــه جمع مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب بكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله إبراهيم ثم انضمَّ إلى ذلك شرف علم الرؤيــا وتمكُّنــه فيها ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية وعموم نفعه إيــاهم وشفقته عليهم وإنقاذه إياهم من تلك السنين [1] ، فهو قد جمع الــدنيا والآخــرة وشرفهما .

وما أحسن قول الإمام عليّ في هذا المعنى :

الناس من جهة التمثيل أكفــاء ** أبوهـــــــم آدم والأم حـــــــواء

نفس كنفسٍ وأرواح مشــاكلة ** وأعظُــمٌ خلقــت فــيهم وأعضــاء

فإن يكن لهم من أصلهم حسب ** يفــاخرون بــه فــالطين والمــاء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهــم ** على الهدى لمــن اســتهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ** والجــاهلون لأهــل العلــم أعــداء

الفائدة الثانية :

حذَّر النبي ﷺ من الحرص على تولي الإمارة وبيَّن أنها يوم القيامة خزي وندامة إلا لمن قام بواجبها وعدل بين الناس ، ولذلك لما قال أبو ذر للرسول ﷺ ألا تستعملني ضرب بيده في صدره ثم قال له : " يا أبا ذر إنك ضعيف وإنهــا

[1] شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/١٣٤ .

أمانة وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقهــا وأدَّى الــذي عليــه فيها " .[١]

وقال عنها رسول الله ﷺ : " نعمت المرضــعة وبئســت الفاطمــة " [٢] ، وقال : " ما من أمير عشرة إلا ويُؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه عدله أو يُوبقه الجور " .[٣]

وبيَّن رسول الله ﷺ أنه لا يُعطي الإمارة من سألها أوحرص عليها وقــال لمن سألها : " إنا والله لا نُولِّي هذا العمل أحدٌ سأله ولا أحدٌ حرص عليــه " [٤] لأن الحريص عليها الساعي لنيلها إن أُعطيها فإنه يُوكل لنفسه ويُترك لكفاءتــه فإن قام بواجبها وإلا كان من الهالكين فإن جاءته من غير مســألة ولا حــرص وكان أهلاً لها أعانه الله عليها ووفَّقه وسدَّده فيناله خير الدنيا والآخرة .

ولذلك أوصى رسول الله ﷺ عبــد الــرحمن بــن ســمرة وقــال لــه : " يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألةٍ وكلت إليهــا وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها " [٥] .

وقد جرت العادة أن من حرص على شيءٍ ورغب فيه وسعى إليه قــلّ أن يحصل عليه ، ومن أعرض عن شيءٍ – من أمور الدنيا – وقلَّت رغبته فيه فإنه يحصل عليه غالباً . [٦]

---

[١] مسلم كتاب الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ٤٥٧/٣ رقم ١٨٢٥ .

[٢] أحمد في المسند ٤٠٦/٩ رقم ١١١٦ وإسناده صحيح .

[٣] أحمد في المسند ٢٤٩/٩ رقم ٩٥٣٩ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١٩٢/٤ .

[٤] البخاري كتاب الأحكام باب ما يُكره من الحرص على الإمارة ١٣٤/١٣ رقم ٧١٤٩ ، مسلم كتاب الإمــارة باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها ٤٥٦/٣ رقم ١٧٣٣ .

[٥] البخاري كتاب الأحكام باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليهــا ١٣٢/١٣ رقــم ٧١٤٦ ، مســلم كتــاب الإمارة باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها ١٤٥٦/٣ رقم ١٦٥٢ .

[٦] فتح الباري ٦١٣/٦ .

ولذلك كان خير الناس في أمور الولاية والحكم أشـدُّهم كراهيـةً لهـا ، قال ابن حجر : أي أن الدخول في عهدة الإمارة مكروه من جهة تحمل المشـقة فيه وإنما تشتد الكراهة له ممن يتصف بالعقل والدين لما فيه من صعوبة العمل بالعدل وحمل الناس على رفع الظلم ولما يترتب من مطالبة الله تعالى للقائم بـه من حقوقه وحقوق عباده ولا يخفى خيرية من خاف مقام ربه . [١]

وقد جاء في روايةٍ أخرى للحديث : " تجدون خير الناس في هذا الشـأن أشدُّهم له كراهية حتى يقع فيه " [٢] .

قال العلماء معناه أن من لم يكن حريصاً على الإمارة غير راغب فيها إذا حصلت له بغير سؤال تزول عنه الكراهة لها لما يرى من إعانة الله له عليهـا فيأمن على دينه مما كان يخاف عليه منها قبل أن يقع فيه ، ومن ثَمَّ أحب مـن أحب استمرار الولاية من السلف الصالح حتى قاتل عليها وصرَّح بعـض مـن عُزل منهم بأنه لم تسُرُّه الولاية بل ساءه العزل وقيل معنـاه : أنـه إذا وُلِّـي الإمارة لا يجوز له أن يكرهها . [٣]

وقال بعض العلماء : يُحتمل أن يكون المراد بقول النبي ﷺ " تجدون خير الناس في هذا الأمر " أي : الإسلام بمعنى : أن الإنسان الذي يكـره الإسـلام كراهة شديدة ويحارب أتباعه ويصد عن سبيل الله إذا هداه الله للإسـلام فإنـه يكون من خير المسلمين ، لأنه يستشعر عظمة ذنبه فيُكثر من فعـل الخيـرات تكفيراً عن ذنوبه ويُحِبُّ الإسلامَ محبةً شديدة وهناك أمثلةٌ كثيرة تؤكِّد هذا المعنى

---

[١] فتح الباري ٦/٦١٣ .

[٢] البخاري كتاب المناقب باب قول الله تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثـى ... الآيـة " ٦/٦٠٨ رقم ٣٤٩٦ ، مسلم كتاب فضائل الصحابة باب خيار الناس ٤/١٩٥٨ رقم ٢٥٢٦ .

[٣] فتح الباري ٦/٦١٣ .

وتُثْبته منها : عمر بن الخطاب وموقفه من الإسلام وأتباعه ثم حاله بعد أن هداه الله ، وكذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو من مسلمة الفتح الذين كانوا من أشد أعداء الإسلام حرباً وكيداً فلما أسلموا صاروا من أخلص أتباعه حباً وجهاداً ولا مانع من شمول الحديث للأمرين معاً .

الفائدة الثالثة :

يُفيد الحديث ذم ذي الوجهين وقد فسَّره الحديث بأنه هو الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وهذه حال المنافقين قال تعالى : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ .[١]

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعبر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع " [٢] .

وقد عدّ الله ذا الوجهين شرَّ الناس مبالغةً في ذمِّه وتحذيراً من هذا الخلق ، وإنما كان ذا الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافقين إذ هو متملقٌ بالباطل والكذب يُدخل الفساد بين الناس والشرور والتقاطع والعداوة والبغضاء . [٣]

وقال النووي في سبب اعتبار ذي الوجهين شر الناس : لأنه نفاقٌ محض وكذبٌ وخداعٌ وتحيُّلٌ على الاطلاع على أسرار الطائفتين وهو الذي يأتي كل

(١) النساء : ١٤٣ .

(٢) مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢١٤٦/٤ رقم ٢٧٨٤ .

(٣) المفهم ٤٧٨/٦ .

طائفةٍ بما يُرضيها ويُظهر لها أنه منها في خيرٍ أو شرٍ وهي مداهنة محرمة . [١]

فإذا كان يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود .

والفرق بينهما أن المذموم هو : من يُزيِّنُ لكل طائفةٍ عملها ويُقَبِّحُه عند الأخرى ويذُمُّ كل طائفةٍ عند الآخرى .

والمحمود هو : أن يأتي لكل طائفةٍ بكلامٍ فيه صلاح الأخرى ويعتذر لكل واحدةٍ عن الأخرى وينقل إليها كل ما أمكنه من الجميل ويستر القبيح . [٢]

وقد حدَّد الإمام الغزالي ذا الوجهين بأنه هو الذي ينقل كلام كل طائفة إلى الأخرى التي تُعاديها قال : وهو شرٌ من النميمة ، فإن حسّن لكل واحدٍ منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهو ذو لسانين ، فإذا وعد كل طائفةٍ أن ينصرها وكذلك إذا أثنى على كل واحدةٍ منهما فإذا خرج ذمَّها فهو ذو لسانين بل الواجب أن يسكت أو يثني على المُحق من المتعادين في غيبته وحضوره وبين يدي عدوه ، فإذا دخل على المتعادين وجامل كل واحدٍ منهما وكان صادقاً في كلامه لم يكن منافقاً ولا ذو لسانين . [٣]

فالمؤمن صادقٌ لا يكذب واضحٌ لا يتملق يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم .

---

[١] شرح صحيح مسلم للنووي ٧٩/١٦ .

[٢] فتح الباري ٤٩٠/١٠ .

[٣] إحياء علوم الدين ١٥٠/٣ .

قيل لابن عمر : إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نــتكلم إذا خرجنا من عندهم فقال : كنا نعُدُّ ذلك نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ . [١]

ولذلك عاقب الله ذا الوجهين بنقيض قصده ، فعن عمار بن ياسر قــال : قال رسول الله ﷺ : " من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يــوم القيامة " [٢]

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله " . [٣]

وقال ابن مسعود : لا يكوننَّ أحدكم إِمَّعة قالوا : وما الإمعة ؟ قال : الذي يجري مع كل ريح . [٤]

وقال الحسن البصري : إن المؤمن يلقاه الزمان بعد الزمان بــأمرٍ واحــد ووجهٍ واحد ونصيحة واحدة وإنما يُبدِّل المنافق يشاكل كل قوم ويسعى مع كــل ريح . [٥]

الدروس المستفادة من هذا الحديث

١) معيار التفاضل عند الله هو التقوى والعلم الصالح .

٢) أصحاب الأصول العريقة والشرف إذا أسلموا وتفقَّهوا ازدادوا شرفاً وفضلاً .

---

[١] البخاري كتاب الأحكام باب ما يكره من ثناء السلطان وإذا خرج قال غير ذلك ١٨١/١٣ رقم ٧١٧٨ .

[٢] أبو داود كتاب الأدب باب في ذي الوجهين ٢٧٠/٤ رقم ٤٨٧٣، وابن حبان فــي صــحيحه ٦٨/١٣ رقــم ٥٧٥٦ .

[٣] أحمد في المسند ٧/٨ رقم ٧٨٧٧ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٤٦/١٠ وإسناده صحيح .

[٤] إحياء علوم الدين ١٥٠/٣ .

[٥] الزهد لهناد بن السري ٥٧٩/٢ .

٣) فضيلة الصدق والتحذير من الكذب والخداع وكل صور النفاق .

٤) ذم ذي الوجهين فهو لا يكون عند الله وجيهاً .

٥) الجزاء من جنس العمل فذو الوجهين استخدم لسانين لإرضاء الناس فأبدله الله بهما يوم القيامة لسانين من نار .

علامات النفاق

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أربعةٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من نفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدَّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) .

تخريج الحديث :

أخرج هذا الحديث :

(أ) البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافق ١١١/١ رقم ٣٤ .

(ب) مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ٥٨ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص سبقت ترجمته .

معاني المفردات :

منافقاً : المنافق هو الذي يُظهر خلاف ما يُبطن وإنما سُمِّي فاعل ذلك منافقاً لأحد أسباب ثلاثة : أولها : أنه يستر كفره فأشبه الداخل في النفق ، ثانيها : لأنه شُبِّه باليربوع الذي له جحرٌ يسمى النافقاء فإذا طُلب من واحد هرب إلى الآخر فكذلك المُنافق يخرج من الإيمان في غير الوجه الذي يدخل فيه ، ثالثها : أنه شُبِّه باليربوع من جهة أن اليربوع يخرق في الأرض حتى إذا قارب ظاهرها أرقَّ التراب فإذا رابه ريبٌ رفع التراب برأسه فخرج فظاهر جحره تراب وباطنه حُفَر ، وكذلك المنافق

ظاهر أمره الإيمان وباطنه الكفر . [١] يقال نافق يُنافق منافقـــةً ونفاقـــاً والنفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب بمعناه المخصوص به وهو الـــذي يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر .

خالصاً : أي متميّزاً واضحاً .

خصلة : بفتح الخاء أي شعبة من شُعَبِه وجزءٌ منه أو حالةٌ من حالاته .

يدعها : أي يتركها .

أؤتمن : من الائتمان وهو جعل الشخص أميناً ثم الطلب منه أن يحفظ الأمانـــة والمؤتمن في القوم هو الذي يثقـــون فيـــه ويجعلونـــه أمينـــاً حافظـــاً يقال : أؤتمن الرجل فهو مؤتمن .

خان : الخيانة : هي التصرُّف في الأمانة بخلاف أمر الشرع .

كذب : الكذب ضد الصدق وهو : الإخبار على خلاف الواقع .

عاهد : من المعاهدة وهي المحالفة والمواثقة .

غدر : من الغدر وهو ضد الوفاء .

خاصم : من المخاصمة وهي المجادلة .

فجر : الفاجر : هو المُنبعث في المعاصي والمحارم ، والفجور هو : الميل عن الحق والاحتيال في رده .

---

[١] راجع : إكمال المعلم للقاضي عياض ٣١٣/١ ، ٣١٤ .

المعنى الإجمالي للحديث

بيَّن لنا النبي ﷺ في هذا الحديث أظهر صفات المنافقين التي تُميِّزُهم عن غيرهم وتكشف سرائرهم وتفضح حقيقة ما في نفوسهم فهم يُظهرون الإيمان ويعاشرون أهله .

ولكنهم يكذبون إذا حدَّثوا لأن الصدق نور وصدورهم مظلمة والنور لا يخرج من الظلام ، وكل إناءٍ ينضح بما فيه ، ويُخلفون الوعد ويغدرون عند العهد ويفجرون عند الخصومة ويخونون الأمانة لأنهم لا يستشعرون أن الله معهم يطَّلع على أحوالهم لا تخفى عليه صغيرةٌ ولا كبيرة فهم يخشون الناس ولا يخشون الله ، ويرغبون في رضاهم ولا يُهمهم أرضي الله عنهم أم لا ، قلوبهم مظلمة وسرائرهم فاسدة وأخلاقهم مزدولة .

فإذا وُجدت إحدى صفات المنافقين في مسلم أضرَّت بإيمانه فإذا اكتملت عنده كان شديد الشبه بهم ، ويُخشى عليه من سوء الخاتمة لأن المعاصي بريد الكفر ونفاق العمل بوَّابة نفاق الاعتقاد .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث أخص صفات المنافقين وأبرز ملامحهم الشخصية التي تُميِّزهم عن غيرهم وتكشف حقيقة ما في نفوسهم .

والنفاق نوعٌ من الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان الشر وهو ينقسم في ميزان الشرع إلى قسمين :-

الأول : النفاق الأكبر وهو : أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ويُبطن ما يُناقض ذلك كله أو ما يُناقض بعضه وهذا النفاق كفرٌ بواح وهو الذي كان موجوداً في عهد رسول الله

ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وفضحهم وتكفيرهم والتشنيع عليهم وأخبر أن أهله ﴿ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (١) ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .(٢)

الثاني : النفاق الأصغر وهو : نفاق العمل وهو أن يكون الإنسان مؤمناً بأركان الإسلام والإيمان ولكنه يُظهر الصلاح والاستقامة عليها ويُبطن خلاف ذلك وهذا النوع في جملته يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية ، ولذلك قال أبو الدرداء : خشوع النفاق أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع . (٣)

وقال عمر بن الخطاب على المنبر : إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم قالوا : كيف يكون المنافق عليماً ؟ فقال : يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور(٤).

وسُئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال : هو الذي يصف الإسلام ولا يعمل به . (٥)

وهذا النوع من النفاق قد يقع فيه أي مؤمن دون أن يدري ولذلك كان الصحابة يخشون على أنفسهم من الوقوع فيه حتى سأل سيدنا عمر أم سلمة فقال

---

(١) النساء : ١٤٥ .

(٢) التوبة : ٨٤ .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٢٤٣/٧ رقم ٣٥٧١١ ، شعب الإيمان للبيهقي ٣٦٤/٥ رقم ٦٩٦٦ .

(٤) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر ٦٣٣/٢ رقم ٦٨٥ .

(٥) مصنف بن أبي شيبة ٤٨٤/٧ رقم ٣٧٤١٦ ، وصفة المنافق لجعفر الفريابي ٦٦/١ رقم ٢٧٠ ، السنة لعبد الله بن أحمد ٣٧٢/١ رقم ٨٠٦ .

لها : أأنا من المنافقين ؟ [١] ، قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه . [٢]

والخوف من الوقوع في هذا النوع من النفاق علامة الإيمان ولذلك أكثر الصالحون من التعوُّذ من الوقوع فيه ، سمع رجل أبا الدرداء يتعوَّذ من النفاق في صلاته فلما سلَّم قال له : ما شأنك وشأن النفاق ؟ فقال : اللهم اغفر لي – ثلاثاً – ثم قال : لا تأمن البلاء والله إن الرجل ليُفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه . [٣]

فكان الصحابة يخافون نفاق العمل ولم يُنقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع ولا يلزم من خوفهم من النفاق وقوعه منهم بل صدر ذلك منهم على سبيل المبالغة في الورع والتقوى فكان ذلك دليل الإيمان .

وقيل للإمام أحمد : ما تقول في من لا يخاف على نفسه النفاق ؟ فقال : ومن يأمن على نفسه النفاق ؟ [٤] ، ولقد استقرَّ هذا المعنى في نفوس الصالحين حتى كان الحسن البصري يحلف في المسجد بالله الذي لا إله إلا هو أنه ما مضى من مؤمنٍ قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مُشفق ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن وكان يقول : من لم يخف النفاق فهو منافق . [٥]

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ٣١٧/٢٣ .

[٢] صحيح البخاري كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر فتح الباري ١٣٥/١ .

[٣] صفة المنافق ٦٩/١ رقم ٧٤ ، جامع العلوم والحكم ٤٣٤/١ .

[٤] جامع العلوم والحكم ٤٣٤/١ .

[٥] صفة المنافق ٧٣/١ رقم ٨٧ ، فتح الباري ٣٧/١ .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : " اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق " [١].

ولما تقرَّر عند الصحابة أن النفاق هو : اختلاف السر والعلانية خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغيَّر عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك نفاقاً .

فعن حنظلة الأُسيدي قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال قلت : نافق حنظلة قال : سبحان الله ما تقول ؟ قال قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يُذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً ، قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلت على رسول الله ﷺ قلت : نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تُذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طُرُقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات " . [٢]

---

[١] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستعاذة ٢/٩٣ رقم ١٥٤٦ ، النسائي كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من النفاق والشقاق وسوء الأخلاق ٨/٢٦٤.

[٢] مسلم كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة ٤/٢١٠٦ رقم ٢٧٥٠ .

وعن أنس قال : قالوا : يا رسول الله إنّضا نكون عندك على حــالٍ فــإذا فارقناك كنا على غيره قال : " وكيف أنتم؟ " قالوا : الله ربنا في السر والعلانية قال : " ليس ذاكم من النفاق " . [١]

فالواجب على المؤمن أن يحذر أن يخالف ظاهره باطنه وســره علانيتــه فتلك حقيقة النفاق .

والنفاق الأصغر مؤدٍّ للنفاق الأكبر كما أن المعاصي بريــد الكفــر فكمــا يخشى من أصرّ على المعصية أن يُسلب الإيمان عند الموت فكذلك يُخشى على من أصرَّ على خصال النفاق أن يُسلب الإيمان فيصير منافقاً خالصاً .

ومن أعظم وأخطر صور النفاق العملي : أن يعمل الإنسان عملاً ويُظهر أنه قصد به الخير وإنما عمله في الحقيقة ليتوصَّل به إلى غرضٍ فاسد فيتم لــه ذلك ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضه ويفرح بمكره وخداعه وحمد الناس لــه على ما أظهره ويتوصل به إلى غرضه الذي أبطنه قال أبو العتاهية :

ليســـت الـــدنيا إلا بـــدين ** وليس الدين إلا مكارم الأخلاق

إنما المكر والخديعة في النـــار ** وهي من خصال أهــل النفــاق

الفائدة الثانية :

مظاهر النفاق كما جاءت في الأحاديث : خمسة خصال إذا وجدت خصلةٌ منهن في مسلم كانت فيه خصلةٌ من نفاق حتى يَدَعها وإذا اجتمعن في مسلمٍ كان شديد الشبه بالمنافقين ويُخشى عليه من سوء العاقبة وإن صام وصلَّى وزعم أنه مسلم .

---

[١] أبو يعلي في مسنده ١٠٥/٦ رقم ٣٣٦٩ ، عبد بن حميــد فــي مســنده ص٤٠٥ رقــم ١٣٧٧ ، وقــال الهيثمي : رواه أبو يعلي والبزار ورجال أبي يعلي رجال الصحيح مجمع الزوائد ٣٤/١ .

الأولى : الكذب في الحديث : ولقد سُئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن كذَّاباً ؟ فقال : " لا " [١] ، وقال : " يُطبع المرء على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب " [٢] ، وقال " كبُرت خيانةً أن تُحدِّث أخاك حديثاً هو لك به مُصدِّق وأنت له به كاذب " . [٣]

والكذب أخصُّ صفات المنافقين قال الحسن البصري : أُسُّ النفاق الذي بُني عليه : الكذب [٤] ، ولذلك ما كان من خلقٍ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة . [٥]

ولقد حذَّر رسول الله ﷺ من جميع صور الكذب حتى في الأمور التي يراها البعض تافهة لأنه متى استهان الإنسان بصغير الكذب وقع في كبيره ، وفي الحديث " من قال لصبيٍ تعال هاك أُعطيك ثم لم يُعطه فهي كذبة " . [٦]

---

[١] مالك في الموطأ كتاب الكلام باب ما جاء في الصدق والكذب ص ٧٥٦ ، وقال ابن عبد البر : لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت وهو حديث حسن مرسل التمهيد ٢٥٣/١٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٧/٤ رقم ٤٨١٢ مرسلاً أيضاً .

[٢] أحمد في المسند ٢٢٥/١٦ رقم ٢٢٠٧٠ من حديث أبي أمامة وهو ضعيف لأنه منقطع وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص : البيهقي في السنن الكبرى ١٩٧/١٠ ، وأبو يعلي في مسنده ٦٧/٢ رقم ٧١١ ، والبزار في مسنده ٣٤٠/٣ رقم ١١٣٩ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٩٢/١ وقال ابن حجر : وسنده قوي فتح الباري ٥٢٤/١٠ ، وقال الدار قطني : روي مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أشبه بالصواب علل الدار قطني ٣٣٠/٤ .

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في المعاريض ٣٩٥/٤ رقم ٤٩٧١ ، أحمد في المسند ٤٤٦/٣ رقم ١٧٥٦٧ ، وإسناده حسن فيه راو مختلف فيه ، قال الهيثمي : وبقية رجاله ثقات مجمع الزوائد ١٤٢/١ .

[٤] صفة المنافق للفريابي ص ٦١ رقم ٥٠ .

[٥] الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الصدق والكذب ٣٩٢/٣ رقم ١٩٨٠ وحسنه ، وأحمد في المسند ٥٣٦/١٧ رقم ٢٥٠٦١ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١٤٢/١ .

[٦] أحمد في المسند ٣٢٦/٩ رقم ٩٧٩٧ وإسناده صحيح إلا أنه منقطع فالزهري لم يسمع من أبي هريرة .

وعن عبد الله بن عامر قال : دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت : ها تعال أعطيك فقال لها رسول الله ﷺ : " ما أردت أن تعطيه ؟ " قالت : أردت أن أعطيه تمراً فقال لها رسول الله ﷺ : " أما إنك لو لم تعطه شيئاً كُتبت عليك كذبة " [١] .

والكذب ممنوع في جميع الأشياء حتى في الأمور المنزلية الصغيرة ، فعن أسماء بنت يزيد قالت يا رسول الله : إن قالت إحدانا لشيءٍ تشتهيه لا أشتهيه يُعدُّ ذلك كذباً ؟ فقال : " إن الكذب يكتب كذباً حتى تُكتب الكُذيبة كذيبة " . [٢]

ولقد حذَّر رسول الله ﷺ من الكذب ولو كان على سبيل المزاح فقال : " ويلٌ للذي يُحدِّث بالحديث ليُضحك به القوم فيكذب ويلٌ له ويل له " [٣] ، وقال : " أنا زعيمٌ ببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً " [٤] ، وقال : " لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقاً " [٥] ، وذلك لأن " الكذب ريبة والصدق طمأنينة " . [٦]

الثانية : إخلاف الوعد وهو يدل على عدم احترام الكلمة والاستهانة بالآخرين ويدل أيضاً على ضعف النفس وخورها وهو ينقسم إلى قسمين : الأول : أن يَعِد وهو في نيَّته عدم الوفاء وهو حرام .

---

[١] أبو داود كتاب الأدب باب في التشديد في الكذب ٢٩٩/٤ رقم ٤٩٩١ ، أحمد في المسند ٢٧٩/١٢ رقم ١٥٦٤٢ وإسناده ضعيف لجهالة أحد رواته .

[٢] أحمد فى مسنده ٥٥٩/١٨ رقم ٢٧٣٤٤.

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في التشديد في الكذب ٢٩٩/٤ رقم ٤٩٩٠ ، الترمذي كتاب الزهد باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس ١٤٢/٤ رقم ٢٣٢٢ وحسنه .

[٤] أبو داود كتاب الأدب باب في حسن الخلق ٢٥٤/٤ رقم ٤٨٠٠ وإسناده حسن .

[٥] أحمد في المسند ٤١٣/٨ رقم ٨٧٥١ وهو مرسل .

[٦] الترمذي كتاب صفة القيامة ٢٣٢/٤ رقم ٢٥٢٦ وقال : حديث حسن ، أحمد في المسند ٣٤٧/٢ رقم ١٧٢٧ وإسناده صحيح .

والثاني : أن يَعِد وينوي الوفاء ثم يبدو له ألا يفي فيُخلِفُ من غير عـذر قاهر .

والوفاء بالوعد واجبٌ على الصحيح ما لم يترتَّب عليه ضرر أو إثم فـإن ترتب عليه ضرر للآخرين أو معصية لله وجب عدم الوفاء به .

وفي الحديث : " من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها فليُكَفِّر عـن يمينه وليفعل الذي هو خير " [١] ، وفي الحديث أيضاً : " لأن يلج أحدكم بيمينـه في أهله آثم عند الله تعالى من أن يُعطي كفَّارته التي افترض الله عليه " [٢] .

فإذا كان إخلاف الوعد مقارناً للوعد كان حراماً أما لو كان عازماً علـى الوفاء ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا ليس من صور النفـاق ، وإنمـا يعظُم الإخلاف عند التعمُّد دون عذر ، فعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال : " إذا وعد لرجل أخاه ومن نيَّته أن يفي له فلم يفِ فلا إثم عليه " [٣] .

وإخلاف الوعد نوعٌ من الكذب وإنما ذكره مفرداً من باب عطـف العـام على الخاص تنبيهاً لزيادة قُبحه وشدة ضرره .

الثالثة : الفجور عند الخصومة والمقصود بالفجور : أن يخرج عن الحق عمداً حتى يصير الحق عنده باطلاً والباطل حقاً وهو ثمرة الكذب .

---

[١] مسلم كتاب الإيمان باب ندب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه ١٢٧١/٣ رقم ٦٥٠ .

[٢] البخاري كتاب الإيمان والنذور باب قوله تعالى " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ... الآية ٥٢٦/١١ رقم ٦٦٢٥ ، مسلم كتاب الإيمان باب النهي عن الإصرار على اليمين فيما يتأذى به أهل الحالف ممـا لـيس بحرام ١٢٧٦/٣ رقم ١٦٥٥ .

[٣] أبو داود كتاب الأب باب في العدة ٣٠٠/٤ رقم ٤٩٩٥ ، الترمذي كتاب الإيمان باب ما جـاء فـي علامـة المنافق ٢٨٧/٤ رقم ٢٦٤٢ ، وقال : ليس إسناده بالقوي .

وفي الحديث : " إيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار " [١] ، فإذا أُعطي الرجل قدرةً عند الخصومة فاستخدم قدرته في الدفاع عن الباطل فانتصر له حتى خيَّل للسامع أنه حق وأوهن الحق وجعله في صورة الباطل كان ذلك من أقبح المُحرَّمات وأخبث خصال النفاق .

فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ : " من خاصم في باطلٍ وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع " [٢] وفي رواية : " ومن أعان على خصومةٍ بظلم فقد باء بغضبٍ من الله " .[٣]

الرابعة : إذا عاهد غدر ولم يفِ بالعهد ولقد أمر الله بالوفاء بالعهد فقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٥] وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٦] .

---

[١] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٢٠١٣/٤ رقم ٢٦٠٧ .

[٢] أبو داود كتاب الأقضية باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ٣٠٤/٣ رقم ٣٥٩٧ ، أحمد في المسند ٩٩/٥ رقم ٥٥٤٤ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

[٣] أبو داود كتاب الأقضية باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ٣٠٤/٣ رقم ٣٥٩٨ .

[٤] الإسراء : ٣٤ .

[٥] النحل : ٩١ .

[٦] آل عمران : ٧٧ .

والغدر وعدم الوفاء معصيةٌ وشؤم في الدنيا وفضيحةٌ وعذابٌ في الآخرة ، وفي الحديث : " إن الغادر يُنصب له لواءٌ يوم القيامة فيُقال : ألا هــذه غــدرة فلان " [1] .

والوفاء بالعهد واجب والغدر حرام حتى لو كان العهد بين مسلم وبين غيره قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [2] .

وفي الحديث عن حذيفة بن اليمان قال : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنــي خرجت وأبي حسيل فأخَذَنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمدا ، فقلنا : ما نريده ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينــة ولا نُقاتل معه فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال : " انصرفا نفي لهم بعهــدهم ونستعين الله عليهم " [3] .

ومن أعظم العهود التي يجب الوفاء بها العهد مع الله على طاعته واتبــاع رسالته والالتزام بسائر صور العبادة والوفاء للإمام بطاعته والإلتزام بالبيعــة ، وفي الحديث : " ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم الله يوم القيامة ولا يُزكِّيهم فذكر منهم : ورجلٌ بايع إماماً لا يُبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه ما يُريد وفَّى له وإلا لم يفِ له " .[4]

---

[1] البخاري كتاب الآداب باب ما يدعى الناس بآبائهم ٥٧٨/١٠ رقم ٦١٧٧ ، مسلم كتاب الجهاد والسير بــاب تحريم الغدر ١١٦٠/٣ رقم ١٧٣٥ .

[2] الأنفال : ٥٨ .

[3] مسلم كتاب الجهاد والسير باب الوفاء بالعهد ١٤١٤/٣ رقم ١٧٨٧ .

[4] مسلم كتاب الشهادات باب اليمين بعد العصر ٣٣٥/٥ رقم ٢٩٧٢ ، مسلم كتاب الإيمان بــاب بيــان غلــظ تحريم إسبال الازار ١٠٢/١ رقم ١٠٦ .

وجميع عهود المسلمين يجب الوفاء بها ما لم تكن معصية وتراضوا عليها سواءً كانت في البيوع أو النكاح أو غيرها .

ويكفي الغادر ذماً أن الله سيكون خصمه يوم القيامة ومن كان الله خَصْمُه خَصَمَه ، وفي الحديث : " ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يُعطه أجره " . [١]

الخامسة : خيانة الأمانة فصفة المؤمنين رد الأمانات إلى أهلها ورعاية العهود قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [٣] وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٤] .

وفي الحديث : " أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك " [٥] .

وقال النبي ﷺ في خطبة الوداع : " من كانت عنده أمانه فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها " [٦] .

---

(١) البخاري كتاب البيوع باب إثم من باع حراً ٤٨٧/٤ رقم ٢٢٢٧ .

(٢) المؤمنون : ٨ .

(٣) النساء : ٥٨ .

(٤) الأنفال : ٢٧ .

(٥) أبود داود كتاب البيوع باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ٢٨٨/٣ رقم ٣٥٣٤ ، والترمذي كتاب البيوع باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر يبيعها له ٣٣/٣ رقم ١٢٦٨ وقال : حديث حسن .

(٦) أحمد في المسند ٢٩٢/١٥ رقم ٢٠٥٧٣ ، السنن الكبرى للبيهقي ٩٧/٦ رقم ١١٣٠٦ .

فخائن الأمانة شديد الشبه بالمنافقين حيث يُظهر الأمانة ويُبطن الخيانة ، وفي الحديث : " لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " [١] .

والوفاء بالأمانة أحد أمورٍ ستة ضمن رسول الله ﷺ لمن اتَّصف بها الجنة ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " اضمنوا لي من أنفسكم ستاً أضمن لكم الجنة : اصدُقوا إذا حدَّثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدُّوا إذا اؤتمنتم وغُضُّوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم " [٢] .

وخائن الأمانة في الدنيا يُكلَّف بأدائها يوم القيامة فلا يستطيع فيهوي في النار ، قال ابن مسعود : القتل في سبيل الله يُكفِّر كل ذنبٍ إلا الأمانة يُؤتى بصاحب الأمانة فيُقال له : أدِّ أمانتك فيقول : من أين يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى الهاوية فيهوي به حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هناك كهيئتها فيضعها على عنقه فيصعد بها في نار جهنم حتى إذا رأى أنه قد خرج منها زلَّت فهوى فيهوي في أثرها أبد الآبدين قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث وأشد من ذلك الودائع " [٣] .

ولذلك كان النبي ﷺ يتعوَّذ من الخيانة فيقول : " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة " .[٤]

---

[١] أحمد في المسند ٤٣٨/١٠ رقم ١٢٣٢٤ ، ابن حبان في صيحه ٤٢٢/١ رقم ١٩٤ وإسناده حسن فيه راو مختلف فيه راجع : مجمع الزوائد ٩٦/١ .

[٢] أحمد في المسند ٤١٣/١٦ رقم ٢٢٦٥٦ ، ابن حبان في صحيحه ٤٢٢/١ رقم ٥٠٦ رقم ٢٧١ ، والحاكم في المستدرك ٣٩٩/٤ رقم ٨٠٦٦ وصححه ووافقه الذهبي لكنه قال : فيه إرسال ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة مجمع الزوائد ١٤٥/٤ .

[٣] السنن الكبرى للبيهقي ٢٨٨/٦ رقم ١٢٤٧٢ ، حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٠١/٤ .

[٤] أبو داود كتاب الصلاة باب في الاستعاذة ٩٣/٢ رقم ١٥٤٧ ، النسائي كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من الجوع ٢٦٣/٨ .

الفائدة الثالثة :

هذا الحديث عدَّه جماعة من العلماء مشكلاً لأن هذه الخصال الأربعة قد تُوجد في المسلم المُجمَع على عدم الحكم بكفره لأن العلماء مُجمِعون على أن من كان مصدِّقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال فإننا لا نحكم عليه بكفر ولا هو منافق يستوجب الخلود في النار فإن إخوة يوسف جمعوا هذه الخصال وكذا وجد في بعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله فكيف نحكم عليهم بالنفاق .

وقد أجاب العلماء على هذا بستة أجوبة :

الأول : أنه محمولٌ على من غلبت عليه هذه الخصال وتهاون بها واستخفَّ بأمرها فإن كان كذلك كان فاسد الاعتقاد غالباً فيكون منافقاً خالصاً فأما من ندر وقوع ذلك منه فليس داخلاً فيه .

الثاني : أن المراد بالوصف بالنفاق في هذا الحديث هو : الإنذار والتهديد والتحذير من ارتكاب هذه الخصال وظاهره غير مراد .

الثالث : أن اللام في النفاق ليست للجنس وإنما للعهد وأن هذا الحديث ورد في رجلٍ بعينه منافق ، وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح القول فيقول : فلان منافق وإنما كان يُشير إشارةً كما كان يقول : " ما بال أقوامٍ يفعلون كذا وكذا " [١] .

الرابع : أن اللام للعهد وأن الحديث وارد في حق المنافقين في عهد النبي ﷺ وتلك علاماتهم لأنهم حدَّثوا بأنهم آمنوا فكذبوا وائتُمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا ، قال القاضي عياض : وهو قول

---

[١] البخاري كتاب الصلاة باب ذكر البيع الشراء على المنبر في المسجد ١/٦٥٥ رقم ٤٥٦ ، ومسلم كتاب العتق باب إنما الولاء لمن أعتق ٢/١١٤١ رقم ١٥٠٤ .

عطاء بن أبي رباح وإليه رجع الحسن البصري وهو مذهب سعيد بن جبير وابن عمر وابن عباس وإلى هذا المعنى مال كثير من أئمتنا .[١]

الخامس : قال النووي : ليس فيه إشكال بل معناه صحيح والذي قاله المحقِّقون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه : أن هذه خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومُتخلِّقٌ بأخلاقهم لأنه منافق في الإسلام فيُظهره ويُبطن الكفر ولم يُرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلَّدين في الدرك الأسفل من النار ، وقول النبي ﷺ : " كان منافقاً خالصاً " معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال .[٢]

قال ابن حجر : محصَّل هذا الجواب : الحمل في التسمية على المجاز أي صاحب هذه الخصال كالمنافق وهو بناءاً على أن المراد بالنفاق نفاق الكفر .[٣]

السادس : النفاق نفاقان نفاق اعتقاد وهو : إظهار الإسلام وإبطان الكفر وصاحبه في الدرك الأسفل من النار ، ونفاق عمل وهو : أن يتخلَّق ببعض أخلاق المنافقين .

والمقصود في الحديث : نفاق العمل وهو الذي سأل عنه سيدنا عمر سيدنا حذيفة لمَّا قال له : هل تعلم فيّ شيئاً من النفاق ؟ أي من صفات المنافقين الفعلية وهو الذي ارتضاه القرطبي في المفهم .[٤]

قال الإمام الترمذي بعد روايته هذا الحديث : معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل وإنما كان نفاق التكذيب في عهد رسول الله ﷺ .[٥]

قال ابن حجر : هو أحسن الأجوبة .[٦]

---

[١] إكمال المعلم ٣١٤/١ ، ٣١٥ .
[٢] شرح صحيح مسلم للنووي ٤٧/٢ .
[٣] فتح الباري ١١٣/١ .
[٤] المفهم ١ /٢٥٠ .
[٥] سنن الترمذي ٢٨٧/٤ .
[٦] فتح الباري ١١٣/١ .

الفائدة الرابعة :

ورد في هذا الحديث أن خصال المنافقين أربع وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان " [١] .

فتحصّل من الحديثين أن للمنافق خمس خصال فكيف ذكر مرةً أنها أربع ومرةً أنها ثلاث ثم ذكر مجموع خمس خصال ؟

للعلماء في ذلك أراء :-

الأول : قال النووي لا منافاة بينهما فإن الشيء الواحد قد تكون له علامات كل واحدة منهن تحصل بها صفته ثم قد تكون تلك العلامة شيء واحد وقد تكون أشياء . [٢]

الثاني : قال القرطبي : يُحتمل أن يكون ذلك لأن النبي ﷺ استجدَّ له من العلم بخصال المنافقين ما لم يكن عنده بالوحي أو بالمشاهدة لتلك منهم [٣] .

الثالث : قال ابن حجر : ليس بين الحديثين تعارض لأنه لا يلزم من عدّ الخصلة المذمومة الدالة على كمال النفاق كونها علامة على النفاق لاحتمال أن تكون العلامات دالات على أصل النفاق والخصلة الزائدة إذا أُضيفت إلى ذلك كمل بها خلوص النفاق ، وفي رواية مسلم ما يدل على عدم إرادة الحصر

---

[١] البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافق ١١١/١ رقم ٣٣ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ٥٩ .

[٢] شرح صحيح مسلم للنووى ٤٨/٢ .

[٣] المفهم ٢٥١/١.

ولفظه : " من علامات المنافق ثلاث " [١] وإذا حُمل اللفظ الأول على هذا لم يرد السؤال فيكون قد أخبر ببعض العلامات في وقتٍ وببعضها في وقتٍ آخر . [٢]

ومجموع الصفات التي وصف بها رسول الله ﷺ المنافقين خمسة ولا شك أن للمنافقين خصالاً أخرى مذمومة كما ذكر الله في كتابه منها أنهم ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [٣] فيُحتمل أن يُقال : إنما خُصَّت تلك الخصال الخمس بالذكر لأنها أظهر عليهم من غيرها عند مخالفتهم للمسلمين أو لأنها هي التي يضرُّون بها المسلمين ويقصدون بها مفسدتهم دون غيرها من صفاتهم . [٤]

الدروس المستفادة من هذا الحديث :

١- الحذر من النفاق والإكثار من التعوذ منه .

٢- من صفات المنافقين : الكذب في الحديث و خيانة الأمانة والفجور في الخصومة وإخلاف الوعد والغدر عند العهد .

٣- من صفات المؤمنين : صدق الحديث وحفظ الأمانة والعدل عند الخصومة وعدم إخلاف الوعد والوفاء بالعهد .

٤- الحذر من نفاق العمل لأنه قد يؤدي إلى نفاق الاعتقاد ويخشى على فاعله من سوء الخاتمة .

---

[١] مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ٥٩ .

[٢] فتح الباري ١١٢/١ .

[٣] النساء : ١٤٢ .

[٤] المفهم ٢٥١/١ .

أكبر الكبائر

عن أبى بكرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر ؟) قلنا : بلى يارسول الله قال : (الإشراك بالله وعقوق الوالدين) وكان متّكئاً فجلس فقال : (ألا وقول الزور) فمازال يُكرِّرُها حتى قلنا ليته سكت .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ – البخارى كتاب الشهادات باب ما قيل فى شهادة الزور ٥ / ٣٠٩ رقم ٢٦٥٣.

ب– مسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ١ / ٩١ رقم ٨٧ .

الراوى الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل نُفيع بن الحارث بن كلدة أبو بكرة الثقفى كان عبداً بالطائف فلمَّا حاصرها رسول الله ﷺ قال : " أيُّما حر نزل إلينا فهو آمن وأيُّما عبد نزل إلينا فهو حر [1] .

فنزل إليه عددٌ من عبيد أهل الطائف فيهم نفيع فأعتقهم رسول الله ﷺ وكان نفيع تدلَّى إليهم فى بكرة فكنوه أبا بكرة وكان يقول : أنا مولى رسول الله ﷺ

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ / ١٦ ،١٧ ، وذكره الزيلعى فى نصب الراية وعزاه إلى المغازى للواقدى نصب الراية ٢٨٠/٣.

فلمَّا أسلم أهل ثقيف سألوا رسول الله ﷺ أن يردَّ إليهم أبا بكرة عبداً فقال : " لا هو طليق الله وطليق رسوله " [١].

سكن البصرة وكان من فقهاء الصحابة . قال الحسن البصرى : لم ينزل البصرة أفضل من أبى بكرة وعمران بن حصين [٢] ، وقال ابن سعد كان صالحاً ورعاً [٣] ، وقال بن حجر : كان من فضلاء الصحابة وأنجب أولاداً لهم شهرة [٤] .

روى عن النبي ﷺ جملةً من الحديث وروى عنه أولاده : عبيد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز وكبشة وروى عنه أيضاً: أبو عثمان النهدى والحسن البصري ومحمد بن سيرين والأحنف بن قيس وربعي بن خراش وغيرهم .

توفي سنة إحدى وخمسين وصلَّى عليه أبو برزة الأسلمى وكان النبى ﷺ قد آخى بينهما .

معانى المفردات

أنبئكم : أى : أُخبركم .

الكبائر : واحدتها كبيرة وهى الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً لعِظم أمرها كالقتل أو الزنا والفرار من الزحف وغير ذلك .

الإشراك بالله : هو أن تجعل لله شريكاً فى الخلق أو فى العبادة .

---

[١] أحمد فى المسند ٤٠٣/١٣ رقم ١٧٤٥٩ ، وقال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله ثقات مجمع الزوائد ٢٤٥/٤ وأخرجه سعيد بن منصور فى سننه ٣٣٨/٢ رقم ٢٨٠٨، والطحاوى فى شرح معانى الآثار ١٧٨/٣ .

[٢] سير أعلام النبلاء ١٠/٣ .

[٣] الطبقات الكبرى ١٧/٧ .

[٤] الإصابة ٦/ ٣٦٩ .

عقوق : العقوق ضد البر وهو مشتقٌ من العق وهو من الشق والقطع والجمع عققة بفتح جميع الحروف .

وعقوق الوالدين هو :عصيانهما وقطع البر الواجب عنهما يقال : عقَّ والده يعقه عقوقاً فهو عاق إذا آذاه وعصاه وخرج عليه .

متكئاً : المتَّكىء فى العربية هو كل من استوى قاعداً على وطاء متمكِّناً والعامة لا تعرف المتكىء إلا من مال فى قعوده معتمداً على أحد شقيه وأصله من الوِكاء وهو ما يشد به الكيس وغيره والتاء فيه بدل من الواو وكأنه أوكأ مقعدته وشدَّها بالقعود على الوطاء الذى تحته والمقصود فى الحديث أنه كان مائلاً فى قعوده معتمداً على أحد شقيه .

الزور : الزور هو الكذب والباطل وأصل الزور : تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يُخيَّل لمن سمعه أنه بخلاف ما هو به .

يكرِّرها : أى يُعيدها مرةً بعد مرة .

المعنى الإجمالى للحديث

بيَّن لنا النبى ﷺ فى هذا الحديث جملةً من المعاصي التى يقبُح شرها ويعظُم ضررها فالشرك يُفسد دين الإنسان ويقطع صلته بخالقه ويحرمه من فضله ورحمته وجنته .

والعقوق يقطع صلة الإنسان بأبويه ويُفسد ما بينهما ويحرمه من بركتهما ودعاءهم له كما يحرمه من طول العمر وزيادة الرزق ، وشهادة الزور تُفسد العلائق بين الناس وتُضيّع الحقوق وتشيع الكذب وتجعل الإنسان غير آمن على نفسه وماله ولذلك اعتبر النبيﷺ هذه الثلاثة من أكبر الكبائر لأنها بمجموعها تفسد المجتمع وتهدم أركانه وشدَّد النبي ﷺ على شهادة الزور حتى لا يُستهان بها ولا يُقلل من خطورتها وضررها فضررها عظيم وشرها مستطير .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

قال بعض العلماء : ليس فى الذنوب صغائر بل سائر المعاصي كبائر وإنما يُقال لبعضها صغيرة ولبعضها كبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها وقالوا : لا يُمكن أن يُقال فى معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغُر باجتناب ما هو أكبر منها .

وقال جمهور العلماء : تنقسم المعاصى إلى صغائر وكبائر بحسب مفسدتها والحقيقة أنه لا خلاف بين الفريقين لإجماع الكل على تفاوت مراتب المعاصى وأن منها ما يقدح فى العدالة ومنها ما لا يقدح فيها .

وإنما نظر الفريق الأول إلى جانب الله فكرهوا تسمية الذنب صغيرة لأنهم كرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله تعالى وشدة عقابه وإجلالاً له عزَّ وجل عن تسمية معصيته صغيرة لأنها بالنظر إلى عظيم حقه وباهر عظمته كبيرة أيّ كبيرة ولذلك قالوا : لا تنظر إلى قدر المعصية ولكن انظر إلى قدر من عصيت ، و لم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم وإنما نظروا إلى مفسدة المعصية وما يترتَّب عليها فقسَّموها إلى صغائر وكبائر .

واستدلُّوا بقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [١] وبقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [٢] .

---

[١] النجم : ٣٢ .

[٢] النساء : ٣١.

والآية صريحة فى انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر واستدلوا بأحاديث كثيرة تؤيِّد مذهبهم فمنها عدّ مجموعة من الذنوب كبائر كالحديث الذى نشرحه هنا حيث خصَّ الكبائر ببعض الذنوب ولو كانت الذنوب كلها كبائر لم يسغ ذلك واستدلوا بقول النبى ﷺ " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر " [١] وهو صريحٌ فى أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر .

ولذلك قال الغزالى : إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه [٢] وقال إمام الحرمين : المرضي عندنا أن كل ذنب يُعصِ الله به كبيرة فرُبَّ شيىءٍ يُعَدُّ صغيرة بالإضافة إلى الأقران ولو كان فى حق الملك لكان كبيرة والرب أعظم من عُصي فكل ذنبٍ بالإضافة إلى مخالفته عظيم ولكن الذنوب وإن عظمت فهى متفاوتة فى رتبها [٣] واستنكر الإمام القرطبى على من زعم أن ابن عباس قال : الذنوب كلها كبائر فقال : ما أظنه صحيحاً عنه لأنه مخالفٌ لما فى كتاب الله تعالى من التفرقة بين المنهيَّات لأنه جعل من المنهيات صغائر وكبائر وفرق بينهما فى الحكم لمَّا جعل تكفير السيئات مشروطاً باجتناب الكبائر واستثنى اللمم من الكبائر والفواحش فكيف يخفى هذا الفرق على مثل ابن عباس ؟ وهو حبر القرآن [٤] ، وقال النووى : ذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصى إلى صغائر وكبائر وقد تظاهرت على ذلك دلائلٌ من الكتاب والسنة واستعمال سلف الأمة وخلفها . [٥]

---

[١] **مسلم كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ...إلخ ٢٠٩/١ رقم ٢٣٣ .**

[٢] **فتح البارى ٤٢٣/١٠ .**

[٣] **فتح البارى ٤٢٣/١٠ .**

[٤] **المفهم ٢٨٤/١ .**

[٥] **شرح صحيح مسلم ٨٥/٢ .**

وقال : قال العلماء رحمهم الله الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة وروي عن عمر وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهما أن الكبيرة تُمحى بالإستغفار والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار وحدُّ الإصرار هو : أن تتكرر منه الصغيرة تكراراً يُشعر بقله مبالاته بدينة [١].

الفائدة الثانية:

اختلف العلماء فى تحديد معنى الكبيرة وقد عرَّفوها بـآراءٍ عديـدة مـن أشهرها :

الأول : أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيدٌ شديد بنص كتابٍ أو سنة .

الثانى : أنها كل ذنبٍ ختمه الله بنارٍ فى الآخرة أو أوجب فيه حداً فى الدين وهو قول ابن عباس وأحمد بن حنبل والماوردى وغيرهم .

الثالث : هى كل ما نصَّ الشرع على تحريمه أو أوجب فى جنسه حد .

الرابع : أنها ما أوجبت الحد أو توجَّه إلى فاعلها الوعيد .

الخامس: أنها كل ذنبٍ توعَّد الله صاحبه بالنار وهو قول : الحسـن البصـرى وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك

السادس: هي كل ذنبٍ نصَّ القرآن على تحريمه وهى أربعةٌ فقط هى : أكل لحم الخنزير وأكل مال اليتيم ونحوه وأكل الميتة والفرار من الزحف وهـو مردود لعدم حصر المحرَّمات في هذه الأربعة .

السابع: كل ذنبٍ قُرن به وعيد أوحدّ أولعن وكل ذنب يُعلم أن مفسدته كمفسدة ما قُرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو كان أكبر من مفسدته هو كبيرة .

---

[١] شرح صحيح مسلم ٢/٨٦،٨٧ .

الثامن : قال الحليمى : هى كل محرَّم لعينه منهي عنه لمعنىً فى نفسه فإن فعله على وجهٍ يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشة فالزنا كبيرة وبحليلة الجار فاحشة والصغيرة ما تنقص رتبته عن رتبة المنصوص عليه فإن تعاطاه على وجهٍ يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان كبيرة فلمس الأجنبية صغيرة ولمس حليلة الجار كبيرة .

قال ابن حجر : وهو منهجٌ حسن ولا بأس باعتباره ومداره على شدة المفسدة وخِفَّتها . [1]

التاسع : الكبيرة ليس لها حدٌّ يعرفها العباد به وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها واستهانوا بها وإنما أخفاها الله عنهم ليمتنع العبد من الوقوع فى أى معصية خشية أن تكون كبيرة .

العاشر : قال إمام الحرمين : هى كل جريمة تُعلِم بقلة اعتناء مرتكبها بالدين وتُشعر برقة الديانة وتكون مبطلة للعدالة .

الحادي عشر : قال الجلال البلقينى وارتضاه بن الصلاح : الكبيرة هى : كل ذنبٍ عظُم عِظَماً يصح معه أن يُطلق عليه اسم الكبيرة ويُوصف بكونه عظيماً على الإطلاق ولها أمارات منها : إيجاب الحد ، ومنها الإيعاد عليه بالعذاب بالنار فى الكتاب والسنة ومنها : وصف فاعلها بالفسق ومنها اللعن : قال ابن عباس : الكبيرة هى : كل ذنبٍ ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذاب .

---

[1] فتح البارى ١٩١/١٢ .

الثانى عشر: قال القرطبى : كل ذنب أطلق الشرع عليه أنه كبيرة أو عظيم أو أخبر بشدة العقاب عليه أو علَّق عليه حداً أو شدَّد النكير عليه أو غلَّظه وشهد بذلك كتاب الله أوسنة رسوله أو إجماع المسلمين فهو كبيرة .[١]

قال ابن حجر : وهو من أحسن التعاريف [٢] .

والحقيقة أن هذه التعاريف إنما قُصد بها التعريف لا الحصر ولايسلم تعريفٌ منها من كلام حتى قال العز بن عبد السلام : لم أقف لأحدٍ من العلماء على ضابطٍ للكبيرة لايسلم من الاعتراض والأولى ضبطها بما يُشعر بتهاون مرتكبها بدينه ، قال ابن حجر : وهو ضابط حسن [٣] .

وذهب بعض العلماء إلى عدِّها دون ضبطها بحد فقال علي بن أبى طالب وعطاء وعبيد بن عمير هى : سبع .

وقال ابن عباس : هي الى السبعين أقرب منها الى السبع .

وقال تلميذه سعيد بن حبير : هى إلى السبعمائة أقرب وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً .

وقد صنف فيها الإمام الذهبى كتابه القيم " الكبائر" لكنه لم يستوعبها ومن أفضل وأجمع ما كُتب فيها كتاب " الزواجر عن اقتراف الكبائر " للحافظ ابن حجر الهيثمى وقد رتَّبه على أبواب الفقه وذكر كثيراً مما قيل إنه كبيرة وناقش ذلك ووضحه .

---

[١] المفهم ١ / ٢٨٤ .
[٢] فتح البارى ١٩١/١٢ ،وراجع : الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي ٧/١ ،٨ .
[٣] فتح البارى ٤٢٤/١٠ .

الفائدة الثالثة :

حذَّر النبى ﷺ أمته من الوقوع فى الشرك لأنه يُحبط الأعمال ويُفسدها ويجعلها هباءً منثورا مهما كان قدرها قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .(١)

والشرك يمنع مغفرة الذنوب قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٢) وهو أعظم أنواع الظلم قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) ويحول بين صاحبة وبين الجنة قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ .(٣)

وفى الحديث أن رجلاً قال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : " من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار " (٤) وهو من أكبر الكبائر كما معنا فى الحديث ومن أعظم الذنوب ، سُئل رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ؟ فقال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " (٥) ومن السبع المهلكات قال رسول الله ﷺ " اجتنبوا السبع الموبقات " وعدّ منها الشرك

(١) الزمر : ٦٥ .

(٢) لقمان : ١٣ .

(٣) المائدة : ٧٢.

(٤) مسلم كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار ١/ ٤ ٩ رقم٩٣ .

(٥) البخارى كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه ١٠/٤٤٨ رقم ٦٠٠١ ، ومسلم كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ١/٩٠رقم ٨٦ .

بالله [١] والشرك نوعان : أكبر وهو أن تجعل لله شريكاً في الخلق أو العبـــادة وأصغر وهو : أن تعمل أعمال الطاعة وتريد بها غير الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [٢] أي لا يُرائي بعمله وقد نزلت فيمن يطلب الأجر من الله والحمد من الناس وفي الحديث : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً " [٣] .

وإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه وإذا كان يوم القيامة أُتي بصحفٍ مختمة فتنُصب بين يدي الله تعالى فيقول الله لملائكته : اقبلوا هذا وألقوا هذا فتقول الملائكة : وعزتك ما رأينا إلا خيراً فيقول : نعم لكنه كان لغيري ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي " [٤] .

الفائدة الرابعة :

أمر الله بالبر بالوالدين والإحسان إليهما وأن يكون الابن بين يديهما كما يكون العبد بين يدي سيده ونهى عن إيذائهما ورفع الصوت عليهما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

---

[١] البخارى كتاب الحدود باب رمي المحصنات١٢/١٨٨ رقم ٦٨٥٧ ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبـــائر وأكبرها ١/٩٢ رقم ٩٠ .

[٢] الكهف : ١١٠ .

[٣] أحمد فى المسند ١٧/٥٩ رقم ٢٣٥٢١، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ١/١٠٢ .

[٤] سنن الدارقطنى ١/٥١ ، المعجم الأوسط للطبرانى ٣/٩٧ رقم ٢٦٠٣ ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فـــى الأوسط بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ورواه البزار مجمع الزوائد ١٠/٣٥٠ .

وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ (١)

ومهما فعل الإبن لأبويه فلن يُجازيهما على ما فعلاه معه فى صغره ، رأى ابن عمر رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته فقال : يا ابن عمر أترى أنى جزيتها ؟ قال : لا ولا بطلقةٍ واحدة ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيرا (٢) ، وذلك لأن الإبن يُحسن إليهما وهو ينتظر موتهما وهما يُحسنان إليه فى حال صغره وضعفه وهما يرجوان حياته ولا فرق .

وقد جعل الله شكرهما من شكره قال ابن عباس : ثلاث آيات لا تُقبل إلا بثلاث وعدّ منها قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (٣) قال : فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يُقبل منه (٤) وفى الحديث : " رضا الله من رضا الوالدين وسخط الله من سخط الوالدين " (٥) ولذلك عدّ النبى ﷺ العقوق من أكبر الكبائر وبيّن أن الله حرم الجنة على العاق لوالديه فقال : " ثلاثةٌ حرَّم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة مدمن الخمر والعاق لوالديه والديوث " (٦) وأوصى النبي ﷺ معاذاً فقال له : " لا تعُقَنَّ والديك وأن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك " (٧) وبيّن أن جزاء العقوق يُرى فى الدنيا قبل الآخرة فقال : " كل الذنوب يُؤخِّر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يُعَجِّله لصاحبه فى الحياة قبل الممات (٨) " ، وعن وهب بن منبه قال : أوحى الله تعالى

---

(١) الإسراء : ٢٣-٢٤ .

(٢) الزواجر ١٠٦/٢.

(٣) لقمان : ١٤ .

(٤) الزواجر ١٠٧/٢ .

(٥) البيهقى فى شعب الايمان ١٧٧/٦، ورواه الحاكم والطبرانى والبيهقى والبراز وغيرهم موقوفاً علـى ابـن عمر وهو أصح راجع : كشف الخفاء ٥٢٠/١ رقم ١٣٩٠ .

(٦) أحمد مسنده ٣٩/٥ رقم ٥٣٧٢ وإسناده ضعيف ، قال الهيثمى : فيه راو لم يسم مجمع الزوائد ١٤٧/٨ .

(٧) أحمد فى المنسد ١٨٨/١٦ رقم ٢١٩٧٤ وإسناده صحيح .

(٨) المستدرك للحاكم ١٧٢/٤ رقم ٧٢٦٣ وصححه .

إلى موسى : وقِّر والدين فإنه من وقَّر والديه مددت فى عمره ووهبت له ولداً يبره ومن عقَّ والديه قصرت عمره ووهبت له ولداً يعقه [١] .

والعقوق : هو أن يحصل منه لهما أو لأحدهما إيذاء ليس بالهيِّن عُرفاً وإن لم يكن محرَّما إذا فُعِل مع الغير كأن يلقى أباه فيقطب فى وجهه أو يقدم عليه فى ملأٍ فلا يقوم له ولا يعبأ به .

قال ابن حجر : العقوق هو صدور ما يتأذَّى به الوالد من ولده من قولٍ أو فعلٍ إلا فى شركٍ أو معصيةٍ ما لم يتعنَّت الوالد . [٢]

الفائدة الخامسة:

أمر الله المسلم بالصدق وإن ظنَّ أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة وحذَّره من الكذب وإن ظن أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة ، ويعظُم طلب الصدق إذا كان فى معرض الشهادة وتشتد حرمة الكذب عند الشهادة قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾ [٣]

وقال رسول الله ﷺ : " الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس " ثم قال : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قول الزور " أو قال : " شهادة الزور" [٤]

وصلَّى النبى ﷺ بأصحابه الصبح ذات يومٍ ثم قال لهم : " عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاث مرات ثم قرأ : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ " [٥] .

---

[١] فيض القدير للمناوى ٣٣/٤ .

[٢] فتح البارى ٤١٩/١٠ ، ٤٢٠ .

[٣] النساء : ١٣٥ .

[٤] البخارى كتاب الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر ٤١٩/١٠ رقم ٥٩٧٦ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ٩٢/١ رقم ٨٨ .

[٥] الحج : ٣٠ .

وقد توعَّد النبى ﷺ شاهد الزور بالنار يوم القيامة فقال : " لن تزول قدم شاهد الزور حتى يُوجب الله له النار " (١) وشهادة الزور أن تشهد بخلاف ما تعلم أو تشهد بما لا تتحققه .

قال ابن حجر (٢) : ضابط الزور وصف الشيء على خلاف ما هو به وقد يُضاف إلى القول فيشمل الكذب والباطل وقد يُضاف إلى الشهادة فيختص بها وقد يُضاف إلى الفعل ومنه فى الحديث : " لابس ثوبي زور " (٣) ومنه : تسمية الشعر الموصول زوراً (٤) وقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ .(٥)

الفائدة السادسة :

تنوَّعت وسائل النبي ﷺ في تعليم أصحابه فتارةً يستخدم السؤال وتارةً يستخدم القصة وتارةً يرفع صوته وتارةً يخفضه وتارةً يُكرِّر الكلام وتارةً يستخدم حواسه للتعبير عما يقول وقد استخدم النبي ﷺ في هذا الحديث نوعين من الوسائل للتنويه بأهمية ما يقول .

---

(١) ابن ماجة كتاب الأحكام باب شهادة الزور ٢/٧٩٤ رقم ٢٣٧٣ وفي الزوائد : إسناده ضعيف ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٢٢ ، والطبراني في المعجم الأوسط ٨/١٩١ رقم ٨٣٦٧ وهو ضعيف .

(٢) فتح الباري ١٠/٤٢٦ .

(٣) ونص الحديث : " المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور " وقد أخرجه : البخاري كتاب النكاح باب المتشبع بما لم ينل ٩/٢٢٨ رقم ٥٢١٩ ، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب النهي عن التزوير في اللباس والتشبع بما لم يعط ٣/٦٨١ رقم ٢١٢٩ .

(٤) البخاري كتاب اللباس باب الوصل في الشعر ١٠/٣٨٧ رقم ٥٩٣٨ ، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة ٣/١٦٨٠ رقم ٢١٢٧ .

(٥) الفرقان : ٧٢ .

الوسيلة الأولى : أنه كان متَّكِئاً فجلس وقال : "وشهادة الــزور " وهــذا يُشعر باهتمامه بهذا الأمر حتى جلس بعد أن كان متكئاً ويُفيد ذلك تأكيد تحــريم شهادة الزور وعظيم قُبحها وسبب الاهتمام بذلك والمبالغة فــي التحــذيرمنها : كون شهادة الزور سهلة الوقوع بين الناس والتهاون بها أكثــر فــإن الإشــراك يرفضه قلب المسلم والعقوق يرفضه الطبع السليم والفطرة المعتدلة وأما الــزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمــه وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذُكر معها من الإشراك بل لكون مفسدة الزور متعدِّية إلى غير الشاهد بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالبة .[١]

الوسيلة الثانية : هي إعادة القول وتكريره حتى قال الصحابة : ليته سكت والنبي ﷺ يُكِّرر الشيء ليُفهم عنه ويظهر الاهتمام به وإنمــا تمنَّــى الصــحابة سكوت النبي ﷺ شفقةً عليه وكراهيةً لما يُزعجه وفي هذا بيان ما كــان عليــه الصحابة الكرام من حسن الأدب مع النبي ﷺ والمحبة له والشفقة عليه وهكــذا ينبغي أن يكون الطالب مع شيخه .

الدروس المستفادة من الحديث :

١- تنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر وتتفاوت رتبها حسب مفسدتها .
٢- تحريم الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وهي من أكبــر الكبائر .
٣- تغليظ أمر شهادة الزور لما يترتب عليها من المفاسد والشرور وإن كانت مراتبها متفاوتة باعتبار مفاسدها .
٤- البعد عن كبائر الذنوب ليحصل العبد على تكفير الصغائر بذلك .
٥- إشفاق التلميذ على شيخه إذا رآه منزعجاً وتمنِّي عدم غضبــه لمــا يترتب على الغضب من تغيير المزاج .

---

[١] فتح الباري ٥/٣١١

تحريم اللعن

عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لا يكـون اللعَّانون شـفعاء ولا شهداء يوم القيامة) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الـدواب وغيرهـا ٢٠٠٦/٤ رقم ٢٥٩٨ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل : عويمر بن مالك أبو الدرداء الخزرجي الأنصاري سبقت ترجمته .

معاني المفردات

اللاعنون : صيغة مبالغة واللاعن هو كثير اللعن وأصل اللعن : الدعاء بالطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى وهو سبٌ ودعاء .

شفعاء : الشفاعة هي : السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم أو طلب قضاء المصالح وتكون في الدنيا والآخرة وتكون حسنة وسيئة قال تعـالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ [1] يقال : شفع يشفع شفاعة فهو شـافع وشـفيع والمشفِّع الذي يقبل الشفاعة والمشفَّع الذي تُقبل شفاعته .

---

[1] النساء : ٨٥ .

شهداء : أي لا تُقبل شهادتهم في الدنيا وقيل لا تُقبل شهادتهم على الأمـم فـي الآخرة وقيل لا ينالون الشهادة في سبيل الله .

المعنى الإجمالي للحديث

يعلم المسلم خطورة الكلمة ويعلم أنه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [(١)] فلا يتكلَّم إلا بحقٍ يذكر ربه أو ينفع غيره ولا يقول هُجراً كالنخلة تُرمى بالحجر فتهدي الثمر ولا يأتى منها إلا خير فليس المؤمن طعَّاناً ولا لعَّاناً ولا فاحشاً ولا بذيئاً يعلم أن جميع المخلوقات من صنع ربه وكلها تُسبِّح ربها وتذكره بلغتها ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [(٢)] .

فلا يسُبُّ حيواناً ولا جماداً ولا يلعن مخلوقاً لأنه إن فعل حرَمَه الله من الشفاعة لإخوانه المذنبين يوم القيامة كما يحرمه من الشهادة على الأمم ببلوغ الرسالة إليهم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

المؤمنون جميعهم جسدٌ واحد يسعى بذِمَّتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم يُحبُّون الخير ويعملون له تجمعهم عقيدة الإسلام وتربط بينهم شعائره فلا يليـق بمؤمنٍ فَهِم دينة وخاف ربه وعرف حق إخوانه أن يسُبَّ أخاً له أو يلعنه .

---

(١) ق : ١٨ .

(٢) الاسراء : ٤٤.

لأن اللعنة فى الدعاء يُراد بها الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى وليس الدعاء بهذا الهلاك من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى وجعلهم كالبنيان المرصوص يشُدُّ بعضه بعضاً وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وبأن أحدهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه فيحب سعادته فى الدنيا ونجاته فى الآخرة ولذلك قال رسول الله ﷺ : " لا يكون المؤمن لعَّاناً " [1] فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهى : الإبعاد والطرد من رحمة الله تعالى فهذا نهاية المقاطعة والتدابر وهذا غاية ما يودُّه المسلم للكافر ويدعو عليه به فلا يليق ذلك بأخيه ولهذا جاء فى الحديث : " لعن المؤمن كقتله " [2] .

وذلك لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا واللاعن يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى فأشبه اللعن القتل بل زاد قبحاً ، ولذلك قيل : إن لعن المؤمن كقتله من حيث التساو فى الإثم [3] ولذلك كان لعن المؤمن كبيرة من الكبائر فعن سلمة بن الأكوع قال : كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه رأينا أنه قد أتى باباً من الكبائر .[4]

---

[1] الترمذى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى اللعن والطعن ٤١٠/٣ رقم ٢٠٢٦ وقال : حديث حسن ، وأبو يعلى فى مسنده ٤١٤/٩ رقم ٥٥٦٢ .

[2] البخارى كتاب الأدب باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال ٥٣١/١٠ رقم ٦١٠٥ ، مسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١٠٤/١ رقم ١١٠ .

[3] شرح صحيح مسلم للنووى ١٤٨/١٦ .

[4] الطبرانى فى المعجم الأوسط ٣٨٠/٦ رقم ٦٦٧٤ ، وقال الهيثمى : إسناده جيد مجمع الزوائد ٧٣/٨ .

ولعن المؤمن مخالفٌ للصدق لأن المؤمن أهلٌ لرحمة الله والقرب منه فلا تلحقه لعنة ولا يصيبه طرد من رحمة الله تعالى فكان اللاعن له كذاباً ولذلك جاء في الحديث : " لا ينبغي لصديقٍ أن يكون لعَّاناً " [١] .

وإنما خُصَّ الصديق بترك اللعن لأنه إذا لعن من يستحق اللعنة الشرعية فقد دعا عليه بأن يُبعد من رحمة الله تعالى وجنته ويدخل في ناره وسخطه والإكثار من اللعن يُناقض أوصاف الصديقين فإن من أعظم صفاتهم الشفقة والرحمة على الحيوان مطلقاً وعلى الإنسان خصوصاً وعلى المؤمن من باب أولى ، فكيف يليق أن يُدعى عليهم باللعنة التي معناها : الهلاك والخلود في نار الآخرة فمن خالف هذا الأمر وكثُر منه اللعن فقد سُلب منصب الصديقية ومن سُلبه فقد سُلب منصب الشفاعة والشهادة الأخروية . [٢]

ولمَّا كان اللعن بهذه الخطورة كان من أكبر الكبائر أن يتسبَّب الرجل في لعن والديه فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : " إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه " قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : " يسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه " [٣] .

وقد حرَّم الله لعن الشخص المعين وإن كان فاسقاً لأننا لا ندري بماذا يختم الله له فقد يتوب عليه ويُصلح حاله وكذا لا يجوز لعن الكافر المُعيَّن حتى لو مات كافراً لأننا لا ندري بماذا ختم الله له أما من دلَّ الشرع على موته كافراً كأبي جهل وأبي لهب وفرعون فيجوز لعنه .

---

[١] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ٢٠٠٥/٤ رقم ٢٥٩٧ .

[٢] المفهم ٥٧٩/٦ ، ٥٨٠ .

[٣] البخاري كتاب الأدب باب لا يسب الرجل والديه ٤١٧/١٠ رقم ٥٩٧٣ .

وأما لعن غير المُعيَّن بالشخص إنما عُيِّن بالوصف كنحو : لعن الله الكاذب ولعن الله الظالم ، فجائز إجماعاً قال تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (٢) .

وقد حرَّم الله سائر أنواع اللعن إلا لعنة من لعنه الشرع وكما تحرم لعنة الإنسان تحرم لعنة الحيوان أيضاً (٣) .

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فقالت : اللهم العنها فقال النبي ﷺ " خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة " (٤) ، وفي رواية قال : " لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة " (٥) ، قال عمران : فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد . (٦)

قال العلماء : فعل النبي ﷺ ذلك لأن الله استجاب دعاء المرأة عليها ، وقيل : بل فعل النبي ﷺ ذلك عقوبةً لصاحبتها لئلا تعود إلى مثلها وليعتبر بها غيرها (٧) وهو الأظهر .

والمقصود أن النبي ﷺ نهى عن مصاحبة تلك الناقة له في الطريق وأما بيعها أو ذبحها أو ركوبها في غير مصاحبة النبي ﷺ أو غير ذلك من التصرفات

---

(١) هود : ١٨ .

(٢) آل عمران : ٦١ .

(٣) الزواجر ٢/٩٥ .

(٤) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ٤/٢٠٠٤ رقم ٢٥٩٥ .

(٥) التخريج السابق ٤/٢٠٠٥ رقم ٢٥٩٦ .

(٦) مسلم ٤/٢٠٠٤ رقم ٢٥٩٥ .

(٧) النهاية في غريب الحديث ٤/٢٢٠ .

التي كانت جائزة قبل هذا فهي باقية على الجواز لأن الشرع إنما ورد بالنهي عن المصاحبة فبقي الباقي كما كان .[١]

الفائدة الثانية :

المؤمن لا يكون طعَّاناً ولا لعَّاناً ولا فاحشاً بذيئاً فمتى خالف هذا الخُلُق وأكثر اللعن عاقبه الله بحرمانه من الشفاعة يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار .

لأن الشفاعة في الآخرة إنما هي من الشفقة على المُذنبين والرحمة بهم فحُرِمها هؤلاء بفعلهم ضدها من اللعنة لهم المقتضية للقسوة عليهم [٢] فكان الجزاء من جنس العمل .

وعاقبه الله بأنه لا يكون شهيداً ومعنى انتفاء الشهادة عن اللاعنين : أنهم لا يكونون شهداء على الأمم يوم القيامة بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات حين يشهد كل نبي على قومه أنه بلَّغهم رسالة السماء وتشهد الأمة المسلمة أن الأنبياء بلَّغوا قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [٣] .

وفي الحديث عن أبي سعيدٍ الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : " يجيئ النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيُدعى قومه فيُقال لهم : هل بلَّغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيُقال له : هل بلَّغت قومك ؟ فيقول : نعم فيُقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيُدعى محمد وأمته فيُقال لهم : هل بلَّغ هذا

---

[١] شرح صحيح مسلم للنووي ١٤٨/١٦ .
[٢] إكمال المعلم للقاضي عياض ٦٩/١ .
[٣] البقرة : ١٤٣ .

قومه ؟ فيقولون نعم . فيُقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا فذلك قوله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [١] قال : عدلا ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ ﴾ [٢] .

وقيل لا يكونون شهداء في الدنيا لأن من أكثر اللعن اتُّهم بالفسق فلا تُقبل شهادته لفسقه ، وقيل يُعاقبون بأنهم لا يُرزقون الشهادة وهي الموت في سبيل الله عز وجل .

ويُعاقب اللعَّان أيضاً برجوع اللعنة عليه إذا لعن من لا يستحق اللعنة وليس من أهلها فعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : " إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتُغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتُغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يميناً وشمالاً فإن لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعن فإن كان أهلها وإلا رجعت إلى قائلها " [٣] .

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : " إن اللعنة إلى من وُجِّهت إليه فإن أصابت عليه سبيلاً أو وجدت فيه مسلكاً وإلا قالت : يا رب وُجِّهت إلى فلانٍ فلم أجد عليه سبيلاً ولم أجد فيه مسلكاً فيُقال لها : ارجعي من حيث جئت " [٤] .

---

[١] البقرة : ١٤٣ .

[٢] أحمد في المسند ١٠/١٨٣ رقم ١١٤٩٦ ، وإسناده صحيح ، والآية : البقرة : ١٤٣ .

[٣] أبو داود كتاب الأدب باب في اللعن ٤/٢٧٨ رقم ٤٩٥٠ ، البيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٩٦ رقم ٥١٦٢ ، قال ابن حجر : سنده جيد . فتح الباري ١٠/٤٨١ .

[٤] أحمد في المسند ٤/٦٧ رقم ،٣٨٧٦ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد وأبو عمير لم أعرفه وبقية رجاله ثقات ولكن الظاهر أنه صديق ابن مسعود الذي يزوره – يقصد أبا عمير – هو ثقة مجمع الزوائد ٨/٧٤ ولذلك قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وقال الحافظ المنذري : إسناده جيد الترغيب والترهيب ٣/٢٨٧ .

فالمسلم يصون لسانه عن الأذى فلا يسب ولا يلعن إنساناً ولا حيواناً ولا أي شئ فعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : " لا تلعن الريح فإنها مأمورة من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه " [١] .

ولا يستحق هذه العقوبة إلا من أكثر اللعن فيما لا يحل وأصبح ذلك صفة له لأن رسول الله ﷺ قال : " لا يكون اللعانون " بصيغة التكثير ولم يقل لايكون اللاعنون فخص اللعان بالذكر لأن هذه العقوبة لا يستحقها إلا من أكثر من صدور اللعن لا من صدر منه مرةً واحدة ولا من صدر منه سهواً أو غفلة أو فلتة ولأنه يخرج منه أيضاً اللعن المباح وهو الذي ورد به الشرع كلعن الظالمين والكاذبين ولعن اليهود والنصارى ولعن الواصلة والمستوصلة والواشمة ولعن شارب الخمر وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ولعن المصورين وغير ذلك مما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة . [٢]

ويدخل فيه أيضاً لعن المُعيَّن إذا ثبت عندنا يقيناً أنه مات على الكفر ما لم يترتب على ذلك إيذاء مسلم فإن كان لم يجز ، وأما لعن المعين الذي لم نتيقن أنه مات كافراً ففيه خطرٌ شديد لأنه رُبَّما يُسلم فيموت مقرَّباً عند الله فلا يحكم بكونه ملعوناً .

قال الغزالي : لعن الأعيان فيه خطرٌ لأن الأعيان تتقلَّب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين

---

[١] أبو داود كتاب الأدب باب في اللعن ٢٧٩/٤ رقم ٤٩٠٨ ، الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في اللعنة ٣٩٤/٣ رقم ١٩٨٥ ، وقال : حديث حسن .

[٢] شرح صحيح مسلم للنووي ١٤٩/١٦ .

قوماً باللعن فكان يقول في دعائه : " اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بـــن ربيعه ... " [١] .

وذكر جماعةً قُتلوا على الكفر حتى إنه لعن من لم يعلم عاقبته فنهاه الله عن ذلك فكان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً حتى نزل قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [٢] يعني أنهم ربما يُسلموا فمن أين تعلم أنهم ملعونون ؟ [٣] .

ولا يجوز لعن الفاسق فلعله يتوب وفي الحديث: أن رجـــلاً كـــان اســـمه عبد الله وكان اسمه حماراً وكان يُضحك رسول الله ﷺ وكان قـــد جلـــده فـــي الشراب فأُتي به يوماً فأمر به فجُلد فقال رجلٌ من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يُؤتى به فقال رسول الله ﷺ : " لا تلعنوه فوالله ما علمـــت إلا أنـــه يحـــب الله ورسوله " [٤] . وقد تهاون الناس بإطلاق اللعنات ، والاشتغال بذكر الله أولى فإن لم يكن ففي السكوت سلامة .

قال مكي بن إبراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا : يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إلـــه إلا الله

---

[١] البخاري كتاب الوضوء باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته ٤١٦/١ رقـــم ٢٤٠ ، مسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقية النبيﷺ من أذى من المشركين والمنافقين ١٤١٨/٣ رقم ١٧٩٤.

[٢] آل عمران : ١٢٨ .

[٣] إحياء علوم الدين ١١٨/٣ .

[٤] البخاري كتاب الحدود باب ما يكره من نلعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة ٧٧/١٢ رقم ٦٧٨٠

ولعن الله فلاناً فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحبُّ إليَّ من أن يخرج منها لعن الله فلاناً " [١] .

وقال رجلٌ لرسول الله ﷺ : أوصني فقال له : " أوصيك أن لا تكون لعَّاناً " [٢] ، وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . [٣]

الدروس المستفادة من هذا الحديث

١- اللعانون ليس لهم منزلة عند الله يوم القيامة فلا يشفعون في غيرهم ولا يشهدون على الأمم يوم القيامة .

٢- الجزاء من جنس العمل فمن دعا على المسلمين بالإبعاد من رحمة الله لا يكون يوم القيامة سبباً في حصول الرحمة لأحدهم .

٣- تحريم لعن الحيوان وما لم يرد نصٌّ من الشارع على جواز لعنه .

٤- وجوب طهارة المجتمع وسلامته من الألفاظ القبيحة .

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣٦٩/٦ .

[٢] أحمد في المسند ٢٨٥/١٥ رقم ٢٠٥٥٦ ، الطبراني في المعجم الكبير ٢٨٣/٢ رقم ٢١٨٠ ، وقال الهيثمي : طريق الطبراني رجالها ثقات مجمع الزوائد ٧٢/٨ ، وقال الشيخ أحمد شاكر الحديث صحيح بمجمله .

[٣] الزهد لابن المبارك ص ٢٣٧ رقم ٦٨٠ .

حرمة الأعراض والدماء

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول ﷺ (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث

أ- البخاري كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ١/١٣٥ رقم ٤٨ .

ب- مسلم كتاب الإيمان باب بيان قول النبى ﷺ : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ١/٨١ رقم ٦٤ .

الراوى الأعلى للحديث

الصحابى الراوى للحديث هو : عبد الله بن مسعود بن غافل أبو عبد الرحمن الهذلى سبقت ترجمته .

معانى المفردات

سباب : بكسر السين وتخفيف الباء مصدر من السب والسبُّ هو : الشتم والتكلُّم فى عرض الإنسان بما يعيبه يقال : سبَّه يسبُّه سباً وسِباباً ، وقال إبراهيم الحربى : السباب أشد من السب وهو : أن يقول الرجل ما فيه وما ليس فيه يريد بذلك عيبه .

فسوق : أى : عصيان و أصل الفسوق الخروج عن الإستقامة والجور وفى الشرع الخروج عن طاعة الله ورسوله ﷺ ومنه قيل للعاصى : فاسق

وهو فى عرف الشرع أشد من العصيان قال تعالى : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [١] .

كفر : أصل الكفر : الستر والتغطيه ومنه سُمِّيَ الكافر كافراً لأنه يُغطِّي الحق ويستره بكفره والكفر صنفان : أحدهما : الكفر بأصل الإيمان وهو : ضده ، والآخر : الكفر بفرعٍ من فروع الإسلام فلا يخرج عن أصل الإسلام . وقيل : الكفر على أربعة أنواع **الأول** : كفر إنكار بألاَّ يعرف الله أصلاً ولا يعترف به ، و**الثانى** : كفر جحود ككفر إبليس يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ، و**الثالث**: كفر عناد وهو : أن يعترف بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل وأضرابه ، **والرابع** : كفر نفاق وهو : أن يُقرَّ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ككفر عبد الله بن أُبيّ وأضرابه ، **قال الهروى : سُئل الأزهرى عمَّن يقول بخلق القرآن أتسميه كافراً ؟ فقال : الذى يقوله كفر فأُعيد عليه** السؤال ثلاثاً وهو يقول مثل ما قال ثم قال فى الثالثة : **قد يقول المسلم** كفراً . [٢]

المعنى الإجمالي للحديث

المؤمن يعرف ربه ويخشاه ويحب إخوانه ويرحمهم فلا يصل إليهم منه إلا كل خير ويمنع عنهم كل شر يصون أعراضهم ويحمي أموالهم ودمائهم فمن تجرَّأ على الأعراض يعيبها أو ينتهكها وعلى الأموال يسرقها أو يقتطعها أو على الدماء يسفحها ويريقها فقد عصى ربه وظلم نفسه .

---

[١] الحجرات : ٧ .

[٢] النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ١٦١/٤ .

والحديث يُعلِّمنا أن سِباب المسلم بغير حق فسق وعصيان فإذا جرَّه ذلك إلى القتال فهذا نوعٌ من الكفر قد يجرُّه إلى الخروج من الإسلام والمعاصي بريد الكفر .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

خلق الله الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وركّب فيه الشهوة والغضب وأرسل له رسلاً مبشِّرين ومنذِرين بشرائع تصلحهم لئلا يكون لهم حجة بعد ذلك وفتح للعصاة باب التوبة فهو لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .

وبيّن سبحانه أن كل بني آدم خطَّاء وأن خير الخطَّائين التوَّابون وأنه سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره فرحمته وسعت كل شيء ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] فالله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً عدا الشرك به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [2] فمتى دخل العبد في الإسلام ونطق بالشهادتين لا يخرج منه إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ولم يكن حديث عهدٍ بإسلام أو يعيش ببادية ويجهل أحكامه ولا يخرج من الإسلام بمعصيته خلافاً للخوارج الذين يُكفِّرون بالكبائر قال تعالى : ﴿ وَإِن

---

[1] الزمر : ٥٣ .

[2] النساء : ٤٨ .

طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [١] فسمَّاهم مؤمنين رغم اقتتالهم ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [٢] .

وقال رسول الله ﷺ : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما " [٣] فسمَّاهم مسلمين رغم أنه توعَّدهم بالنار والمراد إذا كان القتال بغير تأويلٍ سائغ .

والأدلة على هذا أكثر من أن تُحصى فمذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يُكفِّرون مسلماً بالمعاصي وما ورد من نصوصٍ تُوهم ذلك يجب أن تُؤوَّل لتتفق مع هذا الأصل الثابت بالأدلة : " من لقي الله لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة " [٤] .

قال النووي : مذهب أهل الحق أنه لا يكفِّر أحدٌ من أهل القبلة بذنبٍ ولا يكفر أهل الأهواء والبدع [٥] فكل المسلمين مصيرهم إلى الجنة فمنهم من يدخلُها بغير حساب ومنهم من يدخلُها بعد عذابٍ طويل في النار ولا يُخلَّد في النار مسلم .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيُخرجهم فيُلقيهم في نهر الحياة

---

(١) الحجرات : ٩.

(٢) الحجرات : ١٠.

(٣) البخاري كتاب الإيمان باب " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما " فسماهم المؤمنين ١٠٦/١ رقم ٣١ ، مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٢٢١٣/٤ رقم ٢٨٨٨ .

(٤) البخاري كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفقهوا ٢٧٢/١ ، مسلم كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ٩٤/١ رقم ٩٣ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٠/١ .

فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويُسمُّون فيها الجهنميون " [١] .

وفي الحديث أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : " إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى . قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرِجوا فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [٢] .

فالله يُخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يبقى فيها إلا الكفار وعليهم تُطبَق النار .

الفائدة الثانية :

ظاهر هذا الحديث يُفيد أن قتال المسلم كفر والقتال معصية والمسلم لا يكفر بمعصيته ، ولذلك اتَّفق جمهور المسلمين على أن ظاهره غير مُراد ثم اختلفوا في تأويله على عدة آراء :

الأول : أن النبي ﷺ وصف السباب بأنه فسق ولما كان القتال أشد منها – لأنه مفضٍ إلى إزهاق الأرواح – عبَّر عنه بلفظٍ أشد من لفظ الفسق وهو

---

[١] الطبراني في المعجم الأوسط ٢٠٩/٧ رقم ٧٢٩٣ ، وقال الهيثمي : فيه من لم أعرفهم مجمع الزوائد ٣٨٠/١٠ .

[٢] سورة الحجر الآية ١ ، ٢ ، والحديث أخرجه : الحاكم في المستدرك ٢٦٥/٢ رقم ٢٩٥٤ وقال : صحيح الإسناد ، وابن أبي عاصم في كتاب السنة ٤٠٥/٢ رقم ٨٤٣ .

الكفر ولم يُرِد حقيقته التي هي : الخروج عن الملة بل أطلق عليه الكفر مبالغةً في التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه .

الثاني : أطلق عليه الكفر لشَبَهِه به لأن قتال المؤمن من شأن الكفار .

الثالث : المراد هو الكفر اللغوي وهو : التغطية والستر لأن حق المسلم على المسلم أن يُعينه وينصره ويكف عنه أذاه فلما قاتله كان كأنه غطّى على هذا الحق وستره فهو كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام لا كفر الجحود .

الرابع : قيل إن الرسول ﷺ أراد بقوله : كفر أي أن معصيته قد تؤول إلى الكفر لأن من اعتاد الهجوم على كبار المعاصي جرَّه شؤم ذلك إلى شرٍ منها فيُخشى أن لا يُختم له بخاتمة الإسلام وفي الحديث : " سباب المسلم كالمشرف على الهلكة " . [1]

الخامس : وقيل إن وصف الكفر لا حق بمن يستحل قتال المسلمين دون تأويلٍ سائغ وهذا كافر إجماعاً ولكن ليس مقصوداً في الحديث لأنه لو كان مراداً لم يحصل التفريق بين السباب والقتال فإن مستحل لعن المسلم وسبه بغير تأويل كافر أيضاً ، والرأي الأول أقربها وأصحها .

وهذه الأجوبة واردة في حق الأحاديث التي وصفت بعض المعاصي بالكفر كقول رسول الله ﷺ : " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض " .[2]

---

[1] قال الهيثمي : رواه البزار ورجاله ثقات مجمع الزوائد ٧٣/٨ ، وقال المنذري : رواه البزار بإسناد جيد الترغيب والترهيب ٢٨٥/٣ .

[2] البخاري كتاب العلم باب الإنصات للعلماء ٢٦٢/١ ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان قول النبي ﷺ : " لا ترجعوا بعدي كفاراً ..." إلى آخره ٨١/١ رقم ٦٥ .

الفائدة الثالثة :

الإسلام يدعو إلى صفاء النفوس وطهارة القلوب وصيانة الألسنة من اللعن والفحش والسب والبذاءة والمؤمن ليس طعَّاناً ولا لعَّاناً ولا فاحشاً بذيئاً فمصدر ذلك هو خُبث النفس وفسادها وفي الحديث : " إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش " [١] .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم أخلاقاً " [٢] .

وقال إبراهيم بن ميسرة : يُؤتى بالفاحش المُتفَحِّش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب [٣] والنبي ﷺ يحذرنا في هذا الحديث من السباب وهو الشتم ويذكر لنا أنه فسق والمؤمن يحذر الفسق ويخشاه وينفر منه فلا يسب أحداً ولا يلعنه وقد جاء في الحديث : أن أعرابياً قال يا رسول الله : إعهد إليّ فقال له : " لا تسُبَنّ أحداً " قال الأعرابي : فما سببتُ بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاةً ثم قال له : " وإن امرؤ شتمك أو عيَّرك بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه " [٤].

وقد ورد أن سبب ورود هذا الحديث أن رسول الله ﷺ انتهى إلى مجلس من مجالس الأنصار وفيه رجلٌ من الأنصار كان معروفاً بالبذاء ومشاتمة الناس

---

[١] أحمد في المسند ٣٣٠/٦ رقم ٦٨٣٧ ، ابن حبان في صحيحه ٥٨٠/١١ رقم ٥١٧٧ ، الحاكم في المستدرك ٥٦/١ رقم ٢٧ وإسناده صحيح .

[٢] أحمد في مسنده ٣٣٧/١٥ رقم ٢٠٧٢٣، وأبو يعلى في مسنده ١٣٥ / ٤٥٨ رقم ٧٤٦٨ وقال الهيثمي : رجاله ثقات مجمع الزوائد ٢٥/٨ .

[٣] فيض القدير للمناوي ٥/٥ .

[٤] أبو داود كتاب اللباس باب ماجاء في إسبال الإزار ٥٥/٤رقم ٤٠٨٤ .

فقال رسول الله ﷺ " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " فقال ذلك الرجل : والله لا أساب رجلاً . [١]

وينشأ السبُّ غالباً من الغضب والغضب من الشيطان ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ كيف نتعامل معه وفي الحديث عن عبد الرحمن بن صرد قال : استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما واشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : " إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه الذي يجد " فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال : تعوَّذ بالله من الشيطان فقال الرجل : أترى بي بأس ؟ أمجنونٌ أنا ؟ اذهب [٢] .

وهذا الحديث يُفيد أن الرجلين سبَّ كل واحدٍ منهما الآخر وإثم السباب الواقع بين اثنين مختصٌ بالبادي منهما إلا إذا تجاوز الثاني قدر الانتصار فقال للبادي أكثر مما قال له ، وفي الحديث : " المستبَّان ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعتدِ المظلوم " [٣] .

وهذا يُفيد جواز الانتصار وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة على جوازه قال تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [٥] .

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير ٣٩/١٧ رقم ٨٠ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح خلا أبي خالد الوالبي وهو ثقة مجمع الزوائد ٧٣/٨ .

(٢) البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى من السب واللعن ٤٧٩/١٠ رقم ٦٠٤٨ ، مسلم كتاب البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٠١٥/٤ رقم ٢٦١٠ .

(٣) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن السباب ٢٠٠٠/٤ رقم ٢٥٨٧ .

(٤) الشورى : ٤١.

(٥) الشورى : ٣٩ .

ومع جواز الانتصار بالمثل قال تعـالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [(١)] فالصبر والعفو أفضل قال تعـالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [(٢)] فإذا صبر المسبوب ولم يرُدّ وكّل الله له ملكاً يُدافع عنه فإذا انتصر لنفسه تركه الملك واستولى الشيطان على المجلس وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان جالساً ومعه أصحابه فوقع رجلٌ بأبي بكـر فآذاه فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكـر ثـم آذاه الثالثـة فانتصر منه أبو بكر فقام الرسول ﷺ حين انتصر أبو بكر فقـال أبـو بكـر : أوجدتَ عليّ يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : " نزل ملكٌ من السماء يُكَذِّبُـه بما قال لك فلما انتصرتَ وقع الشيطان فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان " .[(٣)]

وسباب المسلم بغير حقٍ حرام وقد عدّه ابن حجر الهيثمي مـن الكبـائر قال : وهو صريح هذه الأحاديث الصحيحة للحكم فيه على سباب المسـلم بأنـه فسق فإنه يؤدّي إلى الهلكة وأن فاعله شيطان وغير ذلك . [(٤)]

ولا يجوز للمسبوب أن ينتصر إلا بمثل ما سُبَّ به ما لم يكن كذباً أو قذفاً أو سباً لأسلافه فمن صور المباح أن ينتصر بقوله : يا ظالم يا أحمق أو نحـو ذلك لأنه لا يكاد أحدٌ يخلو من هذه الأوصاف عدا الأنبياء والأوليـاء وإن كـان ذلك خلاف الأولى وفي الحديث عن عياض بن حمار قال : قلت يا رسول الله :

[(١)] البقرة : ١٩٤ .

[(٢)] الشورى : ٤٣ .

[(٣)] أبو داود كتاب الأدب باب الانتصار ٢٧٥/٤ رقم ٤٨٩٦ ، وأحمد في مسنده ٢٦٤/٩ رقم ٩٥٩٠ وإسـناده صحيح .

[(٤)] الزواجر ٩٥/٢ .

الرجل يشتمني وهو دوني أعليّ منه بأس أن أنتصر منه ؟ فقال رسول الله ﷺ : " المتسابان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان " (١) .

وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال " من ذكر امرأ بشيءٍ ليس فيه ليعيبه حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه " (٢)

فإذا انتصر المظلوم فقد استوفى ظلامته وبرئ الأول من حقه وبقي عليه إثم الابتداء والإثم المستحق لله تعالى وقيل : بل يُرفع عنه جميع الإثم بالانتصار منه . (٣)، ويكفي الساب إثماً وعاراً أنه يأتي بأفعال أهل الجاهلية ويتشبَّه بهم فعن أبي ذرٍ أنه سبَّ رجلاً بأمه فقال له رسول الله ﷺ : " أساببت فلاناً ؟ " فقال : نعم فقال له : " أنلت من أمه ؟ " فقال نعم فقال له : " إنك امرؤ فيك جاهلية " فقال أبو ذر : على حين ساعتي هذه من كبر السن ؟ فقال رسول الله ﷺ : " نعم " (٤) .

فطهِّر قلبك من البغض وصُن لسانك من السباب واشغل جوارحك بالطاعات تسكن أعلى الجنان .

الدروس المستفادة من الحديث

١- المبالغة في ذم السب والمقاتلة لما في ذلك من احتقار المسلم وظلمه .
٢- تعظيم حق المسلم والحكم على من سبه بغير حق بالفسق .
٣- صيانة الدماء والأموال والأعراض .

---

(١) أحمد في المسند ٣٨٨/١٣ رقم ١٧٤١٩ ، ابن حبان في صحيحه ٣٤/١٣ رقم ٥٧٢٦ ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح مجمع الزوائد ٧٥/٨ .

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط ٣٨٠/٨ رقم ٨٩٣٦ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه مقدام بن داود وهو ضعيف مجمع الزوائد ٩٤/٨ وقال المنذري:إسناده جيد الترغيب والترهيب ٣٠٢/٣ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤١/١ .

(٤) البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى من السباب واللعن ٤٨٠/١٠ رقم ٦٠٥٠ .

النهي عن سب الأموات

عن عائشة ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : (لا تسُبُّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

الإمام البخارى فى صحيحه كتاب الجنائز باب ما يُنهى من سب الأموات ٣٠٤/٣ رقم ١٣٩٣ .

الراوي الأعلى للحديث

راوية الحديث هى : الصحابية الجليلة أم عبد الله عائشة بنت أبـى بكـر الصديق أم المؤمنين ﷺ سبقت ترجمتها .

معانى المفردات

لا تسُبُّوا : لا ناهية **والسبُّ** هو : الشتم والعيب والتنقيص .

الأموات : أل لإبطال معنى الجمعية أى لا تسبو أيَّ ميِّتٍ كان .

أفضوا : أى وصلوا إلى ما عملوا من خيرٍ أو شر .

ما قدَّموا : أى من عملٍ خيراً كان أو شراً وفى رواية : " فإنهم قد أفضوا إلـى ما اكتسبوا " .[1]

[1] مسند إسحاق بن راهويه ٦٢٣/٣ رقم ١١٩٩ .

المعنى الإجمالي للحديث

ينهانا النبى ﷺ فى هذا الحديث عن سب الأموات لأنه لا فائدة من سبِّهم ولأنهم أصبحوا عند الله يُجازيهم بأعمالهم إن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فشر أو عفواً ومغفرة ولا يصل إليهم من السبِّ شيئاً ولكنه قد يُؤذى الأحياء ويعوّد فاعله على الفحش والبذاءة وقد يجرُّه اللعن المباح إلى اللعن والسب غير المباح والسلامة فى قول الخير وإلا فالسكوت أسلم وأفضل فلا يجوز سب الميت إلا لمصلحةٍ شرعية ، كالتَّحذير من الإقتداء به فى بدعته وفسقه ونحو ذلك مما كان الميت متلبِّساً به مما لا يحسُن التلبُّس بـه لمخالفتـه الشـرع أو لإخلالـه بالمروءة ولجرح رواة الحديث لأن أحكام الشرع مبنيَّة عليه وقد أجمع العلمـاء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءاً أو أموتاً .

فالعبد قد يتكلم فيندم أو يغنم والمؤمن قلبه قبل لسانه فيُفكِّر قبل أن يـتكلَّم فلا يتكلم إلا بحق والمنافق لسانه قبل قلبه فيتكلم دون أن يفكر فى عواقب كلامه فرحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت عن شرٍ فسلم .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

الحديث يُعلِّمنا صيانة اللسان عن الألفاظ القبيحة التى تؤذى الشـعور ولا تُفيد شيئاً فينهانا عن السب سواءً كان للأحياء أو للأموات ويُخـص الأمـوات بالنهي عن سبِّهم ليس لأنه يجوز سب الأحياء بل لأن سب الأموات أشد وأخبث من سب الأحياء وذلك لأن الأحياء يستطيعون الرد والانتصـار لأنفسـهم أمـا الأموات فقد انقطعت ألسنتهم فلا يستطيعون الرد فإن لم يكونوا أهلاً للسب فإنهم يقتصُّون لأنفسهم يوم القيامة .

فسب الميت وغيبته أشد من غيبة الحي وأفحش لأن عفو الحي واستحلاله وطلب المغفرة منه ممكنة بخلاف الميت وسب الميت قد يـؤذى الحـي وفـي

الحديث : " لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء " [١] فيؤدِّي سبهم إلى فساد ذات البين وانتشار الفساد وقطع أواصر الإخوة .

فسبُّ الميت لا يجوز إلا إذا دعت الضرورة لذلك وكانت هناك مصلحة شرعية كأن يصير من قبيل الشهادة أو جرح الرواة ونحو ذلك وقد يكون فيه مصلحة للميت تنفعه فى آخرته كمن علم أنه أخذ ماله بشهادة زور ومات الشاهد فإذا ذكر ذلك لورثته علم أنهم يردُّون ذلك المال إلى أصحابه [٢] .

قال ابن بطال : سب الأموات يجري مجرى الغيبة فإن كان أغلب أحوال المرء الخير – وقد تكون من الفلتة – فالاغتياب له ممنوع وإن كان فاسقاً معلناً فلا غيبة له فكذلك الميت [٣] وقد أوصى النبي ﷺ أمته بعدم سب الموتى فقال لأصحابه " إذا مات صاحبكم فدعوه لا تقعوا فيه " [٤] أي : اتركوه ولا تتكلموا في حقه بما يؤذيه لو كان حياً ولا تتكلموا في عرضه بسوء فإنه قد أفضى إلى ما قدم .

بل وأوصاهم بذكر محاسن موتاهم والكف عن ذكر مساوئهم فقال : " اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم " [٥] ، وقال : " لا تذكروا موتاكم إلا بخير " . [٦]

---

[١] أحمد فى المسند ١٠٤/١٤ رقم ١٨١٢٥ ، الترمذى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى الشتم ٣٩٥/٣ رقم ١٩٨٩ وإسناده صحيح .

[٢] فتح البارى ٣٠٤/٣ .

[٣] نفس التخريج السابق .

[٤] أبوداود كتاب الأدب باب فى النهى عن سب الموتى ٢٧٧/٤ رقم ٤٨٩٩ .

[٥] أبو داود كتاب الأدب باب في النهي عن سب الموتى ٢٧٧/٤ رقم ٤٩٠٠ ، الترمذي كتاب الجنائز ٣١٢/٢ رقم ١٠٢١ .

[٦] مسند الطيالسي ٢٠٩/١ رقم ١٤٩٤، ، ومصنف بن أبي شيبة ٦٤/٣ رقم ١١٩٨٩ ، ومصنف عبد الرزاق ٣٨٥/٣ رقم ٦٠٤٢ .

هذا في أموات المسلمين أما أموات الكفار فيجوز سبُّهم عموماً وذِكر مساوئهم للتحذير منهم والتنفير عنهم ولا يجوز سب شخصٍ معيَّن لاحتمال موته على الإسلام إلا إذا نصَّ الشرع على موته كافراً كفرعون وأبي جهل وأبي لهب ونحوهم فيجوز سبهم إلا إذا تأذَّى الحي المسلم بذلك فيُمنع .

الفائدة الثانية :

هذا الحديث يُفيد النهي عن سبِّ الأموات وذكر عيوبهم وقد استشكل البعض فهمه مع حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مرُّوا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ : " وجبت " ثم مرُّوا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال النبي ﷺ : " وجبت " فقال عمر بن الخطاب : ما وجبت ؟ قال : " هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض " .[1]

فهذا الحديث يُفيد أنهم ذكروا الميِّت بشرٍّ أمام رسول الله ﷺ فلم يُنكر عليهم ذلك وقد أجاب العلماء على ظاهر هذا التعارض بخمسة أجوبة :

الأول : أن اللام في قول رسول الله ﷺ الأموات للعهد والمراد : لا تسبوا أموات المسلمين لأن الكفار مما يُتقرَّب إلى الله بسبِّهم وهذا باطل لأنه لم يثبُت أن هذا الميت كافرا ولأنه سبٌّ لمُعيَّن .

الثاني : أن النهي عن سب الموتى متأخر عن هذا الحديث فيكون ناسخاً وهذا ضعيف لأن التاريخ لم يثبُت ولأننا لا نلجأ إلى القول بالنسخ إلا إذا تعذَّر الجمع بين الحديثين وهو ممكن فإعمالهما خيرٌ من إهمالهما .

---

(١) البخاري كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت ٣/٢٧٠ رقم ١٣٦٧ ، ومسلم كتاب الجنائز باب فيمن يثنى عليه خيراً أو شراً من الموتى ٢/٦٥٥ رقم ٩٤٩ .

الثالث : أن هذا الذي تُحُدِّث عنه بشر في جنازته كان مُظهراً له مشهوراً به فيكون ذلك من باب " لا غيبة لفاسق " (١) .

الرابع : أن الذي ذكره الصحابة بشر كان منافقاً لا يُحبُّ الله ورســوله ﷺ وقد ظهرت عليه دلائل النفاق فشهد الصحابة بما ظهر لهم ولذلك قال رسول الله ﷺ : " وجبت له النار " ، والمسلم لا تجب له النار ويؤكِّد ذلك ما جاء أن رسول الله ﷺ لم يُصلِّ عليه وصلَّى على الآخر . (٢)

الخامس : أن النهي عن السب محمولٌ على ما بعد الدفن وجــواز ذلــك محمول على ما قبل الدفن ليتَّعظ بذلك فُسَّاق الأحياء فإذا صار إلى قبره أمســك عنه لإفضائه إلى ما قدَّم .

قال ابن حجر : وقد عملت عائشة راوية هذا الحديث بذلك في حــق مــن استحق عندها اللعن فكانت تلعنه وهو حي فلما مات تركت ذلــك ونهــت عــن لعنه ، فعن مجاهد بن جبر أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعث رجلاً في أيام الجمل برسالةٍ إلى عائشة فلم ترد عليه جواباً فبلغها أنه عاب عليهــا ذلــك فكانت تلعنه فلما بلغها موته نهت عن لعنه وقالت إن رسول الله ﷺ نهانــا عــن سبِّ الأموات . (٣)

وعن مسروق قال دخلت على عائشة فقالت : ما فعل فــلان لعنــه الله ؟ قلت : تُوفي ، قالت : رحمه الله قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) حسنه بعض الحفاظ كما قال السيوطي وضعفه بعضهم وحكم عليه معظم الأئمة كالحاكم والدارقطني والخطيب وغيرهم بأنه باطل راجع . كشف الخفاء ٤٩٣/٢ .

(٢) أحمد في المسند ٣٥١/١٦ رقم ٢٢٤٥٤ ، وقال ابن حجر : إسناده صحيح فتح الباري ٢٧٢/٣ .

(٣) صحيح ابن حبان ٢٩١/٧ رقم ٣٢١ وراجع : فتح الباري ٣٠٥/٣ .

" لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا " [١] فلا تعارض بين الحديثين والله أعلم .

الدروس المستفادة من الحديث

١- تحريم سب الأموات بغير حق أو مصلحة شرعية .

٢- تعويد اللسان على عدم السب .

٣- ذكر محاسن الأموات والكف عن ذكر مساوئهم .

---

[١] عزاه ابن حجر في فتح الباري إلى عمر بن شيبه في كتاب : أخبار البصرة فتح الباري ٣/٣٠٥ .

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه).

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ- البخاري كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ٩٦/١ رقم ١٠ .

ب- مسلم كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ٦٥/١ رقم ٤٠ ولفظه : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أيُّ المسلمين خير ؟ قال : " من سلم المسلمون من لسانه ويده " .

الراوي الأعلى للحديث

هو عبد الله بن عمرو بن العاص أبو محمد القرشي الصحابي الجليل سبقت ترجمته .

معاني المفردات :

المسلم : الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى والانقياد التام لأمره والمراد بالمسلم هنا : المسلم الكامل الإسلام .

سلم : من السلامة والمعنى : لا يكون مسلماً حتى يَسلمَ المسلمون من بوائقه .

لسانه : هو الجارحة الكائنة في الفم والتي ينطق بها الإنسان .

ويده : اليد اسم للجارحة المعروفة ولكن المقصود هنا أعم من أن يكون اليد الحقيقية أو اليد المعنوية وإنما المقصود مطلق الإيذاء بالقوة والاستيلاء على حق الغير بغير حق فإنه إيذاء ولكن لا باليد الحقيقية .

المُهاجر : هو من فارق عشيرته وأهله وهو بمعنى الهاجر ووقوع لفظ المفاعلة يقتضي وُقوع فعلٍ من اثنين لكنه هنا للواحد كالمسافر ويُحتمل أن يكـــون على بابه إلا أن من لازم كونه هاجراً وطنه مثلاً أنه مهجور من وطنه ، **وأصل الهجـــرة :** من الهجر ضد الوصل يقال : هَجَرَه هَجْراً وهِجْراناً ثم غلب استعماله على الخروج من أرضٍ إلى أرض وإذا أُطلق في الحديث ذكر الهجرتين فالمراد : الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة .

هجر : أي ترك امتثالاً لأمر الله وإجلالاً له وخوفاً منه .

ما نهى الله عنه : من الذنوب والمعاصي .

المعنى الإجمالي للحديث

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أُوتيها رسولنا الكريم ﷺ فإنه قد حـــوى – على قِلَّة ألفاظه – كثيراً من المعاني وصحح الأفهام في بعض القضايا الهامة.

فقد بيَّن صفات المسلم العارف لربه المطيع له الخائف منه الراغـــب فـــي جنته المستسلم لأمره وأنه هو الذي يعيش في سلامٍ مع الخلق جميعاً فلا يـــؤذي أحداً بلسانٍ أو بيد بل مثله مثل النخلة ليس فيها إلا خير ولا يسقط منها إلا كـــل نافع وفوق ذلك يرميها الناس بالحجر فتلقي عليهم أطيب الثمـــر فهـــو رحـــيم بإخوانه مشفق عليهم يحب الخير لهم ويكف سائر أنواع الشر عنهم .

ثم يكشف لنا الحديث حقيقة الهجرة فقد يظن البعض أنها انقطعت تمامـــاً بفتح مكة فيوجه النبي ﷺ أنظارنا إلى حقيقة الهجرة وأنهـــا هجـــر المعاصـــي والسيئات .

وفي الحديث : " المؤمن من أَمِنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب " [١] ، وفي حديثٍ آخر : " المهاجر من هجر السوء فاجتنبه " .[٢]

فتلك حقيقة الهجرة وهي مطلوبةٌ من كل مسلم أبد الدهر بحيث لا يصفوا له دينه إلا بها ، فالمسلم لا يؤذي أحداً بلسانه ولا بيده فالناس منه في أمان ويهجر المعاصي والذنوب فيرضي خلق الله ويحبونه ويرضى عنه خالق السماء بكفه عن المعاصي .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى :

النبي ﷺ يرشدنا في هذا الحديث إلى صفات المسلم الكامل الذي عرف ربه فاستسلم له وانقاد لأمره وعرف حقوق إخوانه فأدَّاها ولم يتطاول على أحدٍ بلسانه ولا بيده فقال : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " والألف واللام في المسلم يُراد بها الكمال أي : المسلم الكامل الإسلام هو من اتَّصف بهذه الصفات مع باقي أركان الإسلام وبقدر نقصها فيه يكون نقصه .

قال الخطابي : المراد أن : أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين وإثبات اسم الشيء على معنى إثبات الكمال له مستفيض في كلامهم يقولون : زيدٌ الرجل أي الكامل في الرجولية ويُحتمل أن يكون المراد بذلك بيان علامة المسلم التي يُستدلُّ بها على إسلامه وهي : أن يسلم المسلمون من لسانه ويده .

---

[١] أحمد في المسند ١٨٣/١٧ رقم ٢٣٨٤٠ ، ابن ماجة في سننه كتاب الفتن باب حرمة دم المؤمن وماله ١٤٩٨/٢ رقم ٣٩٣٤ ، وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

[٢] أحمد في المسند ٣٩٨/٦ رقم ٦٩٢٥ وإسناده صحيح .

ويُحتمل أن يكون المراد بذلك : الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يُحسن معاملة ربه فيكون من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى . [١]

وليس معنى ذلك أن شرط الإسلام أن يسلم المسلمون من لسانه ويده مع الاتِّفاق على أنه إذا أتى بالأركان الخمسة فهو مسلم بالنص والإجماع بل المراد هنا المسلم الكامل وإذا لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فلا يكون مسلماً كاملاً وذلك لأن الجنس إذا أُطلق يكون محمولاً على الكامل كما قال سيبويه .

فالحديث لا يتكلَّم عن أصل الإسلام فذلك مقرَّرٌ معروف وإنما يتكلم عن كمال الإسلام ومراتبه السامية ولذلك ورد في إحدى روايات الحديث أن رسول الله ﷺ سُئل أي المسلمين خير ؟ فقال : " من سلم المسلمون من لسانه ويده " .[٢]

الفائدة الثانية :

المسلم يخاف ربه ويحافظ على حقوق خلقه فلا يؤذي أحداً بلسانٍ أو بيد إلا إذا اقتضت المصلحة الشرعية ذلك كإقامة الحدود والتعازيز وقتال الكفار المأمور بقتالهم ونحو ذلك فإذا انتفت المصلحة الشرعية فالأصل صيانة الأعراض والأموال والدماء للمسلمين وغيرهم .

وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب لأن المسلم مأمورٌ بكفِّ الأذى عن أخيه بشكلٍ أشد تأكيداً ولأن الكفار أنواع ، منهم من يجب قتاله ومنهم من يجب الكف عنه .

---

[١] فتح الباري ٦٩/١ .

[٢] مسلم كتاب الإيمان باب تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل ٦٥/١ رقم ٤٠ .

وهذا الحُكم عامٌ في حقِّ الرجال والنساء وإنما أُتي بجمع التـــذكير علـــى سبيل التغليب فإن المسلمات يدخلن في ذلك قطعاً .

قال القرطبي : لا ينتهي الإنسان إلى هذا حتى يتمكن خـــوف عقـــاب الله تعالى من قلبه ورجاء ثوابه فيُكسبه ذلك ورعاً يحمله على ضبط لسانه ويده فلا يتكلم إلا بما يعنيه ولا يفعل إلا ما يسلم فيه ومن كان كذلك فهو المسلم الكامـــل والمتقي الفاضل .[١]

ولأهمية هذا الأمر في حياة المسلم كان ابن عمر يحلف ورب هذه البنيـــة – أي الكعبة – لسمعت رسول الله ﷺ يقول : " المهاجر مـــن هجـــر الســـيئات والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده " .[٢]

وسُئل الحسن البصري عن الأبرار فقال : هم الذين لا يُـــؤذون الـــذر ولا يرضون الشر.

الفائدة الثالثة :

يُبيِّن لنا هذا الحديث أهمية اللسان وأثره البالغ في تحديد مصير صـــاحبه فالجنة إن استعمله في الطاعات وقيَّده بلجام الشرع والنـــار إن اســـتعمله فـــي المحرمات فإنه لا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

فاللسان من نِعَم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صـــغيرٌ جُرْمـــه عظيمٌ طاعته ومعصيته إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادته فخطره عظـــيم والنجاة من خطره تكون في قول الحق و الصمت عن الباطل ولذلك أمر الشرع بقول الخير أو الصمت عن الشر .

---

[١] المفهم : ٢٢٤/١ .

[٢] ابن حبان في صحيحه ٤٢٤/١ رقم ١٩٦ ، الإيمان لابن منده ٤٥١/١ رقم ٣١٣ .

وفي الحديث : " من كان يؤمن بـــالله واليـــوم الآخـــر فليقـــل خيـــراً أو ليصمت " [١] ، وعدَّ رسول الله ﷺ النجاة في الصمت فقـــال : " مـــن صـــمت نجا " [٢] ، وسُئِل رسول الله ﷺ ما النجاة ؟ فقال : " أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئك " [٣] .

بل إن النبي ﷺ تكفَّل بالجنة لمن يستطيع حفظ لسانه وفرجه ، فقال : " من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة " [٤] ، ولما سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار قال : " الأجوفـــان : الفـــم والفـــرج " [٥] والفم محل اللسان .

وسأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ فقال له : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم يـــا رسول الله ؟ فقال له رسول الله ﷺ " ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب النـــاس فـــي النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم " . [٦]

---

[١] البخاري كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ٤٦٠/١٠ رقم ٦٠١٨ ، مسلم كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان ٦٨/١ رقم ٤٧ .

[٢] الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٢٥٥/٤ رقم ٢٥٠٩ ، أحمد في مسنده ٣٦/٦ رقم ٦٤٨١ ، والطبراني في المعجم الأوسط ٢٦٤/٢ رقم ١٩٣٣ ، قال ابن حجر : رواه الترمذي ورواته ثقـــات فـــتح الباري ٣١٥/١١ ، وقال المنذري : رواه الطبراني ورجاله ثقات الترغيب والترهيب ٩/٤ .

[٣] الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان ١٨٢/٤ رقم ٢٤١٤ ، وقال : حديث حسن ، أحمد في المسند ٢٤٤/١٦ رقم ٢٢١٣٦ .

[٤] البخاري كتاب الرقائق باب حفظ اللسان ٣١٤/١١ رقم ٦٤٧٤ .

[٥] أحمد في المسند ٢٤/٨ رقم ٧٨٩٤ ، وابن ماجة في سننه كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ١٤١٨/٢ رقم ٤٢٤٦ ، وابن حبان في صحيحه ٢٢٤/٢ رقم ٤٧٦ وإسناده صحيح .

[٦] الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة ٢٨٠/٤ رقم ٢٦٢٥ ، وقال : حديث حسن صحيح ، أحمد في المسند ١٦٧/١٦ رقم ٢١٩١٥ .

وكان ابن مسعود يُلبِّي على الصفا ويقول : يا لسان قل خيراً تغنم أو اسكت عن شرٍ تسلم من قبل أن تندم ثم قال : قال رسول الله ﷺ : " إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه " .[١]

وقال الحواريون لعيسى بن مريم : دُلّنا على عملٍ ندخل به الجنة فقال : لا تنطقوا أبداً قالوا : لا نستطيع ذلك فقال : فلا تنطقوا إلا بخير . [٢] ، وقال : العبادة عشرة أجزاء تسعٌ منها في الصمت وجزءٌ في الفرار من الناس . [٣]

وإذا تأمّل العاقل في ذنوبه يجد أكثرها حدثت بلسانه فما أحوجه إلى طول سجن وشدة حساب ، ولذلك كان أبو بكر الصديق يُمسك لسانه بيده ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . [٤]

وكان أحد الصالحين يقول : أنصف أذنيك من لسانك فإن الله خلق لك أذنين ولساناً واحداً لتسمع أكثر ما تتكلم .

ومن كثُر كلامه كثُر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به . [٥]

ومن تأمّل في الكلام وجده على أربعة أقسام : قسمٌ ضررٌ محض ويلزم السكوت عنه ، وقسمٌ فيه ضررٌ ومنفعة فوق الضرر فيجب السكوت عنه ، وقسمٌ

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٩٧ رقم ١٠٤٤٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٤٠ رقم ٤٩٣٣ ، وقال الهيثمي : رجال الطبراني رجال الصحيح مجمع الزائد ١٠/٣٠٣ ، ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/٣٢٠ رقم ٢٦٤٩٩ ، حلية الأولياء ١/١٣٤ .

[٢] إحياء علوم الدين ٣/١٠٥ .

[٣] إحياء علوم الدين ٣/١٠٥ .

[٤] الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ١/٧٦ ، مصنف ابن أبي شيبة ٥/٣٢٠ رقم ٢٦٥٠٠ ، أبو يعلى في مسنده ١/١٧ رقم ٥ ، البزار في مسنده ١/١٦٣ .

[٥] الطبراني في المعجم الأوسط من كلام عمر ٢/٣٧٠ رقم ٢٢٥٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٥٧ .

ليس فيه ضررٌ ولا منفعة وهو فضول والاشتغال به تضييعٌ للوقت وهو عين الخُسران ، وقسمٌ فيه نفعٌ محض ويشوبه الخطر إذ ربَّما يُخالطه الرياء والتصنُّع والغِيبة وتزكية النفس وفضول الكلام مخالطة تخفى على كثيرٍ من العقلاء فيكون الإنسان به مخاطراً . فسقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع واحد غير سالم من الآفات وآفات اللسان كثيرة أوصلها الإمام الغزالي إلى عشرين آفة لا يكاد يسلم منها أحدٌ نسأل الله السلامة . [١]

الفائدة الرابعة :

أمر الله المسلم بكفِّ يده فلا يؤذي بها أحداً وإن كان الإيذاء ممنوع مطلقاً قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ [٢] .

وخصَّ النبي ﷺ اليد بالذكر لأن معظم الأفعال تقع بها ؛ إذ بها القطع والوصل والبطش والمنع والإعطاء ؛ وقد جاء القرآن العزيز بإضافة الاكتساب والأفعال إليها قال تعالى : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [٣] ولذلك يُسمُّون الصنائع الأيدي ويُقال للرجل الذي عوقب بجناية لسانه : هذا بما كسبت يداك .

وقد جعل النبي ﷺ كف اليد أحد صفاتٍ ستة تُوجب لصاحبها الجنة فقال : " اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة اصدقوا إذا حدَّثتم ، وأوفُوا إذا

---

[١] إحياء علوم الدين ٣/١٠٢-١٥٤ .
[٢] الأحزاب : ٥٨ .
[٣] الشورى : ٣٠ .

وعدتم ، وأدُّوا إذا اؤتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغُضُّوا أبصاركم ، وكُفُّوا أيديكم " . [١]

وقرن اللسان باليد لأن الإيذاء يقع بهما أكثر من الإيذاء بغيرهما فاعتُبر الغالب ، وقدَّم اللسان على اليد لأن الإيذاء به أكثر وقوعاً وأشد خطراً وأسهل وقوعاً وأشد نكاية ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت : " اهج المشركين فإنه أشق عليهم من رشق النبل " [٢] وانظر إلى ما قاله الشاعر :

جراحات اللسان لها التئام ** ولايلتام مـا جـرح اللسـان

وذكر اللسان ولم يذكر القول مع إنه لا يكون إلا باللسان ، لأن الإنسان قد يُؤذي بلسانه دون أن يتكلَّم به كأن يُخرجه للآخرين على سبيل الاستهزاء . والفرق بين الأذى باللسان والأذى باليد أن إيذاء اللسان أخطر كما ذكرنا وأعم لأنه يكون في الماضين والموجودين والحادثين بعد ، بخلاف اليد لأن إيذائها مخصوصٌ بالموجودين ، اللَّهُم إلا إذا كتبت اليد فإنها حينئذٍ تُشارك اللسان في الإيذاء فيكونان متساويين .

الفائدة الخامسة :

يُصحِّح لنا هذا الحديث مفهوم الهجرة ويُوضِّح معناها الشرعي والممكن لكل المسلمين .

فأصل الهجرة : مطلق الترك ، ومعناها الظاهر الذي يتبادر إلى الأذهان : ترك مكانٍ إلى مكانٍ آخر واشتهر استعمالها في هجرة الصحابة إلى الحبشة ثم

---

[١] أحمد في المسند ٤١٣/١٦ رقم ٢٢٦٥٦ ، ابن حبان في صحيحه ٥٠٦/١ رقم ٢٧١ ، والحاكم في المستدرك ٣٩٩/٤ رقم ٨٠٦٦ وصححه ووافقه الذهبي وقال : فيه إرسال ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة مجمع الزوائد ١٤٥/٤ .

[٢] البيهقي في السنن الكبرى ٢٣٨/١٠ ، والطبراني في المعجم الكبير ٣٨/٤ رقم ٣٥٨٢ .

هجرة الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة فراراً بدينهم ، فلما فتحت مكة وصارت دار إسلام انقطعت الهجرة إلى الرسول ﷺ .

وفي الحديث : " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا " . [(١)]

والهجرة الآن لها صورتان : الأولى : الهجرة الظاهرة : وهي الفرار بالدين من الفتن وترك الأرض إلى غيرها قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ .[(٢)]

الثانية : الهجرة الباطنة : وهي ترك المعاصي والذنوب وترك ما تدعوا إليه النفوس الأمَّارة بالسوء وترك اتباع الشيطان وترك الأخلاق المرذولة وفيها يقول رسول الله ﷺ : " المهاجر من هجر ما نهى الله عنه " .

قال ابن حجر : كأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتَّكلوا على مجرد التحول من دراهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه .

قال : ويُحتمل أن يكون ذلك قبل انقطاع الهجرة لمَّا فُتحت مكة تطييباً لقلوب من لم يُدرك ذلك بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه . [(٣)] فمن هجر ما نهى الله عنه فهو المهاجر الكامل .

---

(١) البخاري كتاب الجهاد والسير باب فضل الجهاد والسير ٦/٦ رقم ٢٧٨٣ ، ومسلم كتاب الإمارة باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ١٤٨٨/٣ رقم ١٨٦٤ .

(٢) النساء : ٩٧ .

(٣) فتح الباري ٧٠/١ .

وهذا الحديث من جوامع الكلم التي أُوتيها رسول الله ﷺ فإنه حوى ألفاظاً قليلة ومعانٍ متعددة متجدِّدة وفيرة .

الدروس المستفادة من الحديث

١- الاعتناء بنفع المسلمين والكف عما يُؤذيهم بقولٍ أو فعل بمباشرة أو سبب .

٢- الإمساك عن احتقار المسلمين والحث على تأليف قلوبهم واجتماع كلمتهم وتوادهم والحرص على ما يُحصِّل ذلك .

٣- المهاجر الكامل هو : من هجر السيئات واجتنب المعاصي والمنكرات .

٤- التحذير من خطورة اللسان وخطورة الإيذاء باليد .

النهي عن التجسس

عن ابن مسعود ﷺ أنه أُتى برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ؟ فقال : إنا نُهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيءٌ نأخذ به .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث

أ- أبو داود كتاب الأدب باب النهي عن التجسس ٢٧٤/٤ رقم ٤٨٩٠ .

ب- البيهقي في شعب الإيمان ٩٩/٦ رقم ٧٦٠٤ .

وقال الإمام النووي : رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم رياض الصالحين ص ٥٤٩ حديث رقم ١٥٧٢ .

الرواي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل سبقت ترجمته .

معاني المفردات

تقطُر : أي تسيل على لحيته قطرة قطرة .

خمراً : الخمر هو كل ما أسكر وأكثر ما يكون من عصير العنب وليس خاصاً به وإنما سُمِّيت خمرًا لأنها خامرت العقل أي غطَّته والتخمير : التغطية والجمع خمور .

المعنى الإجمالي للحديث

هذا حديث جليل القدر كثير الفوائد عظيم النفع أتى أصحاب ابن مسعود وتلاميذه برجلٍ يقطر الخمر على لحيته وطلبوا منه أن يرفع أمره إلى السلطان فأحب أن يُلقِّنهم درسًا في أهمية الستر على عصاة المسلمين وعدم محاولة استكشاف سرائر الناس فأخبرهم أن رسول الله ﷺ نهى عن التجسس وإن ظهر

لنا أمر أخذنا به ولانحاول معرفة سرائر النـــاس لأن الإســـلام أمـــر بصـــيانة أعراض المسلمين ودمائهم وأموالهم .

ملاحظة هامة بين يدي الحديث

هذا الحديث موقوفٌ لفظاً لأنه من كلام ابن مسعود وهو صحابي ومرفوعٌ حكماً لأن الصحابي إذا قال : أُمرنا بكذا أو نُهينا عن كذا لا يُفهـــم منـــه إلا أن الآمر أو الناهي هو رسول الله ﷺ ولذلك يقول العلماء في أمثال هذا الحـــديث : موقوفٌ لفظاً مرفوعٌ حكماً .

الفوائد والأحكام

الفائـدة الأولى : يُعلِّمنا ابن مسعود في هذا الحديث ما يجب أن يكـــون عليه المسلم من الأدب العالي والخلق الحسن فلا يتبع العورات أو يحرص على كشفها وإبرازها صيانة للمجتمع من شيوع الفساد وإلف المعاصي والمنكـــرات ففي البحث عن العورات والولع بكشفها إفساد للعاصي الذي ستره الله وإفســـاد للمجتمع بأسره ولذلك أمرنا الإسلام بعدم التجسس وهو البحث عن عيوب الناس ومساوئهم التي يخفونها ويحرصون على سترها فنحن مأمورون بأن نأخذ مـــا ظهر وندع ما استتر .

لأن من تتبع عورة الغافل أفسده وهتك ستره وفي الحديث أن معاوية بن أبي سفيان قال : إني سمعت من رسول الله ﷺ كلامًا نفعني الله به سمعته يقول ﷺ : " أعرضوا عن الناس ألم تر أنك إذا اتبعت الريبة في النـــاس أفســـدتهم أو كدت أن تفسدهم " [١] وفي رواية عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إنك إن اتبعـــت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " [٢] وعن أبي أمامة أن رســـول الله

---

[١] أبو داود كتاب الأدب باب في النهي عن التجسس ٢٤٣/٤ رقم ٤٨٨٨ وابن حبان في صحيحه ٧٢/١٣ رقم ٥٧٦٠ .

[٢] التمهيد لابن عبد البر ٢٤/١٨ .

ﷺ قال : " إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم " [١] فالمسلم يستر ولا يفضح وفي الحديث " من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة " [٢] " ومن ستر عورة مسلم في الدنيا ستر الله عورته في الآخرة " [٣] وقد فهم الصحابة هذه المعاني وطبّقوها كأحسن ما يكون التطبيق فعن دحين كاتب عقبة قال : قلت إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داعٍ لهم الشرط فيأخذونهم قال : لاتفعل ولكن عظهم وتهددهم قال : ففعل فلم ينتهوا قال : فجاء دحين عقبة فقال له : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشرط فتأخذهم فقال له عقبة ويحك لاتفعل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من ستر عورة مسلم فكأنما استحيا موءودة من قبرها " [٤] .

الفائدة الثانية : علم الصحابة خطورة التجسس وما يترتب عليه من أخطار فتركوه وهذا عمر بن الخطاب أشد هذه الأمة في تطبيق أمر الله يكتشف بعض الأخطاء والمعاصي التي يسترها أصحابها ولا تضر غيرهم فَيَهمُّ بمعاقبتهم ثم يُذكره رفيقه وصاحبه أن هذا تجسس فيتركه ، قال عبد الرحمن بن عوف حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة فتبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط فقال عمر لعبد الرحمن : أتدري بيت من هذا ؟ قال : لا قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شُرّب فما ترى ؟ قلت أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [٥] وقد تجسسنا فانصرف عمر وتركهم " [٦] ، وأُخبر عمر أن أبا محجن الثقفي

---

[١] أبو داود كتاب الأدب باب في النهي عن التجسس ٢٧٤/٤ رقم ٤٨٨٩ وأحمد في مسنده ١٣٥/١٧ رقم ٢٣٧٠٥ ، الحاكم في المستدرك ٤١٩/٤ رقم ٨١٣٧ وصححه ووافقه الذهبي .

[٢] البخاري كتاب المظالم والغضب باب لايظلم المسلم المسلم ولايسلمه ١١٦/٥ رقم ٢٤٤٢ ، ومسلم كتاب البر والصلة والأداب باب تحريم الظلم ١٩٩٦/٤ رقم ٢٥٨٠ .

[٣] أحمد في مسنده ٤١٥/٧ رقم ٧٦٨٧ .

[٤] أبو داود كتاب الأدب باب في الستر على المسلم ٢٧٤/٤ رقم ٢٤٨٩٢ ، أحمد في مسنده ٣٥٨/١٣ رقم ١٧٣١٩ وإسناده صحيح

[٥] الحجرات آية (١٢) .

[٦] الحاكم في المستدرك ٤١٩/٤ رقم ٨١٣٦ وصححه ووافقه الذهبي .

يشرب الخمر مع أصحابٍ له في بيته فانطلق عمر حتى دخل عليه فلم يجد عنده غير رجل واحد فقالَ له أبو محجن إن هذا لا يحل لك قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه " [١] .

فالإسلام يعترف للناس بحرياتهم ويصون حرماتهم وكراماتهم فلا يجوز أن تُنتهك في صورة من الصور ولا أن تُمسَّ بحالٍ من الأحوال ففي المجتمع المسلم الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم آمنين على بيوتهم آمنين على أسرارهم آمنين على عوراتهم ولايوجد مبرر – مهما يكن – لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسر والعورات حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس ، فالناس على ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم وليس لأحد أن يظن أو يتوقع أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفةً ما فيتجسس عليهم ليضبطهم وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة . [٢] ولذلك قال عمر بن الخطاب : إن أناساً كانوا يُؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذهم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمِنَّاه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة [٣].

وقد حذر النبي ﷺ من يحرص على تتبع العورات وهتك الأستار بالفضيحة والعذاب فعن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ " يا معشر من آمن بلسان ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم فإن

---

[١] تفسير القرطبي ٦١٥٤/٩ .

[٢] في ظلال القرآن ٣٣٤٦/٦ .

[٣] البخاري كتاب الشهادات باب الشهداء العدول ٢٩٨/٥ رقم ٢٦٤١ .

من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فـــي بيتـــه " [١] وفي رواية : " يفضحه ولو في جوف رحله " [٢] فللناس جميعاً أخطاء وذنـــوب عدا من عصمه الله من الأنبياء والمسلم مأمور بأن يستر على نفسه ولايجهـــر بالمعصية ثم أمر الإسلام أخاه أن يستر عليه ولايتجسس عليه ليكشف عورتـــه وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " من ستر عورة أخيـــه المســـلم ســـتر الله عورته يوم القيامة ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته " [٣] ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمـــك وأعظـــم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك . [٤] فطلب عثرات المـــؤمنين مـــن صفات المنافقين ولذلك قال رسول الله ﷺ : " يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولاتعيروهم ولاتطلبوا عثراتهم " [٥] وقـــد حـــث النبي المسلمين على ستر العورات فقال : " لايستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة " [٦] .

وقال : " لا يرى مؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا أدخله الله بهـــا الجنة " [٧] .

الفائدة الثالثة : حرم الإسلام التجسس وجعله باباً من أبـــواب الفســـاد والمعاصي وأرخى الله على الناس ستره ومنع من هتك هذا الستر إلا إذا وُجدت

---

(١) أبو داود كتاب الأدب باب في الغيبة ٢٧١/٤ رقم ٤٨٨٠ ، أحمد في مسنده ٣٢/١٥ رقم ١٩٦٦٤ وإسناده صحيح .

(٢) الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في تعظيم المؤمن ٤١٦/٣ رقم ٢٠٣٩ وقال : حديث حسن .

(٣) ابن ماجة كتاب الحدود باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ٨٥٠/٢ رقم ٢٥٤٦ .

(٤) الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في تعظيم المؤمن ٤١٦/٣ .

(٥) ابن حبان في صحيحه ٧٥/١٣ رقم ٥٧٦٣ .

(٦) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة ٢٠٠٢/٤ رقم ٢٥٩٠ .

(٧) الطبراني في المعجم الاوسط ١٧٠/٩ رقم ٩٤٤٢ .

ضرورة ملجئة لذلك خرج عمر بن الخطاب مع عبد الرحمن بن عوف يعسان ليلة إذ تبينت لهما نار ففتحا الباب فإذا رجل قائم وامرأة تغني وعلى يد الرجل قدح فقال عمر وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال له الرجل وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر من هذه منك ؟ قال امرأتي قال : فما في هذا القدح ؟ قال : ماء زلال فقال للمرأة وما الذي تغنيه؟ فقالت :

تطاول هذا الليل واسود جانبه		وأرقني أن لاخليل ألاعبه
فوالله لولا الله أني أراقبه		لزعزع من هذا السرير جوانبه
ولكن عقلي والحياء يكفني		وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثم قال الرجل : ما بهذا أُمرنا يا أمير المؤمنين قال تعالى : " ولاتجسسوا " فقال له عمر : صدقت . قال الإمام القرطبي : لا يُفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل لأن عمر لا يُقر على الزنا وإنما غنت بتلك الأبيات تذكاراً لزوجها وأنها قالتها في مغيبه عنها . [١] وعاقبة التجسس وخيمة في الدنيا والآخرة قال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت فكان يعودها فماتت فدفنها فكان هو الذي نزل في قبرها فسقط من كمه كيس فيه دنانير فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه فكشف عنها فإذا القبر مشتعل ناراً فجاء إلى أمه فقال أخبريني ما كان عمل أختي ؟ فقالت قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها وكان إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم فتتجسس عليهم وتخرج أسرارهم فقال : بهذا هلكت [٢].

---

[١] تفسير القرطبي ٩/٦١٥٤ .

[٢] تفسير القرطبي ٩/٦١٥٤ .

فالحديث يقيم سياجاً حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم فلا تُمسُّ من قريب أو بعيد تحت أي ذريعة أو ستار .

الدروس المستفادة من الحديث

١- تحريم التجسس ومحاولة كشف عيوب الناس .

٢- مشروعية الستر على العصاة وإحسان الظن بالمسلمين .

٣- الحكم على الظاهر والله وحده يتولى السرائر .

النهي عن التباغض والتحاسد والتدابر

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " لا تباغضوا ولاتحاسدوا ولاتدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث " .

تخريج الحديث

أخرج هذا الحديث :

أ- البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٤٩٦/١٠ رقم ٦٠٦٥ .

ب- مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ١٨٩٣/٤ رقم ٢٥٥٩ .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ سبقت ترجمته .

معاني المفردات

لاتباغضوا : بحذف التاء وأصله تتباغضوا والبُغض هو المقت والكراهية والبغض ضد الحب .

ولاتحاسدوا : بحذف التاء وأصله تتحاسدوا والحسد هو : تمني الرجل زوال نعمة الغير سواءً أرادها لنفسه أم لم يردها لنفسه .

ولا تدابروا : بحذف التاء وأصله تتدابروا أي لا يدبر كل واحد منكم عن صاحبه فيعطيه دبره وقفاه ويعرض عنه ويهجره ويترك السلام عليه والكلام معه ونحو هذا وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ومن أعرضت عنه ولَّيته دبرك ولذلك يصنع هو بك ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته لتسره ويسرك .

وكونوا عباد الله إخواناً : أي كونوا يا عباد الله إخواناً بحذف حرف النداء أي في الشفقة والمودة والمحبة والتناصح والتراحم .

أن يهجر أخاه : أصل الهجرة : الترك فعلاً كان أو قولاً والمقصود بها هنا ترك الشخص مكالمة الآخر إذا تلاقيا وإعراض كل واحد منهما عن صاحبه عند الاجتماع .

ولاتقاطعوا : أي لا يقطع أحدكم أخاه فلا يكلمه أو يعامله ، والتقاطع ضد التواصل .

ولذلك قال بعض العلماء : المراد بالنهي عن التباغض هو : النهي عن الأهواء المضلة التي تقتضي التباغض . والمنهي عنه في الحديث أعم من ذلك لأن اتباع الأهواء المضلة أحد أسباب البغض وليست السبب الوحيد له .

المعنى الإجمالي للحديث

خلق الله الإنسان لطاعته وجعله خليفته في أرضه وتعهده بالرسل والكتب وخلق له من نفسه زوجاً يسكن إليها وينجب أولاداً يعمرون الأرض ويعبدون الله ويتراحمون فيما بينهم ربهم واحد ورسالتهم في الكون واحدة يؤمنون بربهم ويحب بعضهم بعضاً ويحب لإخوانه ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ويتجنب كل الأسباب التي تورثه بغض إخوانه لأن الله أمره بحبهم فهو يحب لله وإذا أبغض فلله ولايحسد أحداً على أمر الدنيا فهو يعلم أنها عرضٌ حقير وظل زائل ولكن يتمنى أن يرزقه الله طاعته وينافس إخوانه في ذلك ويتمنى مشاركتهم في أفعال الخير ولا يهجر أخاه ويقاطعه بل يسامحه ويعذره ويصفح عن أخطائه لأن الإسلام حرم الهجرة والقطيعة فوق ثلاث فهو إذا غضب أنصف ولعل غضبه يحثه على هجرة أخيه وقطيعته فسامحه الشرع فيما دون ثلاثة أيام حتى إذا اسكت غضبه وراجع نفسه قابل أخاه بالسلام والوداد والمصافحة والمحبة فيعيشون إخوان صدق متحابين متعاونين متراحمين لأنهم جميعاً عباد الله عز وجل .

الفوائد والأحكام

الفائـدة الأولى : نهى الإسلام أتباعه عن التباغض وهو كراهة بعضـهم بعضاً وليس المقصود بالنهي هو مطلق التباغض لأن البغضاء من عمل القلـب ولا سلطان للإنسان عليه ولايملك العبد التصرف فيه مثل باقي أعمال القلـوب كالحب والبغض ولذلك قال رسول الله ﷺ : " اللهم هذا قسمي فيما أملـك فـلا تلمني فيما تملك ولاأملك " [(١)] يعني الحب والبغض ونحوهما .

ولذلك حينما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال أوصني فقال له رسول الله ﷺ : " لاتغضب " [(٢)] قال العلماء ليس النهي موجَّهاً إلى الغضب بذاته لأنه خلق فطري لا دخل للإنسان فيه ولكن المنهي عنه هو تنفيذ مقتضى الغضـب مـن السب والهجر وغير ذلك .

والمراد بالنهي عن التباغض في هذا الحديث : الامتناع عن تعاطي أسبابه وما يترتب على وقوعه من أفعال مكتسبة .

والإسلام حرم التباغض لأنه مفسدة للدين حالقه له وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضاء هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنـة حتـى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم " [(٣)] ولذلك قال سعيد بن المسيب: "الا أخبركم بخير من الصلاة والصدقة؟

---

(١) الترمذي كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر ٣٧٤/٢ رقم ١١٤٣ أبو داود كتاب النكاح باب في القسم بين النساء ٢٤٩/٢ رقم ٢١٣٤ ، أحمد في مسنده ٥١٦/١٧ رقـم ٢٤٩٩١ وإسـناده صحيح .

(٢) البخاري كتاب الأدب باب الحذر من الغضب ٥٣٥/١٠ رقم ٦١١٦ .

(٣) الترمذي كتاب صفة القيامة ٢٢٨/٤ رقم ٢٥١٨ ، وأحمد في المسند ١٨٩/٢ رقم ١٤١٢ .

قالوا: بلى قال: صلاح ذات البين وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة" [١] فالمسلم يحب إخوانه ويحبونه ولا يبغض أحداً إلا إذا كان مبتدعاً فاسقاً أمره بالحق فلم يأتمر ونهاه عن المعاصي والكبائر فلم ينته فيبغضه إرضاءً لله عز وجل وليس لدنيا ينافسه عليه أو هوى يدفعه إلى بغضه فالمؤمن يسخر ملكاته لإرضاء الله عز وجل فهو إذا أحب أحب لله وإذا أبغض أبغض لله وهذه أسمى درجات الإيمان وفي الحديث : " من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان " [٢] وفي الحديث أيضاً : " لايحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ويبغض لله فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله وإن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يُذكرون بذكري وأذكر بذكرهم " [٣] ولما سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان قال : " أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله " [٤] .

ولذلك قسَّم العلماء البغض إلى نوعين :

الأول : بغض مذموم وهو البغض بسبب الدنيا والأهواء والعصبية ونحو ذلك .

الثاني : بغض ممدوح وهو ما كان لله عز وجل وفاعله يثاب عليه لأن من أحب أحداً أحب من يوافقه ويطيعه وأبغض من يخالفه ويعصيه فيحب

---

[١] مالك في الموطأ كتاب حسن الخلق باب ما جاء في حسن الخلق ص ٦٩٠ .

[٢] أبو داود كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٢١٩/٤ رقم ٤٦٨١ والترمذي كتاب صفة القيامة ٢٣٣/٤ رقم ٢٥٢٩ وحسنه ، أحمد في مسنده ٢٥٠/١٢ رقم ١٥٥٥٤ .

[٣] أحمد في مسنده ٢٢٦/١٢ رقم ١٥٤٨٦ وإسناده ضعيف .

[٤] أحمد في المسند ٢١٠/١٦ رقم ٢٢٠٢٩ وإسناده حسن .

المؤمن إخوانه الطائعين ويبغض الكفار والعاصين وهذا من أوثق عرى الإيمان لأن موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه أفضل أعمال البر .

الفائدة الثانية : الحسد ثمرة فساد القلب وظلامه وقد حذر الإسلام من التحاسد وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [١] فأفادت هذه الآية أن النهي عن التحاسد ليس مقصوراً على وقوعه بين اثنين فصاعداً بل الحسد مذموم ومنهي عنه سواءً وقع من الطرفين أو كان من جانب واحد لأنه إذا ذُم مع وقوعه من الجانبين على سبيل الرد كان مذموماً إذا وقع من طرف واحد ظلماً وبغياً على سبيل الأولى .

والحسد هو أن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن غيره وحصوله عليها وهو منافٍ لحقوق الأخوة وقد سبق في الحديث " دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء " وقد حذر الرسول ﷺ منه وبين عظيم خطره فقال : " الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار " [٢] وفي الحديث : " لايزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا " [٣] والحسد سلاح إبليس وعدته لإفساد الأعمال الصالحة ولذلك فهو يقول لأتباعه : ابغوا من بني آدم البغي والحسد فإنهما يعدلان عند الله الشرك " [٤] .

---

[١] سورة الفلق الآية رقم (٥) .

[٢] أبو داود كتاب الأدب باب في الحسد ٢٧٨/٤ رقم ٤٩٠٣ ، ابن ماجة كتاب الزهد باب الحسد ١٤٠٨/٢ رقم ٤٢١٠ .

[٣] الطبراني في المعجم الكبير ٣٠٩/٨ رقم ٨١٥٧ ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣٤٧/٣ رقم ٤٣٧٨ وقال : رواه الطبراني ورواته ثقات .

[٤] الديلمي في مسند الفردوس ٢٤٠/١ رقم ٢٩١ .

والحاسد عدو لنعمة الله تعالى فيحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله قال تعالى منكرًا عليهم ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [١] .

ولذلك قال نبي الله زكريا عليه السلام : " قال الله تعالى الحاسد عدو لنعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي " [٢] والجنة لا يدخلها إلا سليم القلب نقي الفؤاد .

فعن أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال : " يطلع الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة " فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه وقد علق نعليه بيده الشمال فسلم فلما كان من الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل بعينه مثل المدة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبيﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له عبد الله : إني لا حيت - أي خاصمت - أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن أردت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت ؟ فقال نعم قال أنس : وكان عبد الله يحدث أنه إذا تعارّ - أي استيقظ - وتقلب على فراشه ذكر الله تعالى وكبره ولايقوم حتى تقوم الصلاة قال : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً فلما مرت الثلاث وكدت أحتقر عمله فقلت : يا عبد الله إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب ولاهجرة ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك - أي عنك - ثلاث مرات : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك فأقتدي بك فلم

---

[١] سورة النساء : آية (٥٤) .

[٢] شعب الإيمان للبيهقي ٥/٢٧٤ رقم ٦٦٣٧ .

أرك عملت كبير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت فلما وليت دعاني وقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله تعالى إياه فقال عبد الله " هي التي بلغت بك " وفي رواية قال له عبد الله " هذه التي بلغت بك وهي التي لانُطيق " [1] أي القيام بها .

والحاسد يرفض قسم الله في خلقه ولذلك قيل : الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد .

ألا قل لم كان لي حاسداً	∴	أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله	∴	لأنك لم ترض لي ما وهي
فجازاك عنه بأن زادني	∴	وسد عليك وجوه الطلب

والحسد نار تحرق صاحبها فتضره في دنياه ويسخط ربه فيجني الإثم في أخراه ولذلك قال أعرابي : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد لأنه يرى النعمة عليك نقمة عليه وقيل أيضاً الحاسد لاينال من المجالس إلا مذمة وذلاً ولاينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ولاينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ولاينال عند النزع إلا شدة وهولا ولاينال عند الموقف إلا فضيحة وهواناً ونكالاً .

والحسد أول خطيئة عُصي الله بها في السماء عندما حسد إبليس آدم فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية ، وهو أول معصية وقعت في الأرض فإنه الذي حمل ابن آدم – قابيل – على أن يقتل أخاه – هابيل – حين حسده .

---

[1] أحمد في المسند ٥٣٦/١٠ رقم ١٢٦٣٣ ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد ٧٩/٨ .

والحسد أربعة أنواع :

الأول : وهو أشرها : أن يتمنى زوال النعمة عن غيره ولو لم يحصل عليها .

الثاني : أن يتمنى أن تزول النعمة عن غيره لتصل إليه ويسعى من أجل زوالها عن غيره وحصوله عليها .

الثالث : أن يتمنى أن تزول النعمة عن غيره لتصل إليه دون سعي منه لنيل ذلك .

الرابع : أن يتمنى أن يحصل على نعمة مثل التي حصلت لغيره رغبة في الخير وتنافساً في نيل الدرجات .

أما النوع الأول فسببه فساد في القلب وحقد في النفس وأنانية في الطبع وهي صفات إبليس وجنده .

أما النوع الثاني فأقل من الأول شراً وسببه الرغبة في الحصول على النعمة والانفراد بها والتميز عن أقرانه .

أما النوع الثالث فهو عمل قلبي فإن سعى في إزالة النعمة عن غيره جمع بين الحسد والبغي فإن امتنع عن ذلك لعجزه عنه بحيث لو تمكن منه لفعله فهو من النوع الثاني .

وإن كان حسده عملاً قلبياً لا يستطيع دفعه ولم يجمع معه سعيه في إزالة النعمة عن المحسود بحيث يمنعه من ذلك تقوى الله فصاحبه معذور لأن الإنسان لا يستطيع دفع الخواطر النفسية عن قلبه فيكفيه أن يجاهد نفسه بحيث لا يعمل بمقتضى الحسد ولا يعزم على العمل بها وقد جاء في الحديث ما يؤكد هذا فعن إسماعيل بن أمية أن رسول الله ﷺ قال : " ثلاثٌ لا يسلم منها أحد الطيرة والظن والحسد " قيل فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : " إذا تطيرت فلا ترجع

وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ " [١] وقال الحسن البصري : ما من آدمي إلا وفيه الحسد فمن لم يجاوز ذلك إلى البغي والظلم لم يتبعه منه شيء [٢].

والحاسد عدو نفسه لأنه يضرها أكثر من غيرها فيغتم بسرور غيره ويأسف على الخير إذا وقع عند غيره فيزداد المحسود فرحاً وسروراً ويزداد الحاسد هماً وغماً وقد أحسن من قال :

اصبر على حسد الحسود ∴ فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ∴ إن لم تجد ما تأكله

أما النوع الرابع فهو مباح بل قد يكون ممدوحاً إذا كان في أمور الخير وأبواب القربات وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : " لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار " [٣] .

وفي حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : " لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار " .

فكأن رسول الله ﷺ قال : لاحسد ولكن الحسد ينبغي أن يكون في قيام الليل وتلاوة القرآن بالليل والنهار وفي إنفاق المال في حقه .

---

[١] الجامع لمعمر بن راشد ٤٠٣/١٠ ، البيهقي في شعب الأيمان ٦٣/٢ رقم ١١٧٢ .

[٢] فتح الباري ٤٨٩/١٠ .

[٣] البخاري كتاب فضائل القرآن باب اغتباط صاحب القرآن ٦٩٠/٨ رقم ٥٠٢٥ ، مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة ٤٥٨/١ رقم ٨١٥ .

فالمسلم يغار ممن يتصف بهذه الصفات ويحب أن يكون مثله وهذا يسمى غبطة وتسميته حسداً على سبيل المجاز وقد جاء في حديث أبي كبشة الأنماري قال : ضرب لنا رسول الله ﷺ مثل الدنيا مثل أربعة رجل آتاه الله مالاً وآتاه علماً فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول : لو أن الله آتاني مثلما آتى فلان لفعلت فيه مثل الذي يفعل فهما في الأجر سواء ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يمنعه من حقه وينفقه في الباطل ورجل لم يؤته الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يقول لو أن الله آتاني مثل ما أتى فلان لفعلت فيه مثل ما يفعل فهما في الوزر سواء " [١] .

وقد أرشد النبي ﷺ المسلم لعدم تعريض نفسه للحسد فقال : " استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان لها فإن كل ذي نعمة محسود " [٢] وذلك لأن الحسد لايكون إلا على نعمة .

والحسد ينشأ من قلة العقل والجهل بمقام الرب قال ابن سيرين : ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار .

وقال الحسن البصري : يا ابن آدم لاتحسد أخاك فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله تعالى وإن كان لغير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ .

---

[١] ابن ماجة في سننه كتاب الزهد باب النية ١٤١٣/٢ رقم ٤٢٢٨ ، وأحمد في مسنده ٣٩/١٤ رقم ١٧٩١٤ وإسناده صحيح .

[٢] الطبراني في المعجم الكبير ٩٤/٢٠ ، وفي الأوسط ٥٥/٣ رقم ٢٤٥٥ ، وفي الصغير ٢٩٢/٢ رقم ١١٨٦ وإسناده ضعيف .

الفائدة الثالثة : يحذر النبي ﷺ أمته في هذا الحديث من التباغض والتحاسد حتى لايترتب على ذلك تدابر وتقاطع وتهاجر .

والأمر بترك التدابر والتقاطع يعني : لاتتهاجروا فيدبر أحدكم عن أخيه فيترك الكلام معه والسلام عليه ونحو هذا وإنما سُمي الإعراض والمخاصمة تدابراً لأنك إذا أبغضت إنساناً أعرضت عنه ومن أعرضت وليته دبرك وكذلك هو يصنع معك ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته لتسره ويسرك .

وقد فسر الإمام المازري التدابر بالمعاداة لأن من دابرته فقد عاديته والمعاداة ولاشك هي ثمرة التدابر وقد فسر الإمام مالك المراد بالتدابر في الحديث بمعنى خاص فقال : ولا أحسب التدابر إلا الإعراض عن السلام يدبر عنه بوجهه [1] وقد أخذه مالك من قول النبي ﷺ في إحدى روايات الحديث : " يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ السلام " [2] .

فيفهم من أن صدور السلام منهما أو من أحدهما يرفع ذلك الإعراض ولذلك قال أنس بن مالك راوي الحديث : التدابر هو التصارم [3] .

وقال الإمام النووي : التدابر هو المعاداة وقيل المقاطعة لأن كل واحد يولي صاحبه دبره ، فالحديث يرشدنا إلى التحاب والتراحم والتآخي وترك ما يوجب التقاطع والتهاجر من البغض والتحاسد لنكون عباد الله إخواناً .

ولذلك عقب في الحديث عن هذه المناهي بقوله وكونوا عباد الله إخواناً فهذه الجملة كالتعليل لما سبق كأنه قال : إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخواناً

---

[1] موطأ مالك ص٦٩٢ .

[2] البخاري كتاب الأدب باب الهجرة ٥٠٧/١٠ رقم ٦٠٧٧ ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الهجرة فوق ثلاث بلا عذر شرعي ١٩٨٤/٤ رقم ٢٥٦٠ .

[3] فتح الباري ٤٩٨/١٠ .

ومفهومه أنكم إذا لم تتركوها صرتم أعداءً ومقصود الأمر بـالأخوة هنـا : أي اكتسبوا من صفات الخير وتجنبوا من صفات الشر ما تصيرون به إخواناً ، قال القرطبي : والمعنى كونوا كإخوان النسب في الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة " [١] والحديث يحدد لنا طريق الأخوة فيبـين أن طريـق الأخوة هو ترك التباغض والتحاسد والتدابر والتقاطع واعتقاد أن الجميع عبـاد الله . وقد جاء في رواية أخرى للحديث " وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله " [٢] أي كونوا إخواناً بترك هذه المناهي السابق ذكرها فإنها تجمع معاني الإخوة .

وقد نسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله لأنه مبلغ عنه وقد يكون قول النبي ﷺ : كما أمركم الله إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [٣]

وهو خبر بمعنى الأمر يبين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن وفي الحديث " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات " [٤] .

فالمسلم سليم القلب نقي الفؤاد يحب إخوانه ويتمنى لهم الخير ويعلم أن الله يطلع على ما في القلوب ولا تخدعه الظواهر وفي الحديث : " إن الله لا ينظـر

---

[١] المفهم ٥٣٢/٦ .

[٢] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ١٩٨٤/٤ رقم ٢٥٥٩ .

[٣] سورة : الحجرات آية (١٠) .

[٤] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ١٩٨٦/٤ رقم ٢٥٦٤ .

إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلـوبكم " [١] والمقصـود أنكـم مستوون في كونكم عبيداً لله وملتكم ملة واحدة فالتباغض والتحاسـد والتـدابر والتقاطع مناف لما ينبغي أن يكون عليه حالكم فالواجب عليكم أن تكونوا إخواناً متواصلين متآلفين متحابين .

الفائدة الرابعة : أفاد هذا الحديث أنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه أكثـر من ثلاث ليال فإن هجره ليلة أو ليلتين جاز .

وإنما أجاز الإسلام الهجرة ما لم تبلغ ثلاث ليال لأن الآدمي مجبول على الغضب وهذا الغضب يزول أو يقل في ثلاثة أيام فإذا ذهـب غضـبه وهـدأت ثورته وخفت حدة انفعالاته وذهب عنه الشيطان وعاد إليه عقله أصبح ولا عذر له في الهجرة والقطعية فيجب عليه إذا لقي أخاه أن يبدأه بالسلام فتزول الوحشة وتثبت أواصر الأخوة وفي الحديث أن " خيرهما الذي يبدأ بالسلام " [٢] فإن رد عليه أخوه اشتركا في نيل الأجر وإن لم يرد عليه باء بالإثم وحده وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : " فإن مرت به ثلاث فلقيه فليسلم عليه فإن رد عليه فقـد اشتركا في الأجر وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجرة " [٣] فإن أصرا على الهجر باءا بالإثم معاً وفي الحديث : " فإنهما ناكثان على الحق ماداما على صرامهما وأولهما فيئاً يكون سبقه كفارة فإن ماتا على صرامهما لم

---

(١) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ١٩٨٧/٤ رقم ٢٥٦٤ .

(٢) البخاري كتاب الأدب باب الهجرة ٥٠٧/١٠ رقم ٦٠٧٧ ، مسلم كتاب البر والصلة والآداب بـاب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي ١٩٨٤/٤ رقم ٢٥٦٠

(٣) أبو داود كتاب الآداب باب فيمن يهجر أخاه المسلم ٢٨٠/٤ رقم ٤١٩١٢ والبخاري في الأدب المفرد ١٤٩/١ رقم ٤١٤ .

يدخلا الجنة جميعاً " [١] وفي الحديث أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : " تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس فيغفر لكل عبد لايشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال : انظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتى يصطلحا " [٢] وقال جمهور العلماء : تزول الهجرة بمجرد السلام أوردّه واستدلوا بقول ابن مسعود : ورجوعه أن يأتي فيسلم عليه [٣] وقال الإمام أحمد : لايبرأ من الهجرة إلا بعوده إلى الحال التي كان عليها [٤] والمقصود هو زوال الوحشة التي بينهما فإن زالت بالسلام أو بالمراسلة كفى .

وللمسلم أن يهجر أهل المعاصي والذنوب ردعاً وتأديباً لهم كما أمر النبي ﷺ أصحابه بهجر كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع حينما تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ولذلك قال الإمام الطبري : قصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي وذلك ليرتدعوا عن معاصيهم إذا ترك المسلمون كلامهم قال الإمام الكرماني : وهجرة أهل ألأهواء والبدع واجبة على مر الأوقات ما لم يظهروا التوبة والرجوع إلى الله وذلك إذا كان المسلم يرجو بذلك الهجر تأديبه وزجره ليعود إلى طاعة الله أو يخاف على دينه وعقيدته منه .

---

[١] ابن حبان في صحيحه ٤٨٠/١٢ رقم ٥٦٦٤ ، أحمد في مسنده ٥٠٦/١٢ رقم ١٦٢١٠ وإسناده صحيح .

[٢] مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن الشحناء والتهاجر ١٩٨٧/٤ رقم ٢٥٦٥ .

[٣] الطبراني في المعجم الكبير ١٨٣/٩ رقم ٨٩٠٤ وقال الهيثمي ، رجاله رجال الصحيح غير عصمة بن سليمان وهو ثقة مجمع الزوائد ٦٧/٨ .

[٤] فتح الباري ٥١١/١٠ .

ولذلك منع النبي ﷺ أصحابه من كلام كعب وصـاحبيه زجـراً وتأديبـاً وعقوبة لتخلفهم عن الغزوة بغير عذر ولم يمنع من كلام من تخلف عنها مـن المنافقين مؤاخذة للثلاثة لعظيم منزلتهم وازدرائه بالمنافقين لحقارتهم .

الدروس المستفادة من الحديث

١) تحريم بغض المسلم والإعراض عنه بعد صحبته بغير ذنب شرعي .

٢) حث المسلمين على المودة والتعاطف والتناصح والشفقة فيما بينهم .

٣) النهي عن أسباب التباغض والتحاسد والتدابر وعما يترتب عليها من الأمور المكتسبة .

٤) تحريم الحسد وذمه إذا اقترن بالبغي والعفو عن حسد الطبع بشـرط أن لايقارن بغي وعدوان .

٥) لايجوز للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا إذا أخـاف مـن صـلته ومكالمته ما يفسد عليه دينه أو يجلب له مضرة في دينه أو دنياه ورب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية .

٦) فضل السلام لأنه يرفع التباغض ويورث الود قال الشاعر :

قد يمكث الناس دهراً ليس بينهم ∴ ود فيزرعـه التسـليم واللطـف

أعمال القلب وأعمال الجوارح

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا التقوى هاهنا ويشير إلى صدره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .

تخريج الحديث

أخرج الإمام البخاري معظم جمل هذا الحديث مفرقة في صحيحه وأخرجه كاملاً بهذا النص : الإمام مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه [١٩٨٦/٤ رقم ٢٥٦٤] .

الراوي الأعلى للحديث

هو الصحابي الجليل أبو هريرة الدوسي سبقت ترجمته .

معاني المفردات

إياكم : كلمة تحذير ومفادها احذروا .

الظن : أراد بالظن هنا : الشك حينما يعرض لك في شيء فتصدقه وتحكم به دون أمارة واضحة أو دليل بيّن وجمعه ظنون .

أكذب : الكذب ضد الصدق وهو مخالفة الكلام للواقع .

الحديث : المراد به هنا الكلام مطلقاً .

ولاتجسسوا ولاتحسسوا : بحذف التاء فيهما للتخفيف قيل إنهما بمعنى واحد وهو طلب الأخبار وقيل معناهما متغاير كما سيأتي .

ولاتنافسوا : بحذف التاء من المنافسة وهي الرغبة في الحصـــول علـــى الشيء والانفراد به مشتقة من الشيء النفيس وهو الجيد في نوعه .

لايظلمه : أصل الظلم الجور ومجاوزة الحد .

ولايخذله : الخذل هو ترك الإعانة والنصرة .

ولايحقره : أي لايذله يقال رجل حقير أي ذليل .

بحسب : أي يكفي .

وعرضه : العرض هو موضع المدح والذم من الإنسان سواءً كـــان فـــي نفسه أو حسبه وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنـــه أن ينتقص ويثلب .

وماله : أصل المال هو كل ما يملك من الذهب والفضة ثم أطلق على كل ما يقتني ويملك من الأعيان وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنهـــا كانت أكثر أموالهم وسمي مالاً لأن القلوب تميل إليه أو لأنه يميل القلوب .

المعنى الإجمالي للحديث

المسلمين جميعاً إخوة يتفاضلون بالأعمال الصالحة ويتراحمون فيما بينهم يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر من رأى منهم على أخيه زلة سترها فـــإن عاد إليها نصحه مشفقاً عليه حريصاً على هدايته يحبه بقلبه ويتمنى له ما يتمنى لنفسه يحمل أقواله وأفعاله على أحسن ما تحتمل فلا يظن به سوءًا ولايفتـــرض فيه سوء نيته يعذره إن أخطأ ويسامحه إن اعتـــذر لايبغـــي معرفـــة أســـراره ولايتطلع إلى خفاياه ولاينافسه على نيل أمور الدنيا ولايحسده على نعمة أعطاه الله إياها ولايبغضه ولايهجره إلا تأديباً وزجرًا لأنه يعلم أنه أخوه فلا يظلمه بل يسعى في رفع الظلم عليه قدر استطاعته ولايذله ويحتقره لأنه لايدري لعله خير من عند ربه فلا تغره صورة الأعمال فهو يعلم أن الله ينظر إلى القلوب وأن في

صلاحها صلاح الأعمال وفسادها يفسد الأعمال الظاهرة فإذا صلح القلب صلحت سائر الجوارح فيستقيم اللسان وتنضبط الجوارح فتصون الأعراض والدماء والأموال وترجو مغفرة الله وعظيم عفوه وتتمنى رضاه .

الفوائد والأحكام

الفائدة الأولى : يحذر لنبي ﷺأمته في الحديث من الظن وهو التهمة التي لاسبب لها ولادليل عليها كمن يتهم رجلاً بالفاحشة أو بشرب الخمر من غير أن يتأكد من هذا وهذا ظن سوء ومنه أن تعادي أهلك وصديقك على ظن تظنه به دون تحقيق أو تحدث بأمر مبناه على الظن وتدعي أنه علم يدخل فيه أيضاً اتباع الظن في أمر الدين الذي يجب أن يبنى على اليقين قال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [١] .

فالنبي ﷺ يعلمنا أن نضع الأمور في نصابها ولانعتمد على الشك والوهم دون دليل ولذلك عطف عليه قوله : ولاتجسسوا وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع فنهي عن ذلك .

وهذا الحديث يوافق قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [٢] .

فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة وحرمة الخوض فيه بالظن فإن قال الظان أبحث لأتأكد وأتحقق قيل ولا تجسسوا فإن قال تحققت وتأكدت من غير تجسس قيل له ولايغتب بعضكم بعضاً فالظن مبدأ

---

[١] سورة : يونس آية رقم (٣٦) .

[٢] سورة : الحجرات آية رقم (١٢) .

الفساد لأن الإنسان يظن ثم يتجسس ثم يغتاب فنهى النبي ﷺ عنه قطعاً لدابر الفساد .

والنهي لايتناول مبادئ الظنون التي تقع في القلوب لأنها خواطر لايمكن دفعها وما لايقدر الإنسان عليه لايكلف به وقد جاء في الحديث : " ثلاث لايسلم منها أحد الطيرة والظن والحسد " قيل فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : " إذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ " [١] فالله يتجاوز عن مبادئ الظنون ما لم ترق إلى شك وفي الحديث : " تجاوز الله للأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل " [٢] ولذلك قال سفيان الثوري : الظن ظنان ظن فيه إثم وظن ليس فيه إثم فأما الظن الذي فيه إثم فالذي يتكلم به وأما الذي ليس فيه إثم فالذي لايتكلم به .

والمسلم مأمور بترك تحقيق الظن وترك ما يقع في القلب بغير دليل وحمل الأمور على أحسن وجوهها قال عمر بن الخطاب : لايحل لامرئ مسلم سمع من أخيه كلمة أن يظن بها سوءًا وهو يجد لها في شيء من الخير مصدراً . فالمسلم يحسن الظن بإخوانه ويحذر من سوء الظن بهم ما لم توجد والعاقل هو الذي لا يضع أحدهما مكان الأخر .

قال عمر بن الخطاب ﷺ : احتجزوا من الناس بسوء الظن أي لاتثقوا بكل أحد فإنه أسلم لكم ومن أمثلة العرب الحزم سوء الظن وقد حاول البعض

---

[١] الجامع لمعمر بن راشد ٤٠٣/١٠ ، البيهقي في شعب الإيمان ٦٣/٢ رقم ١١٧٢ والطبراني في المعجم الكبير ٢٢٨/٣ رقم ٣٢٢٧ .

[٢] البخاري كتاب الطلاق باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون ٣٠٠/٩ رقم ٥٢٦٩ ، ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١١٦/١ رقم ١٢٧

الاستدلال بهذا الحديث على منع العمل في الأحكام الشرعية بالاجتهاد والرأي لأنه ظن وهو منهي عنه وهذا خطأ لأن الظن المنهي عنه هو المجرد عن الدليل المبني على غير أصل ولا تحقيق نظر قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [١] وهذا يقتضي أن منه ما ليس بإثم وهو ما يتوصل إليه الإنسان بالنظر والاجتهاد إن كان أهلاً لذلك فالظن الشرعي الذي تبنى عليه الأحكام هو تغليب أحد الجانبين بأدلة راجحة وقد يكون بمعنى اليقين وهو ليس مراداً في الآية ولا في الحديث فلا يلتفت لمن استدل بهما على تحريم الظن الشرعي لأنه يعتمد على أمارة ظاهرة ودليل واضح ولذلك يجوز بناء الأحكام عليه ولذلك قال رسول الله ﷺ " ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً " [٢] وإنما بنى النبي ﷺ ظنه على أمارة ودليل وقال ابن عمر : كنا إذا فقدنا الرجل في عشاء الأخرة أسأنا به الظن ومعناه أنه لا يغيب إلا لأمر سيء في بدنه أو في دينه .

وقد وصف النبي ﷺ الظن بأنه أكذب الحديث مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلاً أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن فهذه إشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند على شيء يجوز الاعتماد عليه فهو أخو الكذب وإنما صار أشد من الكذب لأن الكذب مستقبح في أصله متسغني عن ذمه بخلاف هذا فإن صاحبه يزعم أنه يعتمد على شيء فوصف بكونه أشد من الكذب للمبالغة في ذمه وللتنفير منه وللإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب لخفائه غالباً ووضوح الكذب المحض .

---

[١] سورة : الحجرات آية رقم (١٢) .

[٢] البخاري كتاب الأدب باب ما يجوز من الظن ١٠/٥٠٠ رقم ٦٠٦٧ .

وسمي الظن حديثاً لأن الحديث ينشأ عنه فوصف الظن به مجـــازاً ولأن المراد عدم مطابقة الواقع سواءً كان في القول وهو الكذب أو الفعل وهو الظـــن وقيل المراد الظن أكذب حديث النفس لأنه ناشئ من إلقاء الشيطان ووسوسته .

الفائدة الثانية : حذر النبي ﷺ المسلم من الظن ثم حذره مـــن محاولـــة تحقيق هذا الظن بالتحسس بالحاء المهملة أو التجسس بالجيم وقد اختلف العلماء في تحديد المراد بهما فقيل : هما بمعنى واحد وهو البحث عن عيـــوب النـــاس ومساوئهم إذا غابت واستترت فلا يحل لاحد أن يسال عنها أو يحاول الكشـــف عن خبرها وإنما ذكرت الكلمة الثانية تأكيداً للأولى كقولهم **بعدًا وســـحقًا** . وقيل أصل التي بالحاء من الحاسة وهي إحدى الحواس الخمس وبالجيم مـــن الجـــس بمعنى : اختبار الشيء باليد وهي واحدة من الحواس الخمسة فتكون التي بالحاء أعم .

وقيل التجسس بالجيم : التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر والجاسوس صاحب سر الشر والناموس صاحب سر الخير وبالحاء البحث عما يدرك بخاسة العين أو الأذنين .

وقيل التجسس بالجيم وهو طلب الخير لنقله للغير وبالحاء أن يطلب الخير لنفسه وقيل بالجيم هو البحث عن العورات وبالحاء الاســـتماع لحـــديث القـــوم فالإسلام يأمرنا بالأخذ بالظاهر وعدم التفتيش عن المستور فإذا تعين التجســـس طريقاً إلى إنقاذ نفس من الهلاك كأن يخبر ثقة بأن فلاناً خلا بشخص ليقتله ظلما أو بامرأة ليزني بها فيشرع التجسس في هذه الصورة خشية من فوات استدراكه.

الفائدة الثالثة : أمر الرسول ﷺ المسلم بإحسان الظن بإخوانه وعدم التتبع لعوراتهم ثم أمره بعدم منافستهم على الدنيا فقال . ولاتنافسوا والمراد هو التحذير من التنافس في الدنيا وطلب الظهور فيها على أصحابها والتكبر عليهم ومزاحمتهم في رياستهم والبغي عليهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله

فالمنافسة هي التباري في الحرص على الشيء وهي نوعان محمودة إذا كان التنافس في الخير المأمور به قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [١] أي في الحصول على الجنة فكأن المنافسة هي الغبطة وهي أن تتمنى أن يحصل لك الخير وتنافس غيرك في ذلك وتتمنى أن تتميز عليه بفعل الطاعات دون أن تتمنى حرمانه من الطاعة أو وقوعه في المعصية .

ومذمومة وهي الحرص على الدنيا وأسبابها والرغبة في الانفراد بها وقد حذر النبي ﷺ من ذلك فقال : " إني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها " [٢] وفي رواية : " فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم " فالنبي ﷺ يأمرنا بعدم التنازع على الأمور الدنيوية الخسيسة لأنها تقضي إلى قسوة القلب والتنازع والهلاك بل ينبغي أن يكون تنافس المسلمين في الأشياء الأخروية النفيسة التي تجلب لصاحبها سعادة الدنيا وعز الأخرة .

الفائدة الرابعة : حذر النبي ﷺ المسلمين من التجسس والتنافس في الدنيا ثم حذرهم من أسباب البغضاء والشقاق فحذرهم من الحسد والتباغض والتدابر لأنهم عباد الله وقد أمرهم الله بذلك فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [٣] ثم بين النبي ﷺ أن المسلمين جميعاً إخوة يجمعهم الإسلام ويربط بينهم بشرائعه وشعائره فيصبحون جميعاً إخوة أحرارًا كانوا أم عبيدًا رجالاً كانوا أم نساءً لا

---

(١) سورة : المطففين آية رقم (٢٦) .

(٢) البخاري كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد ٢٤٨/٣ رقم ١٣٤٤ ، مسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا وصفاته ١٧٩٥/٤ رقم ٢٢٩٦ .

(٣) سورة : الحجرات آية رقم (١٠) .

تمايز بينهم ولا تفاضل إلا بالتقوى والعمل الصالح قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [(١)] .

وحتى تدوم المودة وتثبت أركان الأخوة فلابد من أداء حقوق الأخوة ومنها كما بيّن الحديث أن لا يظلم أخاه وهو خبر يفيد معنى الأمر فالواجب على المسلم أن لا يظلم أخاه فلا يمنعه حقه ولاينقص منه فالظلم حرام قال الله تعالى في الحديث القدسي : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا " [(٢)] .

وكذلك يجب على المسلم أن لا يخذل أخاه فيتركه لمن يظلمه ولايقوم بنصره وقد قال الرسول ﷺ : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " قيل يا رسول أنصره إذا كان مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : : تحجزه أو تمنعه من الظلم فذلك نصره " [(٣)] فإذا طلب المسلم من أخيه الإعانة والنصرة لدفع ظالم أو لنيل حقه ونحوه لزم إعانته إذا أمكن ذلك ما لم يكن له عذر شرعي يمنعه من ذلك وفي الحديث : " الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " [(٤)] .

ويجب عليه كذلك أن لا يحقره بأن ينظر إليه بعين الاستصغار فيحقره لأن هذه صفة المتكبرين الجاهلين فالمسلم لايحتقر غيره ولايستصغره لأن ذلك ناشئ من تعظيم النفس وكبرها وجهلها بحال من تحتقره مع أنه قد يكون فيه ما

---

(١) سورة : الحجرات آية رقم (١٣) .

(٢) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم ١٩٩٤/٤ رقم ٢٥٧٧ .

(٣) البخاري كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ٣٣٨/١٢ رقم ٦٩٥٢ ، مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ١٩٩٨/٤ رقم ٢٥٨٤ .

(٤) مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٠٧٤/٤ رقم ٢٦٩٩ .

يقتضي عكس ذلك قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّ ﴾ [١] فإذا احتقر المسلم أخاه كان ذلك كفيلاً بهلاكه وغلبة الشر عليه ولذلك قال الرسول ﷺ : " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " أي يكفيه من الشر احتقاره لأخيه المسلم فإنه النصيب الأكبر والحظ الأوفى من الشر .

وهذه الأخلاق الذميمة لا تصدر عن مسلم إلا إذا كان مقطوع الصلة بربه والملجأ من هذه الصفات هو تقوى الله عز وجل فالمتقي هو الذي يعرف ربه فيعظمه ويعرف نفسه فيحتقرها ويعرف حقوق إخوانه فيؤديها ويحسن الظن به ثم يجعل بينه وبين ما يخافه من المكروه وقاية تقيه منه ولذلك قال رسول الله ﷺ : " اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة [٢] أي اجعلوا هذه الأمور وقاية بينكم وبين النار فمجمل معنى التقوى هو الخوف من الله ومراقبته واستشعار معيتة ثم يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية من الطاعات والبعد عن المعاصي والسيئات فأصل التقوى هو الخوف والخوف ثمرة المعرفة بجلال الله وعظمته وعظيم سلطانه وشدة سطوته وعقابه والخوف والمعرفة محلهما القلب والقلب محله الصدر ولذلك أشار النبي ﷺ على صدره وقال : التقوى هاهنا والتقوى خصلة عظيمة وحالة شريفة آخذه بمجامع علوم الشريعة وموصلة إلى خير الدنيا والآخرة والتقوى لا تحصل في القلب بالأعمال الظاهرة وإنما سبب حصولها في القلب هو معرفة الله والخوف منه وتعظيمه وإجلاله فتنشأ من ذلك الأعمال الظاهرة .

---

[١] سورة : الحجرات آية رقم (١١) .

[٢] البخاري كتاب الأدب باب طيب الكلام ٤٦٣/١٠ رقم ٦٠٢٣ ، ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدق ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار ٤٠٧/٢ رقم ١٠١٦ .

ولذلك بين النبي ﷺ حرمة المسلم دمه وماله وعرضه فلا يحل سفك دمه إلا بإحدى ثلاث "النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة"[١] " ولن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً " [٢] ولا يحل أخذ ماله لأن من اقتطع حق مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة قيل وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال وإن قضيباً من أراك .. [٣] ولا يحل الانتهاك من عرضه وإيصال الأذى إليه بذكر ما يكرهه . فضلاً عن الافتراء عليه فالغيبة ذكرك أخاك بما يكره فإن كان فيه ما تقول فقد بهته [٤]

الفائدة الخامسة : التقوى محلها القلب وثمرتها هي الأعمال الظاهرة فالمؤمن سليم القلب منقاد الجوارح لربه وانقياد الجوارح دون تسليم القلب نفاق وسلامة القلب دون انقياد الجوارح معصية ترجى لصحابها التوبة ولذلك قال النبي ﷺ إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم والله عز وجل هو خالق الأشياء جميعاً وهو ينظر إليها جميعاً ويطلع عليها ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ونظره بهذا المعنى يعم جميع الأشياء .

وقد جاء في الشرع نظر الله بمعنى : رحمته للمنظور له ومغفرته له وبمعنى رضاه عنه وقبوله لأعماله ومجازاته عنها فهو نظر خاص يراد به الرحمة والمغفرة والرضا والله يخص به بعض المخلوقات دون بعضهم قال

---

(١) البخاري كتاب الديات باب قول الله تعالى : أن النفس بالنفس ... الآية ٢٠٩/١٢ رقم ٦٨٧٨ ، مسلم كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم ١٣٠٢/٣ رقم ١٦٧٦ .

(٢) البخاري كتاب الديات باب قول الله تعالى " ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم " ١٩٤/١٢ رقم ٦٨٦٢ .

(٣) مسلم كتاب الإيمان باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمينه فاجرة بالنار ١٢٢/١ رقم ١٣٨ .

(٤) مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥/١٩ .

تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [1] وفي الحديث : "ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر" [2] .

فالمقصود بعدم نظر الله إلى الصور والأجسام أنه لايثيب عليها ولايقرب عبده منه باعتبارها فإن الإنسان لا يد له ولاقدرة له على تغيير صورته ولونه بشرته قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [3] ولكن الله ينظر إلى القلب دون الصورة الظاهرة .

ومقصود هذا الحديث أن محط نظر الله من العبد هو القلب وأن اعتبار الصلاح والفساد والهداية والضلال والإيمان والكفر هو القلب وفي الحديث " إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي القلب " [4] نسأل الله أن يرزقنا سلامة القلب وصلاحه .

---

(١) سورة : آل عمران الآية رقم (٧٧) .

(٢) مسلم كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة باكلف ١٠٢/١ رقم ١٠٧ .

(٣) سورة : سبأ آية رقم (٣٧) .

(٤) البخاري كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ١٥٣/١ رقم ٥٢ ، ومسلم كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك المتشابهات ١٢١٩/٣ رقم ١٥٩٩ .

الدروس المستفادة من الحديث

١- النهي عن كل ما يورث البغضاء بين المسلمين من الظن السيئ والتحسس والتجسس والتنافس والتحاسد والتباغض والتدابر .

٢- الحث على المودة والتعاطف والشفقة بين المسلمين .

٣- المسلم أخو المسلم يحرص على عدم ظلمه أو خذلانه ويحذر من احتقاره .

٤- حرمة دم المسلم وعرضه وماله .

٥- الاعتناء بأحوال القلب وصفاته وتحقيق علومه وتصحيح مقاصده وتطهيره من الصفات المذمومة وتحليته بالصفات المحمودة .

٦- القلب هو محل نظر الله تعالى ومقياس صلاح العبد وفساده فالعالم بقدر اطلاع الله تعالى على قلبه يجب عليه أن يفتش عن صفات قلبه وأحواله خشية أن يكون في قلبه وصف مذموم يمقته الله بسببه .

٧- الاعتناء بإصلاح القلب وتصحيح أعماله مقدم على أعمال الجوارح لأن أعمال القلب هي المصححة للأعمال والعمل الشرعي لايقبل إلا من مؤمن عالم بمن كلفه مخلص له فيما يعمله ثم لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الله فيه وهو الذي عبر عنه النبي ﷺ بالإحسان فقال : " أن تعبد الله كأنك تراه " [1] .

أعمال القلوب هي المصححة للأعمال الظاهرة وأعمال القلب غيب عنا ولايستطيع أحد أن يقطع بمغيب استناداً على صور الأعمال الظاهرة من طاعة أو معصية فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله تعالى من قلبه وصفاً

---

[1] البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١٤٠/١ رقم ٥٠ ، مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ٣٦/١ رقم ٨ .

مذموماً يحبط تلك الأعمال ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفاً محموداً يكون سبباً في مغفرة ذنوبه والأعمال أمارات ظنية وليست أدلة قطعية ويترتب على ذلك عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة ومعاص ظاهرة وعدم الجزم لأحد بالنار إلا من نص الشرع عليه بل نحتقر ونذم حالته السيئة ومعاصيه الظاهرة لا تلك الذات المسيئة فتدبر ها فإنه نظر دقيق وملحظ عميق ينجي من المهالك .

الفهـــرس

الفهـــرس